

البلاغة والمربي

في ثوبه الجديد

علم البديع



الدكتور تكريتي شيخ أئمَّن

البِلَاغُ الْعَرَبِيُّ  
فِي ثُوَبَهَا الجَدِيدِ

علم البديع

مكتبة  
يوسف الرميض  
لنشر وترويج الكتب  
بكلية مجالاتها  
**دار العالم الملايين**

توزيع

# دار العلم الماليين

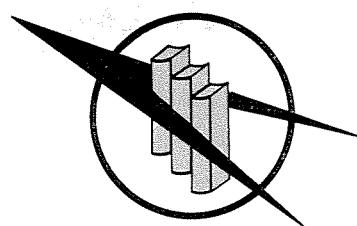
مؤسسة ثقافية للتأليف والتANDOM والتشر

شارع مار الياسان - خلف شفاعة المخلو

صيغ ١٠٨٥ - تلفون ٨٦٦٣٩ - ٢٤٤٤٥

روقيا : ملايين - تلkin: ٢٣١٦٦

بيروت - لبنان



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

ستّوز (يوليو) ١٩٨٧

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله بديع السموات والأرض ، والصلوة والسلام على سيدنا محمد ،  
خير من نطق بالضاد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد ، فهذه هي الحلقة الأخيرة من سلسلة «البلاغة العربية في ثوبها الجديد» في علم البديع ، أضعها اليوم بكل تواضع بين أيدي العلماء والدارسين .

ولشن جاءت هذه الحلقة متأخرة بعض الوقت عن سابقتها : علم المعاني وعلم البيان ، إن ذلك لم يكن كسلاماً ، أو إهمالاً ، أو تقاصيراً ، أو قريباً من هذا كله ، وإنما كان ، في الحق ، تهيئاً من الإقدام على الخوض في علم هو في ظاهره لين الملمس ، ناعم المظهر ، رقيق الحواشي ، سهل بسيط ، لكنه في حقيقته غير ذلك ، وفيه الحُرُزونَة ، وفيه الاستعصار ، وفيه المزالق والعقبات والمخاطر .

ولقد يخيّل للناظر العجلان أنَّ التأليف في البلاغة ، بوجه عام ، وفي البديع ، بوجه خاص ، أمر يسير ، إذ يكفي أن تأخذ كتاباً في هذا الفن ، قدِيماً أو حديثاً ، وتسلِّم منه ما تشاء ، ثم تضع على غلافه اسمك ولقبك ، شأنك في هذا شأن كثيرون من ألفوا في علوم البلاغة ، تبانت أسماؤهم ، واتفقت مضامين كتبهم .

ويعلم الله ، أنَّ هذه الحلقة التي خصّت لعلم البديع وحده ، أخذت من الجهد ، والسهر ، والمراجعة ، والتَّدقيق ، والسؤال ، والاختبار ما لم يأخذ مؤلف آخر ، أكبر حجماً ، وأوسع أفقاً .

ولعلَّ ما يلفت النَّظر أنَّ الناس اختلفوا في حكمهم على البديع وأهله

اختلافاً شديداً، ففريق يعظمه، ويسلك ف nomine في قصائد دعية بالبدائع، ويؤلف فيه، ويحتفل به غاية الاحتفال؛ وفريق آخر ينظر إليه باشمئاز، ويصف العصر الذي ساد فيه وشاع بعصر الانحطاط أو الانهيار، حتى لقد قرأت مرة في إحدى الصحف العربية الكبرى، والتي تصدر من بلد خارج العالم العربي لكاتب يتحدث في موضوع أدبي، وحدث أن وقعت عنده سجعة طبيعية بين فقرتين، وإذا الكاتب يستدرك على ذلك بقوله: «وأستغفر الله على هذه السجعة غير المقصودة» وكأنه ارتكب جرماً، أو اترف ذنباً، أو وقع في خطيئة، فاحتاج إلى استغفار، أو كأنه أعتقد أنَّ أسلوبه أعلى وأكرم وأسمى وأشرف من أن تقع فيه سجعة مقصودة أو غير مقصودة..

هذا الموقفان المتباينان: موقف علماء انداح زمنهم من القرن الخامس الهجري إلى القرن الرابع عشر، وأحبوا البديع وألوانه، ولا سيما الذي حمل صورة مبتكرة، ونمَّ عن رشاقة، ونَضَحَ بعنوية، وتوسَّحَ بأسلوب رفيع، فإنه كان يسلُّب أبابهم، ويشغف قلوبهم ويملك عقولهم، سواء أجزاء بصورة جناس أو سجع أو طباق أو تورية أو غير ذلك، فالفنون البديعية جمِيعاً على حد سواء طالما كانت ناجحة، وطبيعية، وأنيقه، وفيها مسحة من جمال؛ أما إذا شموا منها رائحة التكلف والجهد والعرق فإنَّهم كانوا يرفضونها، أو لا يعبأون بها، ويتركونها تذوي وتموت..

وال موقف الثاني هو موقف معظم المؤلفين المعاصرين، فلقد وقفوا من البديع وأهله وعصره وأدبه، شعره ونشره موقفاً متشنجاً، ذلك أنَّهم رفضوا كلَّ ما جاء به العصران المملوكي والعثماني ومن قبلهما: أوآخر العصر العباسي.. وكان تمني أن لو فرقوا بين الفنون البديعية وبين الشعراة، وبين الإنتاج الأدبي، وبين من نجح ومن أخفق.. إذن لكانوا أكثر عدلاً وإنصافاً، وأعدل حكماً ونقداً..

الأمر الآخر الذي واجهته في هذا الكتاب هو أنَّ العلماء في مطلع العصر العباسي وقفوا على ألوان محدودة ومعنودة في البديع، لا تكاد تتجاوز أصابع اليدين، ومع مرور الزمن كان العلماء والأدباء يضيفون إليها أنواعاً وألواناً جديدة، حتى بلغ صفي الدين الحلي ما يزيد على مائة نوع منها، ثم وقف العلماء عند هذه الألوان، لا يزيدون عليها، ولا ينقصون منها، لكنَّ الشعراء والمبدعين لم يتقيدوا

أو يَحدُّوا أنفسهم بحدود، وظلّوا منطلقين، وكانت تصدر عنهم بين الفينة والأخرى مبتدعات جديدة وطريفة، وفيها من الفن والذوق والشكل الجمالي ما يجعلها أرقى وأجمل وأحلى من كثير مما عند المصنفين والمُؤلِّفين السابقين.

هذه الألوان الجديدة التي وُلِّدَتْ كثيرة منها في العصور المتأخرة، ولم يُدرجها مؤلفو البديع المعاصرون في كتبهم، إما لأنَّهم لم يطَّلعوا عليها، أو لأنَّهم حاروا في أمرها، أو لأنَّهم آثروا سلامَة الرأس والأذن، وابتعدوا عن كلِّ ما يقلق راحتهم، ويسلِّب من عيونهم رقادها، خشية نقد النَّاقدِين، أو اعتراض المُعترضين.

ولقد جئت بمعظم هذه الألوان الجديدة، وأدرجتها مع مباحث البديع في هذا الكتاب، ورغبت أن ينظر فيها النَّاس، ويتحققُوا من أن بعضها قد يشكّل لوحَة فنية جمالية، فيها من الإِيداع والرُّوعة ما تفتقده كثير من اللوحات الفنية المنشورة في المتاحف والقصور العالية؛ ومن حقِّ أصحابها علينا أن نقدر عملهم وفنهم وإبداعهم كما قدر العلماء السَّابقُون أعمال معاصرِيهم، ومن سَلَفُوا ، وأدرجوا إنتاجَهم في كتبهم ومصنفاتِهم ..

كذلك هناك نقطة أخرى أود الإِشارة إليها في هذا الكتاب، وهي أنَّ الفنون البديعية في كتب البلاغة محدودة المعنى والأفاق والصفات والتعريف .. وخَيَّلَ إلى أنَّ ذلك بعض دوافع المتجاهفين والشائين لهذا العلم؛ واستدراكاً لهذا التَّقصير حاولت، قدر الطَّاقة والجهد والسَّهر ونور العين، أن أتمدد في البحث، وأنطلق من أقوال المؤلِّفين السابقين إلى آفاق أخرى، تخوض في التَّقدِّمة، وفي علم النَّفس أخرى، وفي علم الجَمَال مرة، وفي علم الأسلوب مرة ثانية، وفي الشرح الأدبي مرات، وأربطها بعلوم الدين، أو بالتاريخ البشري، أو بتاريخ الحضارة، أو بفلسفه الأمم، أو بمنطق الشعوب، أو بغير ذلك مما يتطلَّب البحث ويتمدد فيه ويتناسب ويتفق .

ولست أدرِي هل أخطأت هدفي أو أصبتَه، ونجحت فيما رميَتُ إليه أو أخفقت؟

ويكفيوني شرفاً أنِّي خدمت هذا العلم بإخلاص وتواضع ومحبة . وأسأل الله، وحده، الأجر والقبول والرضى وأن يطرح فيه البركة ، ويحسبه في صحفة أعمالِي ووالدي ، ويؤخِّره ليومٍ لا ينفعُ فيه مالٌ ولا بنون، إلَّا منْ أتَى الله بقلبٍ سليم،

وَعَمِلَ قَوِيمٌ، وَسُلُوكٌ مُسْتَقِيمٌ  
رَبَّنَا تَقَبَّلَ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ.

جدة: ٥ جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ  
٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٧ م.

بكرى شيخ أمين

القسم الأول

# جماليات في النظم والمعنى



## البديعيات

في موكب الشعر العربي عبر عصوره المختلفة نقف على مجموعات من القصائد، تتقارب في سماتها، وتتحدد في مسمياتها، ويكون الشاعر فيها رجلاً واحداً، أو رجالاً متعددين. من هذه المجموعات: المعلقات، والمفضليات، والرؤميات، والسيفيات، واللزوميات، والبديعيات، والشوقيات.

والغريب في أمر هذه المجموعات أنَّ حظَّ بعضها من الدراسة بلغ الذُّرى، وقارب الكمال عمقاً وعدداً، وأنَّ بعضاً آخر لم يلْ من الاهتمام والعناية ما هو به جدير.

من هذه الألوان المهمضومة الحق «البديعيات»، فإنه لم يعُكِّف على دراستها الدراسة الجادة الرصينة، وإعطائِها ما تستحقُ من عناية واهتمام سوى نفرٍ قليل من الباحثين، لا يَدُوِّنُ عدُّهم أصواتَ اليدينِ، على مساحة العالم العربي اتساعاً وعمقاً عبرَ الزَّمن<sup>(١)</sup>.

ما هي البديعيات؟

إنَّها قصائد مُطولة، تزيد القصيدة الواحدة على خمسين بيتاً، وقد تبلغ

(١) نشير في هذا المقام إلى الدراسة التي قام بها الأستاذ علي أبو زيد، وكان عنوانها: البديعيات في الأدب العربي: نشأتها - تطورها - أثرها. ونال بها شهادة الماجستير من كلية الآداب بجامعة دمشق، ثم نشر هذه الدراسة في «عالم الكتب» في بيروت سنة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

المائة، أو المائة والخمسين بيتاً، وقد تصل أحياناً إلى ما يقرب من ثلاثة وثلاثمائة بيت.

الهدف الرئيسي في هذه القصائد هو مدح رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم في المقام الأول، واستعراض شمائله وصفاته ومزاياه، كما يتضمن كل بيت من هذه القصيدة لوناً من ألوان البديع، مذكورة صراحة أو ضمناً.

وحيث أن هذه القصائد - جمِيعاً - قد انفتقت على استعراض فنون البديع ضمن أبياتها، فإن ذلك هو السبب الذي دعا العلماء إلى أن يُطلقوا على القصيدة من هذا النوع اسم (البديعية)، وعلى المجموع اسم (البديعيات<sup>(١)</sup>).

ولقد التزم شعراء البديعيات جمِيعاً بأن ينظموا بديعياتهم على وزن البحر البسيط، وأن يجعلوا روِيهَا الميم المكسورة على الدوام.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول: إن البديعية تتضمن الموصفات التالية:

- ١ - عدد أبياتها يزيد على الخمسين.
- ٢ - موضوعها الأساسي مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.
- ٣ - كل بيت فيها يتضمن لوناً من البديع صراحة أو ضمناً.
- ٤ - منظومة على البحر البسيط.
- ٥ - روِيهَا الميم المكسورة.

وكل قصيدة خلَّت من أحد هذه الشروط لا تعدُّ من (البديعيات).

## ولادة البديعيات

إن مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ليس كافياً لنشأة القصيدة البديعية، رغم كونه أساساً في كيانتها، بدليل أن الأعشى مدح مهدأ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك فعل حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وشعراء كثيرون في صدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي، حتى يومنا هذا.. ومع ذلك فليست تُعدُّ قصائدهم من البديعيات. إنما البديعية، كما ذكرنا، تُضيف إلى مدح

(١) سرى بعد قليل أن تسمية صفي الدين الحلي إحدى قصائده «الكافية البديعية» أثراً في شيوع الكلمة.

المصطفى عليه الصلاة والسلام ألوان البديع ، مع المحافظة على البحر البسيط ، والميم المكسورة رُوِيَّاً ، وطول القصيدة أبياتاً .

ويبدو أنَّ الذي فجَّر ينبعو البديعيات شاعر مصريٌّ من قرية «بُوصير» ، من أعمال بني سُويف ، أصله من المغرب ، من قبيلة صنهاجة ، اسمه محمد بن سعيد ابن حمَّاد بن عبد الله الصنهاجي البُوصيري ، شرف الدين ، ولد سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١٢ م ، وتُوفِي بالإسكندرية سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م .

كان البُوصيري شاعراً رِيقَاً ، ورجلًا متدينًا صالحًا ، وذا عيال ، وكان يغلب عليه الفقر .

أُصيب بفالح نصفيّ ، شَلَّه ، وأقعده طريح الفراش ، رهين الدار ، فاستكان لقضاء الله وقدره ، وراح يستعين على بلواه بالاستغفار والتهليل والتسبيح والدعاء والتَّضرُّع إلى الله ، ويُكثِر من الصلاة والسلام على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وبدا له أن ينظم في محتته هذه قصيدة طويلة ، استهلَّها على عادة الشعراء بمقدمة غزليَّة ، حَنَّ فيها إلى ديار الحبيب ، وذَكَر مواطنَ حبه ، وتلمَّس كلَّ أثرٍ فيها ، وكان من جملة ما ذكر: ذو سَلَّمٍ ، وإِضْمَمْ . وكاظِمَة ، والبَان ، والعلَم .. وهي ، في الحقيقة ، مواطن ، وجَبَال ، وأودية ، تحيط بالمدينة المنورَة ، فدلَّ بهذا الذكر على أنَّ حبه ليس كحب سواه من الشُّعراء ، وإنما هو حبٌّ متمثَّل بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وما هذه المواطن إلا أُطْرُفُ للمدينة المنورَة تتنشق من عَنقِ الحبيب الكريم .

وكأنَّ البُوصيري كان يَنحو منحى الشَّرِيف الرَّضِيَّ حين رَمَزَ إلى حبه السامي ، وحنَّيه إلى ديار الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مستهل قصيده ، حيث قال :

ياطبيَّة البَان تَرْعَى في خَمَائِلِه ليهَنَكِي الْيَوْمَ أَنَّ القلب مَرْعَالِي  
الْمَاءُ عنْدَكِي مَبْذُولٌ لِشارِبِه وليس يَرْوِيكِ إِلَّا مَدْمَعِي البَاكِي  
سَهْمُ أَصَابَ وَرَامِيهِ بِنِي سَلَّمٌ مَنْ بِالْعِرَاقِ ، لَقَدْ أَبَعَدَتِ مَرْمَاكِي

أما البُوصيري فقد تخيل في مقدمته الغزلية عذولاً أو لا حيَا وقف يستنطقه عن سر بكمائه الذي امترجت فيه الدَّموع بالدماء .. لأنَّه تذَكَّرَ جيرانه بذِي سَلَّمَ ، أم لأنَّ

البرق أضاء ساحاتِ إِضمِّ، أم لأنَّ نَسَماتَ الحبيب هَبَّتْ من كاظِمةٍ، فسَبَّتْ له  
هذا البكاء المُدمَّى؟.. ويلحُ السَّائِلُ أَكْثَرَ، ويزدادُ إِلْحَاحًا وطلَّابًا لمعرفة سرَّ هذه  
الدَّمْوعِ الْحَارِقَةِ الْكَاوِيَةِ.

ويستغرب أمر عينيه إذ كلَّما أمرَهُمَا الشَّاعِرُ بالكَفِّ عن البكاء أو التَّزَفِ زَادَتَا  
إِغْرِاقًا بالبكاء مُحْمَرًا.. وكُلَّمَا نادَى قلبَهُ أَنْ يُقْيِقَ ويصْحُوَ مِنْ غُشْيَتِهِ ولوْعَتِهِ ازْدَادَ  
خَفْقَانًا وَاضْطِرَابًا وَعَصْيَانًا.. ويستقرُّ في ذَهَنِ السَّائِلِ أَنَّهُ لِيُسَ بِهَذِهِ الصَّفَةِ إِلَّا مَنْ  
ذَابَوا وَجْدًا وَهِيَامًا.. وَأَنَّ الشَّاعِرَ وَاحِدًا مِنْهُمْ.. وَلَا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ  
الْمَوَاجِعِ وَالْلَّوَاعِجِ.. وَهَذِهِ الدَّمْوعُ الْحُمْرُ، وَالآهَاتُ الْحَرَّى، وَرَوَائِحُ الْحَرِيقِ  
تَبَعَّثُتْ مِنْ كَبِدِهِ وَحَنَّيَا ضُلُوعِهِ.. إِنَّ الْحُبَّ فَضَّاحٌ لِصَاحِبِهِ.. وَمِنْ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ  
يَكْتُمَ مَحْبُّ حَقَّ سَرَّ هَوَاهُ.. لَأَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ مِنْ أَعْضَاءٍ يَكْشُفُ سَرَّهُ، وَيَفْضُحُ  
أَمْرُهُ.. وَيَكْفِي الْمُتَّمِّمُ أَنْ تَذَكَّرَ لَهُ اسْمٌ مِنْ يَحْبُّ، أَوْ بَلْدَهُ، أَوْ جِيرَانَهُ، أَوْ إِشَارَةً مِنْهُ  
لِتَرَى اصْفَارَ وَجْهِهِ، وَارْتَعَاشَ يَدِيهِ، وَاصْطِكَاكَ رِكْبَتِيهِ، وَخَفْقَانَ قَلْبِهِ، وَسِيلَانَ  
دَمِ عَيْنِيهِ.

ويُعُودُ السَّائِلُ إِلَى الشَّاعِرِ لِيَقُولَ لَهُ: لَمْ يَعُدْ أَمَامَكَ مَجَالٌ لِلنُّكَرَانِ، أَوْ فَرَصَةُ  
لِهَرُوبٍ؛ لَقَدْ ذَكَرُوا لَكَ الْبَيْانَ وَالْعِلْمَ فَارْتَجَفَتْ، وَسَالَتْ دَمَوْعُكَ.. بَلْ إِنَّهَا حَفَرَتْ  
أَخْادِيدَ عَلَى خَدِيكَ.. وَإِنَّهَا، وَايْمُ اللهُ، لَتَشْوِيْكَ بِحَرَارَتِهَا، وَتُلْهِبَ لَحْمَ  
وَجْهِكَ.. يَا هَذَا الرَّجُلُ! لَا تُخْفِي مَا فَعَلْتَ بِكَ الأَشْوَاقُ، وَاسْرَحْ هَوَاكَ، وَاعْتَرَفْ  
أَنَّكَ مُدَنَّفٌ، فَالْدَّمْوعُ الْكَاوِيَةُ وَحْدَهَا بَعْضُ الشَّوَاهِدِ وَالْبَرَاهِينِ.

وهنا ينهَى الشَّاعِرُ أَمَامَ تِيَارِ الْأَسْئِلَةِ، وَهِيَ تَحْمِلُ الْبَرَاهِينَ النَّاصِعَةَ، وَالْحُجَّاجَ  
الْدَّامَغَةَ، وَالْأَدَلَّةَ الْمَقْنَعَةَ.. بَلْ كَانَ مِنْ دَمْعِهِ، وَزَفِيرِهِ، وَنَحْوِلِهِ، وَحَرِيقِ فَوَادِهِ دَلِيلُ  
أَكْبَرٍ، وَبِرْهَانٍ أَعْظَمُ.. وَحِينَئِذٍ يُصْرَحُ بِمَا يَكُونُهُ وَيَدْعُوهُ: فَيَبِدَأُ بِكَلْمَةِ «نَعَمْ»..  
وَإِنَّ هَذِهِ الـ «نَعَمْ» إِيَّازَانُ بَانْهِيَارٍ كُلَّ مَقاوِمَةٍ أَوْ مَحاوِلَةٍ لِلْكَتْمَانِ.. وَيَبِدَأُ بِسِرِّدِ مَا  
يَلَاقِي، وَمَا يَدْفَعُ إِلَى الْبَكَاءِ.. لَقَدْ سَرَّ طَيْفُ الْحَبِيبِ فِي عَيْنِيهِ.. فَأَطَارَ النَّوْمَ  
مِنْهُمَا.. وَجَمَعَ عَلَيْهِ اللَّذَّةُ وَالْأَلَمُ فِي آنِ وَاحِدٍ.. اللَّذَّةُ فِي لِقَاءِ الْحَبِيبِ، - وَلَوْعَبُ  
طِيفِهِ - وَالْأَلَمُ مِنْ فَقْدَانِهِ فِي عَالَمِ الْوَاقِعِ، وَعَدَمِ قَدْرَتِهِ عَلَى رَاحَةٍ أَوْ كَرَى.

ونريد أن نقول: إنَّ الْبُوْصِيرِيَّ فِي قُولِهِ «وَالْحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَّاتِ بِالْأَلَمِ»  
سبَقَ عِلْمَاءَ النَّفْسِ بِمَا يَزِيدُ عَلَى سَبْعِمِائَةِ عَامٍ حِينَ قَرَرَ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ النَّفْسِيَّةُ

«اجتمع اللذة والألم» معاً وفي وقت واحد.. ولقد فاضت كتب علم النفس بتقرير هذه الظاهرة، وامتلأت نفوس الذين زعموا أنهم ابتدعواها فخراً وغرواً، ولم يعرفوا أنَّ البوصيريَّ في قصيده هذه قد قرَّرَ هذه الواقعَة قبل مئات السنين، لكن علماء المسلمين لم يحاولوا أن يخرجوا بها من عالم القصيدة هذه إلى الفضاء الرَّحِيب في أجواء العالم ليُظْهِرُوا إبداعات المسلمين من السَّلف العظيم في المجال النفسي والتحليل الذاتي.

ويتابع الشاعر اعتراضاته، فيخاطب اللاثم أو اللاحي أو العذول ويذكر له بأنَّ حبه عذري؛ والحبُ العذري طُهْرُكُلُهُ، ثم يعتذر إليه عن عدم قدرته على الخروج من إسار الحب وقيوده، ويرجوه أن يكفَ عن السُّؤال والملام، ويدعوه الله لكل عذول أو مشفق عليه ألا يرميه بالهوى، وأن يسْتره فلا يفضحه، وأن يعافيه فلا يبتليه.

ويختتم الشاعر هذا المطلع الغزلي الرائع بحكمةٍ كادت أن تصبح مثلاً شروداً بين الناس، وهي:

محضتي النصح، لكنْ لستُ أسمعه إنَّ المحبَّ عن العذالٍ في صممِ  
إنَّ هذه المقدمة الغزلية شدت كلَّ عشاقِ الغزل الرفيع، والحب الصادق،  
والتعبير الرائع، والموسيقى الصادحة، والأسلوب المتقن.. حتى لقد غدت على  
كل شفةٍ ولسان، وصارت مثلاً أعلى يحتذيه كلُّ شاعر تأتي به الأيام.. ولا أدَّلَ على  
ذلك مما سَمِيَ به أحمد شوقي قصيده التي مطلعها «ريمٌ على القاع بينَ البَانِ  
والعلَم» بـ: «نهج البردة».

أما الأبيات الغزلية بهذه هي:

منْجَتْ دَمْعًا جَرَى منْ مُقلَّةِ يَدِمْ؟  
أمْ تَذَكَّرُ جِيرَانِ بِنِي سَلَمْ.  
وأَمْضَى الْبَرْقُ فِي الظَّلَمَاءِ مِنْ إِصْمَ؟  
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقاءِ كَاظِمَةِ  
وَمَا لِقِيلِكَ إِنْ قَلْتَ: أَسْتَفْقُ بِهِمْ؟  
فَمَا لِعِينَكَ؟ إِنْ قُلْتَ: أَكْفُهَا، هَمَّا  
مَا بَيْنَ مُسْجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمٍ  
أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحُبَّ مُنْكِتِمٍ  
وَلَا أَرْقَتَ لِذِكْرِ البَانِ وَالْعَلَمِ  
فَكِيفَ تُسْكُرُ حَبَا بَعْدَمَا شَهَدَتْ  
مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدِيكَ وَضَنَّى

نعم .. سرى طيفٌ من أهوى فارقني  
يالائمي في الهوى العذري معلقة  
عذتك حالي لا سرّي بمستر  
محضتي النصّ، لكن لستُ أسمعة

ثم انتقل إلى موضوع التحذير من هوى النفس، ونظم في ذلك سبعة عشر  
بيتاً، وكان من جملتها البيت الذي غدا على كل شففة ولسان، وشاهدًا ثابتاً في  
جميع كتب البلاغة في موضوع التشبيه التمثيلي وهو:

والنفس كالطفل، إنْ تهمله شبَّ على حبِ الرَّضاع، وإنْ تقطمه ينفطم  
ثم جاء إلى موضوع مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد امتدَ به النفس  
في هذا إلى مائة وأثنين وثلاثين بيتاً، وكان هذا القسم من الروعة في الصدق،  
والحرارة، وال فكرة، والتعبير، والجرس الموسيقي بالغا درجة عالية نكاد نقول: إنه  
لم يبلغها أحدٌ قبله، ولا جاراه أحدٌ بعده من الشعراء، حتى لقد ذكر بعض متذوقي  
هذا اللون من الأدب الرفيع أنه لم يمدح أحد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل  
ميمية البوصيري وهمزيته.

وفي هذا القسم أبياتٌ خالدة، من جملتها:

دعْ ما ادعَّه النصارى في نَبِيِّهِ واحكمْ بما شئتَ مَدحًا فيهِ واحتكمِ  
وفي هذا البيت ينفي البوصيري وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بما  
وصف به النصارى عيسى عليه السلام حيث زعموا أنه ابن الله، وأصفوا عليه  
صفات الالوهية والربوبية، وبذلك أشركوا بالله، وكفروا به كفراً مبيناً.  
والبوصيري يضع حدًا فاصلاً بين ما يجوز مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم به،  
وما لا يجوز، ذاك الفاصل يتجلّى في صفة (العبدية) لله تعالى. فمحمد، صلى الله عليه وسلم، أولاً وأخيراً عبد الله، مخلوقٌ، تجّري عليه سُنة الحياة ونوميسها  
كما تجري على كل مخلوقٍ سواه، إلا أنه يمتاز عن سائر المخلوقات بأنه سيد ولد  
آدم، وأنه خاتم رسل الله، وأنه الشّفيع والمشفع، وأنه الممدوح بقوله تعالى:  
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وأنه الأسوة الحسنة، والمثل الأعلى لكل إنسان

(1) سورة القلم، الآية ٤.

في هذا الوجود .. وبيت البوصيري فيه :

دَعْ مَا ادْعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحَأً فِيهِ وَاحْكِمْ  
وَأَكَّدْ هَذَا الْمَعْنَى ثَانِيَةً فِي قُولِهِ :

فَمَبْلِغُ الْعِلْمِ فِيهِ اللَّهُ بَشَرٌ وَاللَّهُ خَلَقَ اللَّهَ كُلُّهُمْ  
وَتَسْتَمِرُ الْقُصْيَدَةُ عَلَى هَذَا النَّفْسِ الرَّقِيقِ وَالرَّفِيعِ حَتَّى تَبْلُغَ مائَةً وَسَتِينَ بَيْتاً.

\* \* \*

ويظهر لنا أنَّ من أسباب ذيوع هذه القصيدة في عصر البوصيري وفي العصور  
التي تلت إلى يومنا هذا، وعلى امتداد العالم الإسلامي من أقصاه إلى أدناه، ورغبة  
الشعراء في النظم على منهاها العناصر التالية :

١ - موضوع القصيدة أولاً وأخيراً .. ذلك أنَّ المسلمين جمِيعاً يطربون لكل قصيدة  
تُمجدَ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظمه وت مدحه .

٢ - سلاسة النظم وعدوبته، ورقة الألفاظ، وجمال التراكيب التي بُنيت عليها  
القصيدة . فأنت فيها لا تحتاج إلى إعمال فَكِير لفهم المعاني، ولا الرجوع  
إلى المعاجم ليقف على تفسير الألفاظ، ولا سؤال أهل الذكر لتوضيح صغيرة  
أو كبيرة فيها، وتلك أهم مقومات العمل البلاغي الناجح .

٣ - روعة الموسيقى وانسيابها عبر وزن البحر البسيط وخفتها وقع القافية ، وجمال  
الميم المكسورة في الروي .. وكل هذه العناصر إذا اجتمعت رفعت العمل  
الفنِي إلى مرتبة اللحن الشجي الذي يُغْنِي ، ويخترق سامعه حتى العظام .

٤ - قصة الرؤيا التي تحدث عنها البوصيري ، فقد ذكر أنَّه بعد نظم هذه القصيدة  
رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام ، فأنشدَه إِيَّاهَا ، فخلع عليه بُردَتَه  
الشَّرِيفَةَ ، ونهض البوصيري مستيقظاً ، فرأى فيه نهضةً ونشاطاً ، ووجد أنَّ اللَّهَ  
تعالى قد شفاء من فالجه ، وأمده بالآء الصحة والعافية<sup>(١)</sup> ، فخرج من بيته  
يمشي .

واعتقد الناس بهذه القصيدة اعتقداتٍ شتَّى ، بعضها مقبول ، وبعضها غير  
مقبول ، وحفظوها ، وأنشدوها في مجالسهم ، وشطteroها ، ورَبَّعوها ، وخمسُوها ،

(١) فرات الوفيات ٣٦٨ / ٣

وبنوا على مثالها، ولا يزالون يفعلون هذا إلى يومنا، وسموها قصيدة «البردة»<sup>(١)</sup>.  
ومن هذه العوامل .. ولهذه الدواعي .. ولدت «البديعيات» .

والبديعيات، أصلاً، وكما ذكرنا، قصائد منظومة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. على البحر البسيط، وعلى روبي الميم المكسورة. والفرق بينها وبين بُرْدَة البُوصيري أن شعراء البديعيات أضافوا إلى المديح ذكرَ اللوان البديع صراحة أو ضمناً، بينما لم يكن في «بُرْدَة» البُوصيري شيءٌ من هذا الذكر، صريحاً أو غير صريح .

### شعراء البديعيات

اختلاف العلماء في أولية من نظم بديعية، فمن الباحثين من قال: إن صفي الدين الحلي، المتوفى سنة ٧٥٠ هـ هو أول من ابتدع هذا الفن، ومنهم من قال: إن ابن جابر الأندلسى المتوفى سنة ٧٧٩ هـ هو السابق والأول، ومنهم من رد الأولية إلى الإربلي المتوفى سنة ٦٧٠ هـ<sup>(٢)</sup> .

أما أولية الإربلي التي قال بها بعض الدارسين فمردودة، رغم تقدم الإربلي في الزَّمن، لأن قصidته التي مطلعها:

بعض هذا الدلائل والإدلائل . حالى الهجر والتَّجَبُّ حالى

تدور حول مدح بعض معاصريه، على وزن البحر الخفيف، وعلى روبي اللام. وتلك مخالفات صريحة لشرط القصيدة البديعية . لكننا نعرف له بالسبق في تضمين كل بيت من أبيات قصidته لوناً من البديع، وأنه مهَّد لفكرة إنشاء البديعيات .

أما أولية بديعية ابن جابر الأندلسى والتي شرحها أبو جعفر الإلبيري فقد قال

---

(١) انظر كشف الظنون ٢/١٣٣١ . وما بعدها .

(٢) راجع في هذا الموضوع: ابن حَجَّة الحموي: شاعراً وناقداً للدكتور محمود الرbdاوي ص ١٨٧ ، والبديعيات في الأدب العربي لعلي أبو زيد ص ٥٥ ، ومطالعات في الشعر المملوكي والعثماني للدكتور بكري شيخ أمين ص ٢٦٧ ، والصيغة البديعية في اللغة العربية للدكتور أحمد إبراهيم موسى ص ٣٧٧ ، والأدب في العصر المملوكي للدكتور محمد زغلول سلام ١/٢٣١ .

في مقدمة شرحه لها: «نادرة في فنها، فريدة في حسنها، تجني ثمر البلاغة من غصتها، وتنهل سواكب الإجاده من مزتها، لم ينسج على منوالها، ولا سمحت قريحة بمثالها». وهذه المقدمة أو همت عدداً من الدارسين أن يقولوا بأولية ابن جابر الأندلسي الأعمى، والذي تعرف بديعيته باسم «بديعية العميان». ولكن العلماء الذين عاصروا ابن جابر، والذين كانوا أصدقاءه، لم يذكروا له هذه الأولية، وكان على رأسهم صلاح الدين الصفدي المتوفى بعد الصفي الحلي بأربعة عشر عاماً، وقد كان أستاذأً لابن جابر، وصديقاً، وراوياً أخباره وأشعاره، وقد قال عنه في كتابه «نكتُ الهميَان»: «وينظم الشِّعر جيداً، وأنشدني منه كثيراً، وهو الآن حيٌ يُرزق بناحية إلبيَر . . .» ولم يذكر عن بديعيته شيئاً مطلقاً. ويدوًأ أنه نظمها بعد وفاة صديقه الصفدي<sup>(١)</sup>. ومطلعها:

بِطِيبَةِ انْزَلَ وَيَمِّمْ سَيِّدَ الْأَمْمَ وَأَنْشَرَ لَهُ الْمَلْحَ وَأَنْشَرَ طَيْبَ الْكَلِيمِ  
وَيَخِيلُ إِلَيْنَا أَنَّ ابْنَ جَابِرَ اطْلَعَ عَلَى بَدِيعَيَةِ صَفَيِّ الدِّينِ الْحَلَّيِ، حِينَ قَدِمَ إِلَى  
مَصْرُ، أَوْ حِينَ اسْتَوْطَنَ مَدِينَةَ حَلَبَ . . . وَمَعْلُومٌ أَنَّ بَيْنَ الْحَلَّةِ، مَسْقَطِ رَأْسِ صَفَيِّ  
الْدِينِ، وَالْعَرَاقِ بِوْجَهِ عَامِ، وَمَدِينَةِ مَارْدِينِ الَّتِي اسْتَوْطَنَهَا الْحَلَّيُ وَبَيْنَ حَلَبَ وَأَوَاصِرَ  
قُرْبَىِ، وَصَلَاتِ رَحْمَ، وَلِقاءَاتِ مَحْبَّةِ، وَاتِّصالِ عَلَمَاءِ، وَتَبَادُلِ ثَقَافَةِ، مَا لَا تَخْفِي  
عَلَى مَطْلَعِ وَدَارِسِ . . .

ويكاد يتحقق العلماء في الماضي والحاضر على أنَّ صَفَيِّ الدِّين<sup>(٢)</sup> أولَ مَنْ  
نهض بهذا الفنَّ، وحمل لواءَه، وحازَ به فَصْبَ السَّبَقِ . . .

فالرَّجُلُ شاعرُ فَحْلٍ، وَدِيوانُه يَحْتَوِي عَلَى مُخْتَلَفَ الأَغْرَاضِ، وَفِيهِ قَصَائِدٌ  
رَائِعَةٌ، لَا تَقْلِي جَوَدَةً عَنْ بَعْضِ قَصَائِدِ فَحْولِ الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ، ثُمَّ إِنَّهُ رَجُلٌ مَالَ فِي  
أَوَّلِ حِيَاتِهِ إِلَى التَّوْبَةِ وَالتَّقْوَىِ، وَالنَّظَمُ فِي الْمَوْضِعَاتِ الَّتِي تَفَعَّلُهُ فِي آخِرِهِ  
وَتَرْفَعُهُ فِي دِنِيهِ، وَهُوَ مَعَ هَذَا كَلَّهُ عَالَمُ فَحْلٍ، لَهُ عَدَا دِيوانُه كِتَابٌ «الْعَاطِلُ  
وَالْحَالِي» وَهُوَ رِسَالَةُ فِي الزَّجَلِ وَالْمَوَالِيَا، وَ«الْأَغْلَاطِي» وَهُوَ مَعْجمٌ لِلْأَغْلَاطِ

(١) انظر ترجمته في نكت الهميَان في نكت العميان ص ٢٤٤ ، والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني ٣/٤٢٩ ، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٦/٢٦٨ ، والأعلام للزركلي ٥/٣٢٨ .

(٢) انظر ترجمته في فرات الوفيات ٢/٣٣٥ ، و٢/٤٧٩ ، والنجم الزاهرة ١٠/٢٣٨ ، وصفي الدين الحلي: حياته وشعره للدكتور ياسين الأيوبي ، والأعلام ٤/١٧ .

اللغوية، و «دُرُّ النَّحْوَرِ فِي مَدْحِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ» وهي المعروفة بالأُرْتِقَاتِ، و «صَفْوَةُ الشَّعْرَاءِ وَخَلَاصَةُ الْبَلْغَاءِ» و «الْخَدْمَةُ الْجَلِيلَةُ».

أما بديعيته التي سماها «الكافية البديعية» في المدائح النبوية فمطلعها:

إِنْ جِئْتَ سَلْعًا فَسَلْ عَنْ جَرَةِ الْعِلْمِ وَاقْرَ السَّلَامَ عَلَى عَرْبِ بَنْيِ سَلَمٍ

وقد شرحها بنفسه وأسمى الشرح: (النتائج الإلهية في شرح الكافية البديعية في المدائح النبوية). وقد قال في مقدمة الشرح «... فجمعت ما وجدت في كتب العلماء (وكان يقصد فنون البديع)، وأضفت إليه أنواعاً استخرجتها من أشعار القدماء، وعزمت على أن أؤلف كتاباً محظياً بجلها، إذ لا سبيل إلى الإحاطة بكلها...». وإن دل هذا النص على شيء فإنما يدل على رغبة الحلي بتأليف كتاب يجمع فيه ألوان البديع التي ذكرها العلماء قبله، والألوان التي اكتشفها هو أو ابتدعها.

لكن نظم هذه الأنواع في قصيدة كان سببه ما جاء في النص التالي الذي ذكره الحلي في شرحه قال: «... فعرضت لي علة طالت مدتها، وامتدت شدتها، واتفق لي أنني رأيت في المنام رسالة من النبي عليه السلام تتقاضاني المدح، وتعذبني البرء من الأقسام، فعدلت عن الكتاب إلى نظم قصيدة تجمع شتات البديع، وتتطرّز بمدح مجده الرفيع، فنظمت مائة وخمسة وأربعين بيتاً من البحر البسيط».

ليس لنا أن ننكر قصّة هذه الرؤيا في المنام، كما أنه ليس لنا أن ننكر قصّة رؤيا البوصيري، لأننا نفترض الصدق في الرجال الصالحين التقيين. ولأنَّ مثل هذه الرؤى غير مستغربة ولا مستنكرة لو حدثنا بها إنسان عادي، فكيف إذا كان المحدث مريضاً، وتقيناً، وكثير التصرّع والابتهاج.. وعالماً وشاعراً؟؟؟

إننا نميل إلى تصديق البوصيري، وإلى تصديق صفي الدين، ومن ثم إلى تصديق اتفقنا له لما أمر به في المنام، ولو كذا مكانه، وتلقينا مثل الإشارة التي تلقى، إذن لمَّا سمعنا وأطعنا، وكيف لا نفعل ذلك، والإشارة تأتي من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل ألم يقل الإمام الشافعي، رضي الله عنه:

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لَا طَعْنَةُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ

بعد هذا نرى أن لا غرابة أن ينشط **الحلي** لمعارضة **البُوصيري** في قصيدة كقصيده ما دامت دواعي النظم متشابهة، وأن يستريح من البحث عن بحر عروضي وقافية وموضع لقصيده، ما دام يعيش التجربة نفسها التي عاشها **البُوصيري**، فكل ظروفه تشبه ظروف **البُوصيري**، وإنما عليه من حرج لو أفرغ معانيه وأفكاره وعواطفه في قوالب مشابهة لمعان كان غيره قد مر بها! وإذا كان ثمة فرق بين **الحلي** والـ**بُوصيري**، فهو في أن **الحلي** ضمن قصيده أنواع البديع، ولطالما فكر في ذلك، ووَدَ أن يجمعها في كتاب قبل أن يلِمَ به المرض<sup>(١)</sup>.. وما عليه اليوم إلا أن يجمع الهدفين في وقت واحد: مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أولاً، وتضمين ألوان البديع في هذا المدح ثانياً.

وكان ذلك، ونظم الكافية البدعية وبدأها

إنْ جِئْتَ سَلْعاً فَسَلْ عَنْ جِيرَةِ الْعَلَمِ      وَأَفْرَ السَّلَامَ عَلَى عَرْبِ بَذِي سَلَمِ  
 إنْ سَلْعاً ، والعلَمِ ، وذا سَلَمِ ، مواطن تلفُّ مدينة الحبيب .. إذن فهي حبيبة وقريبة إلى العين والقلب .. ويدركنا هذا المطلع بمطلع بُردة **البُوصيري**:  
 أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بَذِي سَلَمِ      مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةِ بَذِيمِ  
 وَيَزِيدَ بَيْتُ الْحَلَّى عَلَى بَيْتِ الْبُوصيري بالجناس الذي كان بين (سلعاً  
 وسلٰ عنْ) .

ولا نزيد في هذا المقام أن نغفل أن شيوخ كلمة: «**بدعية**» و «**بدعيات**» لهذا النوع من القصائد مردُه إلى **الحلي**، وإليه يعود الفضل، فالتسمية أخذت من عنوان قصيده: «**الكافية البدعية**» ..

وهكذا تمت ولادة أول بدعية، كاملة الإنشاء والتَّكوين بين يدي صفي الدين **الحلي**.

\* \* \*

كانت بدعية صفي الدين رائعة، حلّق فيها الشاعر إلى آفاق من الفن والشاعرية لفت نظر جميع من يحبون الفن الرفيع .. وكانت أمّها التي ورثتها

(١) **البدعيات** في الأدب العربي ص ٥٨.

شمائلها عظيمة وحبية إلى كل الناس، بل كانت آسيرة قلوب المحبين في جميع أرجاء العالم الإسلامي.

هذا العلان الرائع شجعاً الشعراء على أن يهجوا نهج البوصيري في أشواقه ومواجهه وموسيقاه، والحلبي في ألوان بدعيه التي ضمّنها.

وفتحنا أعيننا، وإذا نحن أمام ما يزيد على مائة بدعيّة في أدبنا العربي، كلّها ت مدح رسول الله محمدًا صلّى الله عليه وسلم، وتنظم في ثناياها فنون البديع، وتتحذّد البحر البسيط نغماً، والميم المكسورة روايًّا، وأكثر من هذا فإنّ هذا الفن بقواعدة كاملة انتقل إلى لغات العالم الإسلامي، فنظم شعراء الأتراك بديعيات باللغة التركية، ونظم شعراء فارس بديعيات باللغة الفارسية، ونظم أهل السنّد والهند بديعيات باللغة الأوردية.. كما نظم الشعراء النصارى بديعيات في مدح السيد المسيح عليه السلام باللغة العربية.. ونعتقد أنه لا يزال في العالم الإسلامي من يعكف على نظم بديعيات، ليكون حلقة في سلسلة الشعراء والعلماء والمحبين.

ولعلّ من أشهر ما قرأنا من بديعيات، إضافةً إلى بدعيّة الصفي الحلبي، بدعيّة عز الدين الموصلي، وشعبان الأثاري، وابن حجّة الحموي، والسيوطى، وعائشة الباعونية، وابن معصوم المدنى، وعبد الغنى النابلسى.

### أثر البديعيات في الأدب

إنّ ناظمي البديعيات لم يكونوا شعراء فحسب، وإنّما كانوا شعراء أدباء، قد امتلكوا زمام الأدب من شقيقه: الموهبة الشعرية، والمقدرة على التّاليف، فهدّبت الشّاعرية أقلامهم، وقعد القلمُ أشعارهم.

وهؤلاء النّفر من الناس ما كانوا ليكتفوا بنظم البديعية، في الغالب، بل كانوا يجعلون همّهم في شروحها، والتّبّيه على مُستغلقاتها، والإشارة إلى مواطن الاستشهاد فيها؛ أو يأتي صديق للنّاظم، أو معجب به، فيقوم على شرحها، ولذلك فقد وجدنا بين أيدينا مجموعة كبيرة من المؤلفات التي دارت حول البديعيات. وهذه المجموعة كَوَّنت خطّاً متميّزاً في المكتبة العربية، وجانباً لا يُستهان به في التّراث الأدبي في العصور المتأخرة.

كما أنَّ مضمون هذه المؤلَّفات، وما حَوَّهُ في ثنايا صفحاتها من فنون الأدب الشعري والشري، والقصص والأمثال، ولمحات من النحو والصرف والعرض والتاريخ . إضافةً إلى الشواهد من الشعر، وأيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيرها . كلُّ ذلك يدفعنا إلى تقدير أثُرها البالغ في حركة التأليف.

وهذه الحركة التأليفية لم تقتصر على شروح البديعيات وحدتها، وإنما كانت هناك كتب أخرى انطلقت من البديعيات، ولم تكن شرحاً لها، بل كانت في النقد والبحث في السرقات، والاحتجاج لهذا أو لذاك، مضافاً إليها مختصرات الشروح، وشروح الشروح أحياناً.

ونضرب على هذه النماذج مثلاً «خزانة الأدب» لابن حَجَّةِ الْحَمْوَى، و«أنوار الرَّبِيع» لابن معصوم و«نفحات الأزهار على نسمات الأحسان» للنَّابليسي . فلقد كان الشَّارح يوضح معنى بيت البديعية، ويذكر ما فيه من صور بلاغية، ثم ينتقل إلى عالم فسيح وضيقٍ متألِّق مليء بالشواهد، والقصص، والتراجم، والأخبار، والنقد، مما تلذ قراءته، ولا تمل عشرته . وما كان البديع إلا مطية يتوصل بها المؤلف ليحلق على أجنبتها، ويسير في رحاب ما زَخَّرَ به صدره، ووعاه عقله من فنون الأدب والمعرفة، ولذلك فلنسنا قادرين على أن نسمى هذه الشروح إلا بجنة مدخلها (بديع)، وكل ما فيها مت Nouع بديع، دائمة قطفها، طيبة ثمارها، متنوعة أزهارها، لا يخرج منها المرء إلا بكلٍ مستملح مستطاب، وهي بحق : خزانة أدب وعقل<sup>(١)</sup>.

ولا ننسى، كذلك، أنَّ كثيراً من هذه الشروح أوردت أشعاراً، بل قصائد كاملة لرجال عاصروا صاحب الشرح، أو كانوا من أصدقائه، ثم طوى الرَّدِي الشَّارح والشاعر، ولم يبق إلا ما جاء مسجلاً في الكتاب، أمّا غير ذلك مما لم يرد فيه، فقد ذهب أدراج الرياح، وأصبح أثراً بعد عين . . لهذا، فإننا نسجل هذه الالتفاتة الطيبة للشارحين بمداد من الشكر والتقدير. لكنَّ عَيْناً، كذلك، على هؤلاء الشراح كبير، ذلك لأنَّهم أخذوا البديعية

(١) البديعيات في الأدب العربي ص ١٨٥ - ٢١٤.

ليشرحوها ويقدموها إلى الناس ، والبديعية في أصلها وصَمِيمها قصيدة في مدح الرَّسُول الْكَرِيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَشَرَحُوا كُلَّ مَا في البديعية من أمور بلاغية وأدبية ونحوية وصرفية وتاريخية وسوها إلَّا مدح الرَّسُول ، عليه الصلاة والسلام ، والحديث في سيرته العطرة .. وتقرا الشروح الكبيرة المستفيدة كخزانة الأدب أو أنوار الرَّبيع فتجد كُلَّ شَيْءٍ إلَّا سيرة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. وهذا ما نسجله على الشرح من تقصير ، وما نقدمه من عتاب .

### أثر البديعيات في البلاغة

لَئِنْ كَانَ إِكْثَارُ الشِّعْرَاءِ ، مِنْ مَطْلَعِ الْعَصْرِ الْعَبَاسِيِّ ، مِنَ الْمُحْسَنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ قَدْ أَثَارَ ضَجَّةً عَلَى فَاعْلَيْهَا إِلَى مَرْحَلَةِ انْقِسَامِهَا إِلَى رَافِضِهِ مُسْتَقِبِحِ ، وَمُؤِيدِ مُسْتَلِمِ ، مَا حَمَلَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ ، كَابِنَ الْمُعْتَزَ ، عَلَى التَّالِيفِ فِي ذَلِكَ ، وَمُحاوَلَةِ الْاحْتِجاجِ لِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَالْحَدِيثِ الشَّرِيفِ ، وَشِعْرِ الْقَدِمَاءِ .

وَلَئِنْ اسْتَمَرَ التَّالِيفُ فِي الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَهَنَى زَمْنُ الصَّفَّيِّ الْحِلَّيِ .. إِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَمْ يَجْعَلْ مِنَ الْبَلَاغَةِ فَتَأْيِيدَ النَّاسَ عَلَيْهِ كُلَّ الْإِقْبَالِ ، بَلْ بَقَيَتِ الْبَلَاغَةُ تَتَرَبَّعَ فِي بَرْجَهَا ، يَقْتَرِبُ النَّاسُ مِنْهَا تَارَةً ، وَيَتَعَدُّونَ أُخْرَى .. لَقَدْ كَانَتْ قَوَاعِدُ الْبَلَاغَةِ بِمَنَائِي عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ ، وَإِنَّ لَمْ تَكُنْ بَعِيَّةً عَنْ عِلْمِهِمْ وَدِرَاسَتِهِمْ ، وَكَانَ شَأْنُهَا فِي ذَلِكَ شَأْنَ التَّحْوِيَّ وَقَوَاعِدِهِ ، إِنَّهُمْ يَدْرُسُونَهُ وَيَتَعَلَّمُونَهُ ، لَكِنَّهُ يَقْعِدُ بَعِيَّاً عَنْ هَوَى النُّفُوسِ ، وَشَغَافِ الْقُلُوبِ<sup>(١)</sup> .

وَيَبْدُو لَنَا أَنَّ الْفَتْحَ الْجَدِيدَ لِلْبَلَاغَةِ بِعَامَّةً ، وَلِلْبَدِيعِ بِخَاصَّةً ، كَانَ يَوْمَ نَظَمِ الْبُوْصِيرِيِّ يُرْدَتَهُ ، وَيَوْمَ طَارَتِ الْشَّعَاعَ وَالضَّيَاءِ وَالشَّذِيَّ فِي الْآفَاقِ ، يَوْمَ أَحَبَّهَا النَّاسُ جَمِيعًا ، وَحَفْظُوهَا ، وَرَدَّدُوهَا ، وَغَنَّوْهَا ، وَكَتَبُوهَا عَلَى صَفَحَاتِ قُلُوبِهِمْ وَمَحَاجِرِ عِيُونِهِمْ .. وَيَوْمَ أَنَّ نَظَمَ الْحِلَّيِ مَعَارِضَتَهُ لِلْبُرْدَةِ ، وَعَطَرَهَا بِمَدِيعِ سَيِّدِ الْكَائِنَاتِ ، وَنَهَجَ فِيهَا الدَّرْبُ الَّذِي سَارَ الْبُوْصِيرِيُّ عَلَيْهِ

(١) انظر البديعيات في الأدب العربي ص ٢٥١ - ٣١٤.

قبله . . إنَّ هذينِ العملينِ فتحا القلوب للبدعيات أولاً ، ثمَّ لفنون البديع  
بشكلٍ خاصٍ ، وعلوم البلاغة بشكلٍ عامٍ .

ومن هذه المحبة البالغة راح الشُّعراء يتارون في نظم البدعيات ،  
ويرون فيها الغاية المُثلَى التي ينشدون ، والهداية الرائعة التي بها إلى حكامهم  
وأمريائهم وملوكهم يتقدَّمون .

لقد غدت البلاغة على يد البدعيات «فَنًا شَعبيًّا» ، بعد أن كانت عِلْمًا  
متربَّعاً في برج عاجي لا يدركه إلاّ خواص المثقفين . أمّا حين ولَحَ البديع في  
المديح المنبوبي فقد غدا شعبيًّا جماهيريًّا ، يحفظه المنشدون ، ويغُنونه في  
لقاءات الأنس والفرح ، ونکاد نقول : إنَّ البديع اصطبَّ بهذه القصائد بصفة  
التكريم والتَّعْظيم ، ولم تَنل العلوم البلاغية الأخرى في مباحث المعاني  
والبيان ما ناله البديع من تقدير .

أضِيفُ إلى ذلك أنَّ أقلَّ ما يمكن أن توصَّف به البدعيات ، عند غير  
محبِّيها وأنصارها ، أنَّها لون من ألوان الشِّعر التَّعلِيمي ، شأنُها في ذلك شأنُ  
المتون العلمية المنظومة كألفية ابن مالك في النَّحو ، والرَّحِيبة في الفرائض ،  
وغيرها . . وحتى في هذا التَّقويم ، فإنَّ البدعيات «متون» تعليمية جَمعَت  
فنون البديع ، وقدَّمتها سهلة سائفة إلى الناس جميعاً ، متعلمين كانوا أو غير  
متعلمين ، فنقلت هذا العلم من بُرْجه العاجي إلى حياة الناس ، ومختلف  
مجتمعاتهم ، وعاشت معهم سبعة قرون من الزَّمن محبوبة ، أوليفة ، منظوراً  
إليها بعين المحبة والتَّقدير والتَّكريم .

\* \* \*

## المبالغة

جاء في لسان العرب : بَلَغَ الشَّيْءُ وَبَلَغُ بُلُوغًا : وصل وانتهى . وبالغ بُلُوغ مُبَالَغَةً : إذا اجتهد في الأمر . والمبالغة : أن تبلغ في الأمر جهداً . وبالغ فلان في الأمر : إذا لم يُقصَرْ فيه .

والمبالغة عند علماء البلاغة فرع من فروع التحسين المعنوي في علم البديع ، وهي قريبة من تعريف اللغوين ، وفيها شويم من الزرايدة في الوصف على الحد الطبيعي المألف .

عرفها قدامة بن جعفر فقال : هي أن يذكر المتكلّم حالاً من الأحوال ، لو وقف عندها لأجزاء ، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره ليكون أبلغ من معنى قصده ، وضرب على ذلك مثلاً بيت عمير بن كريم التغلبي :

وَتَكْرِيمُ جَارِنَا مَا دَامَ فِينَا وَتَبْيَعُهُ الْكَرَامَةُ حِيثُ مَا لَا

قال قدامة : إن هذا البيت من أحسن المبالغة عند الحذاق ، فإن الشاعر بالغ فيه إلى أقصى ما يمكن من وصف الشيء ، وتوصل إلى أكثر ما يقدر عليه فتعاطاه .

وقال عالم آخر : المعنى إذا زاد على التمام سمي مبالغة .

وقال ابن رشيق : المبالغة بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن في وصف الشيء .

وفرق العلماء في التّعرِيف والّتَّسْمِيَّة بين المبالغة المقبولة وغير المقبولة .

فقالوا : المبالغة ثلاثة أقسام : مبالغة، وإغراق، وغلوٌ.

فالبالغة : هي الإفراط في وصف الشيء بما هو مقبول عقلاً وعادة .

والإغراق : هو الإفراط في وصف الشيء بما هو مقبول عقلاً، ومرفوض عادة .

والغلو : هو الإفراط في وصف الشيء بما هو مرفوض عقلاً وعادة .

فلو قال قائل : شربت اليوم عشرين لترًا من الماء فهو مقبول عقلاً وعادة - في حالة الحر الشديد والظلم القاتل . وهذه هي المبالغة .

ولو قال : شربت اليوم مائة لترٍ من الماء ، فهو إغراق . . . يقبله العقل ، وترفضه العادة .

ولو قال : شربت اليوم برميلاً كاملاً من الماء ، فهو غلوٌ . . . يرفضه العقل والعادة .

\* \* \*

### المبالغة بين القبول والرفض

هذه المبالغة بألوانها الثلاثة أدرجها علماء البلاغة في حقل «التحسين المعنوي» من علم البديع .

وتحدّث عنها معظم النقاد ، ووقفوا منها جملة أو تفصيلاً موقفاً متباعدة ، بل متضادّة في أحيانٍ كثيرة ، فيبينما يحبذها فريق ، ويدعمها إليها ، ويرغب فيها ، ويرى أنَّ فحول الأدباء من شعراء وكتاب هم الذين يتعاطونها ويتسابقون في مضمارها . . يقف فريق آخر موقفاً مضاداً فيرى أنَّها سمةٌ من سمات عجزٍ من يلحًا إليها ، وأنَّه لو لا قصورُ همته عن اختيار المعاني المبتكرة ما لجأ إليها ، ولاذ في ظلالها ، لأنَّها - حسب رأيه - في صناعة الشعر كالاستراحة من الشاعر ، إذا أعياه إيراد المعاني الغريبة شغل الأسماع بما هو محال وتهويل .

ويُردُّ الفريقُ الأول على الثاني فيقول : المبالغة من محسن أنواع البديع ، ولو لا سمو رُتبها ما وَرَدَتْ في القرآن العظيم والسنّة النبوية ، ولو سلمنا إلى من يهضم جانبها ولم يعدها من حسناً الكلام بطلت بلاغة الاستعارة ، وانحطّت رتبة التشبيه<sup>(١)</sup> . ويضيف إلى ذلك قوله : إنها ضربٌ من المحسن إذا بَعُدت عن الإغراب والغلوّ ، وإن كانا من المحسن والأنواع البديعية . هذان اللونان مرفوضان على صورة الإطلاق والتعيم ، ومقبولان محمودان على صورة التّقييد والتّخصيص ..

ويذهب ابن حجّة الحموي - وهو من أنصار المبالغة - إلى القول :  
يعجبني قول القائل :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دُجى الليل حتى نظم الجزع ثاقب<sup>(٢)</sup>  
فيقول : المعنى تم للناظم في بيته إلى قوله : دُجى الليل . ولكن زاد بما هو أبلغ وأبدع وأغرب في قوله «حتى نظم الجزع ثاقب» . ومثله قول أبي الطيب في جواد :

وأصرع أي الوحش فقيثه به وأنزل عنه مثله حين أركب<sup>(٣)</sup>  
ومن معجز المبالغة في القرآن العظيم : قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ القَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ .  
 يجعل كلًّا واحداً منهم أشدّ مبالغة في معناه ، وأتمّ صفة .

و جاء من المبالغة في السنّة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم مخبراً به عن ربّه «كُلُّ عمل ابن آدم له إلّا الصوم ، فإنّه لي ، وأنا أجزي به» ، قوله في بقية هذا الحديث . «والذى نفس محمّد بيده لخلوفٍ فم الصائم عند الله أطيبٌ من ريح المisk<sup>(٤)</sup>» .

(١) خزانة الأدب لابن حجّة ص ٢٢٥ .

(٢) المعنى : أن وجوههم وأنسابهم شريفة - وضيّة مشرقة ، حتى ليُضيء الليل من نورها ، وحتى أن الإنسان ليقدر على سلك الحَرَز في سُلُكٍ مستضيئاً بنور وجههم .

(٣) ديوانه ص ٤٦٧ .

(٤) سورة الرعد. الآية ١٠ .

(٥) صحيح البخاري . الباب الثاني والتاسع من كتاب الصوم .

ويعلق ابن حجة على ذلك قائلاً: ففي الحديث الشريف مبالغتان: إحداهما: كُونُ الحقَّ - سبحانه وتعالى - أضاف الصيام إلى نفسه، دونسائرالأعمال، لِقصْدِ المبالغة في تعظيمه وشرفه. ونحن نعلم أنَّ الأعمال كلها لله - سبحانه وتعالى - ولعده باعتبارين:

أما كونها للعبد فإنه يُثاب عليها، وأما كونها الله فلا تأبه لها عملت لوجهه الكريم ومن أجله، فتخصيص الصائم بالإضافة للربَّ - سبحانه - وتخصيص ثوابه بما خُصص به، إنما كان للمبالغة في تعظيمه<sup>(١)</sup>.

وثانيةهما: إخبار النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - بعد تقديم القسم، لتأكيد الخبر، بأنَّ خلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك.. ففضلَ تغيير فم الصائم بالإمساك عن الطعام والشراب على ريح المسك بالذى هو أعطرُ الطيب، على مقتضى ما يفهم من «ريح المسك» وأتى بصيغة «أفعل» للمبالغة. فجمع هذا الكلام بين قسمي المبالغة: المجازي وال حقيقي، ولذلك ورد: أنَّ دم الشهيد كريح المسك للمبالغة.

ولكنَّ الفريق الثاني لا تُعجزه الحُجَّةُ لدحض أقوال الفريق الأول وكلُّ من أيدَ المبالغة وألوانها..

فابن فارس يذكر في كتابه «الصَّاحِبِيِّ» أنَّ من الأسباب التي جعلت النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - منها عن الشَّعر أنَّ هذا يقوم على الكذب<sup>(٢)</sup>. والكذب الذي يعنيه ابن فارس هو المبالغة بأنواعها.

هذا الكلام يذكُرنا ببناء عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على زهير ابن أبي سلمى بأنه كان يمدح الرجل بما فيه.

وعلى هذا الصِّرَاطِ يَمْشِي ابن طباطبا في كتابه «عيار الشعر» فينصح الشَّاعر أن «يتعمَّدَ الصدق والوفق في تشبيهاته<sup>(٣)</sup>». وأنَّ «أحسن التَّشبيهات ما إذا عُكس لم ينتقص ، بل يكون كُلُّ شَبَهٍ بصاحبِه مثلَ صاحبه ، ويكون صاحبه

(١) خزانة الأدب ص ٢٣٦.

(٢) ص ٢٧٥ . وأنظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب لـإحسان عباس ص ١٢٨ .

(٣) ص ٦ .

مثله مشتبهاً به صورةً ومعنى ، فما كان التّشبيه صادقاً قلتَ في وصفه «كأنَّه» أو قلتَ «ككذا» وما قارب الصّدق قلتَ فيه «تراءٌ» أو «تخيالٌ» أو «يكاد». فإذا خرج عن الصّدق انتقل إلى الغلو والإفراط ، وذلك عيب<sup>(١)</sup> .  
أصْحِحُ قوْلَهُمْ : أَعَذَّبُ الشَّعْرَ أَكَذَّبُهُ؟

ويقف الآمدي من المبالغة موقفَ ابن طباطبا . . ويعرض لها عند حديثه عن قولهم «أَعَذَّبُ الشَّعْرَ أَكَذَّبُهُ» فيقول : «وقد كان قوم من الرُّواة يقولون : أَجَوَّدُ الشَّعْرَ أَكَذَّبُهُ ، ولا والله ، مَا أَجَوَّدُهُ إِلَّا أَصْدَقُهُ إِذَا كَانَ لَهُ مِنْ يَخْلُصُهُ هَذَا التَّخْلِيصُ ، وَيُورِدُهُ هَذَا الإِبْرَادُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَابِ<sup>(٢)</sup> .»

ويشایع الوعاظ هؤلاء النّفر الذين يعارضون «أَعَذَّبُهُ أَكَذَّبُهُ» ويفنّدون ذلك في ضوء الشرعية والمبادئ الدينية الواضحة ، وينقلون الموضوع من حدود البلاغة والتّنقد إلى حدود القول وما يتحدّث به المرء بوجه عام ، فلا يزال يصدق حتى يكتب عند الله صدِيقاً ، أو لا يزال يكتُب حتى يكتب عند الله كذاباً . ومقام الصّديقين في الآخرة غير مقام الكذابين ، ومصير هؤلاء غير مصير أولئك . . وأنَّ الملائكة على كاهلي الإنسان يسجّلان بكلٍّ ما يتحدّث به ، ويلفظ ، والآية الكريمة تنصُّ على أنه ﴿مَا يَأْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لِدِيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾<sup>(٣)</sup> .

الموضوع إذن ليس موضوع بلاغة ، أو بديع ، أو قضيَّة نقدية ، وإنما هو موضوع يتصل بجوهر الدين ، وصميم السلوك الإنساني على أوسع مدى . .

تلك هي الحجج الكبرى التي يتمسّك بها المعارضون ، وعلى أساسها يرفضون موضوع المبالغة والإغراق والغلو .

لكنَّ الفريق الأوَّل الذي يؤمن بالبالغة وألوانها لا يقف مكتوف الأيدي ، آخرس اللسان ، وإنما يفنّد حجج خصمه ، ويُدحضها حتى ليكاد يقضي عليها . .

(١) ص ٧.

(٢) الموازنة ٥٨ / ٢

(٣) سورة ق ، الآية ١٨ .

فقدامة بن جعفر يورد هذا الموضوع فيقول<sup>(١)</sup>: لقد اختلف الناس في النّظر إلى الشّعر وانقسموا مذهبين: ناس يرون الغلو في المعنى، وناس يرون الافتقار على الحد الأوسط، بل إن بعضهم يستجيد الغلو في شعر وينكره في آخر. ويقول معلقاً على ذلك: إن الغلو عندي أجد المذهبين، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشّعراء قديماً، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال: أحسن الشعر أكذبه، وكذا يرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم . . وفي مكان آخر يقول قدامة: إنه يؤيد الغلو في الشعر ولو أفرط فيه الشّاعر، وجاء بما يخرج عن الموجود.

وينهض ابن حزم الأندلسي لهذا الموضوع<sup>(٢)</sup>، ويأخذ برأي من يقول: أحسن الشعر أكذبه، ويقول: فإذا أخذ الشّاعر في الصدق فقال: الليل ليل والنّهار نهار، أصبح محطاً للهزء والسخرية ، وهذا الإغراب تصدقه الآية القرآنية في الشّعراء، ولذلك نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عنه إلا ما خرج عن حدّ الشّعر، فكان مواعظ أو حِكمَأ أو مدحًا للنبي - صلى الله عليه وسلم - أو حدثاً فيما يفيد الناس وينفعهم .

وفي كتاب «المنصف»<sup>(٣)</sup> للتنبيسي تأييد لهذا الاتجاه ورد على الحاتمي صاحب كتاب «حلية المحاضرة» في قضية «أعذب الشعر أكذبه» إذ يقول في الغلو والإسراف: «وطائفة من الأدباء يستحسنونه ويقولون: أحسن الشعر أكذبه ، والغلو يراد به المبالغة في مجيء الشّاعر بما يدخل في المعدوم ويخرج عن الموجود، وقد أبانت طائفة من العلماء استحسان هذا الجنس لـما كان بخلاف الحقائق، ولخروجه عن اللّفظ الصادق». ثم يقول عنهم: «ما آتُوا بشيء، لأنّ الشّعراء لا يُلتمس منهم الصدق، وإنما يُلتمس منهم حسن القول ، والصدق يُلتمس من الخيار الصالحين وشهود المسلمين»<sup>(٤)</sup> .

(١) نقد الشعر ص ٢٦ .

(٢) التقرير ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٣) المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره للتنبيسي . تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ص ٧٨ (دار قتبة بدمشق ١٩٨٢ م) .

## المبالغة وقضية الصدق والكذب

أما قضية الصدق والكذب وما ورد فيهما من تحليل أو تحريم فيرى فريق من العلماء أنهما غير واردان في هذا الباب ، لأنَّ الشاعر حين يقول عن ممدوحه : أنت شمس ، أو أنت بحر ، أو ما أشبه ذلك فإنه لا يكذب أو يصدق ، وإنما هو يتخيل ، والخيال صفة أساسية في الشعر ، يدخل في المديح كما يدخل في الهجاء ، والرثاء ، والغزل ، وسواها من فنون القول .. وحين يقول المحب لحبيبه متغلاً بعينها «عَيْنَاكِ أَجْمَلُ مَا فِي الْوِجْدَوْدِ» فإنَّا لا نستطيع أن نقول له : أنت صادق أو أنت كاذب ، لأنَّه يتخيل أنَّ عينيها بالنسبة إليه أجمل ما في الوجود ، في حين أنَّا قد لا نراهما على هذه الصورة .. وما قصة المجنون العامرِي وليلاه عَنَّا ببعيدة ، فلقد قيل له : إنَّ ليلى التي جُنِّتَ بها ليست على ما تقولُ جمالاً وفتنة ، ولا تستحق هذه الأشعار ، ولا هذا التشدد من أجلها ، وأنَّ سوادها ، وخشونة ملمسها ، وقبع منظرها كفيلة أن ترددك إلى صوابك وتعيدك إلى رشك .. فقال لهم كلمته المشهورة . خذوا عيني واظروا بهما إلى ليلى ولو سوف تجدونها كما أقول عنها ، وإنَّه يصدق على قول القائل : حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَّنْ تُحِبَّ .

إنَّ الحبَّ ليجعل العاشق يتخيل من يحب أجمل الناس وأعظمهم ، وكذلك يفعل البعض ، فالبعض يضع كلَّ مذمةً ونقضة في عدوه وبغيضه ، وكذلك يفعل المفتخر ، أو المادح .

نظر عمرو بن كُلثوم التَّغْلِيَّ إلى قبيلته فوجدها أعزَّ النَّاس ، وأكثرهم عَدَداً ، وأضاف خياله إلى ما رأى الشيءَ الكثير فقال مفتخراً :

إذا بلغ الفِطَامَ لَنَا صَبَّاً تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابُ سَاجِدِينَا  
ملأنا البرَّ حتَّى ضاقَ عَنَّا وماءُ البحْرِ تَمَلأُ سَفِينَا  
إنا لو وضعنا كلامَ ابن كُلثوم في ميزان الصَّدق والحقيقة قلنا : إنه كاذب ، ومُدعٍ ، ومغرور .

لكنَّا لو درسنا قوله في ضوء الواقع الذي عاشه ، ودرسنا شخصيَّته الخاصة ، وتلمَّسنا ما كان يدور في قلبه وعقله ، وما كان يحملُ به ويتخيل ،

إذن لعُدنا إلى عدم الجَور عليه، وإلى الابتسام مما قال، وإلى ايجاد بعض الأعذار لمبالغاته الكبيرة.

### بين المبالغة والخيال

هذه الفكرة المعتمدة على أنَّ الخيال أساسُ العمليَّة الشعريَّة قال بها كثير من الفلاسفة والثُّقَاد وعلماء البلاغة.

فحازم القرطاجي يُفَرِّقُ بين حَدَّ الشِّعْر وحدَ الخطابة، فالشِّعْر - في نظره - قائم على التَّخييل، والخطابة قائمة على الإقناع، واستشهد على صِحَّة رأيه بأقوال من فلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا<sup>(١)</sup>.

### بين المبالغة وفروع البيان

ثم ما بالُّنا ننسى أنَّ التَّشبُّه والمجاز والاستعارة والكتنائية هي من جوهر التَّعبير العربيُّ، وهي أساس في النَّظم، ولا يمكن بحال من الأحوال الاستغناء عنها، وهي جميعاً تحمل في صميمها روحَ المبالغة وأثار الزِّيادة في الوصف؟

بل إنَّ المبالغة تكاد تكون العمود الفقريُّ في كلِّ تعبير، فصيحاً كان أو غيرَ فصيح ..

والشِّعْر العربيُّ منذ أن قال أولَ شاعر في الماضي بيتأ إلى يومنا هذا، وحتى تقوم السَّاعة يعتمد على المبالغة.

والقرآن الكريم، وأحاديث الرسول العظيم صلوات الله وسلامُه عليه، وخطب الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وأقوالُ السَّلف الصالحة فيها كثير من المبالغات.

فمن آيات الكتاب الكريم قوله تعالى : ﴿... أَوْ كَظُلْمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجَىٰ، يَغْشَاهُ مَوْجٌ ، مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ، مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ، ظُلْمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٧٤ - ٨٤.

بعضٍ، إذا أخرج يده لِم يَكُنْ يَرَاها، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهَ لَهُ نُورًا فَمَالِهِ مِنْ نُورٍ<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَافَ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَانَهَا كَوْكِبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ، لَا شَرِقَيَّةٌ وَلَا غَرِبَيَّةٌ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ، وَلَوْلَمْ تَمَسَّهُ نَارٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

وَمِنَ الْأَحَادِيثِ النَّبِيَّةِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ مَنْ لَمْ يُجِلْ بِكَبِيرَنَا، وَيَرَحَّمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالَمِنَا حَقَّهُ<sup>(٣)</sup>.

أَوْ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ<sup>(٤)</sup> . . . أَوْ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ يُحْرِمِ الرَّفِيقَ يُحْرِمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ<sup>(٥)</sup>.

مَتَى تُعَابُ الْمِبَالَغَةَ؟

وَيَبْدُو لَنَا أَنَّ كِلَا الفَرِيقَيْنِ عَلَى حَقٍّ، فَالْفَرِيقُ الْأَوَّلُ الَّذِي يَرِي فِي الْمِبَالَغَةِ أَسِاسًا فِي النَّظَمِ وَالتَّعْبِيرِ الرَّفِيعِ مُحِقٌّ وَمَصِيبٌ، كَذَلِكَ الْفَرِيقُ الثَّانِي الَّذِي يَرِي الْمِبَالَغَةَ عِيَّاً وَعَجْزاً وَبَعْدًا عَنِ الصَّدَقِ وَالْكَمَالِ مُحِقٌّ وَمَصِيبٌ أَيْضًا.

فَالْمِبَالَغَةُ حِينَ تَتَجَازُ الْحَدَّ الْمُقْبُولِ عَادَةً وَعَقْلًا وَتَصْبِحُ إِغْرَاقاً أَوْ عُلُونَا تَكُونُ مَرْفُوضَةً عِنْدَ كِلَا الفَرِيقَيْنِ، وَيَعْزِزُ صَحَّةَ هَذَا الْحُكْمِ لَوْ أُورِدُنَا قَوْلُ ابْنِ هَانَئِ الْأَنْدَلُسِيِّ فِي مَمْدوْحِهِ الْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِيِّ:

مَا شِئْتَ، لَا مَا شَاءَتِ الْاَقْدَارُ فَاحْكُمْ، فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ  
لَقَدْ جَعَلَ ابْنُ هَانَئٍ مَمْدوْحَهُ فَوْقَ مَرْتَبَةِ الْخَالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ . فَمَشِيَّتَهُ

(١) سورة النور، الآية ٤٠.

(٢) سورة النور، الآية ٣٥.

(٣) رواه أحمد والحاكم . ٢٥٧/١.

(٤) انظر رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي ص ١٤٦ (تحقيق وتخریج وتعليق عبد الفتاح أبو غدة ط ٢ مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب - بيروت ١٩٧١).

(٥) رواه مسلم في الحديث ٧٨ من كتاب البر.

هي النافذة لا مشيئة القضاء والقدر، والله في كتابه الكريم يقول: ﴿وَمَا شَأْوَنَ إِلَّا أَن يَشَاءُ اللَّهُ﴾<sup>(٥)</sup> لكن ابن هانئ قال لممدوحه: إن مشيئتك فوق مشيئة القدر، ثم زاد على ذلك بأن طالبه بالحكم، وكأنه يريد أن يحكم في مقدار الناس، فيرفع من يشاء، ويخفض من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويحيي من يشاء، ويميت من يشاء.. لأنَّه الواحد الأحد، القهَّارُ المُسيطِرُ على مقاليد الوجود.

رأيت إلى هذا المأفون وما يقول، أرأيت كيف تخلى عن العقل، والدين، والعرف، والعادة، والتفكير السليم، ولجاً إلى كلامٍ هو إلى الهدىان أقرب؟ .

وممدوحه، مهما علا قدره، وزادت قوته، واشتد بطشه، وامتد قهره، إنسان مخلوق، تؤديه بعوضة، وتزعجه ذبابة، وتعصُّه نملة، وتقتله جرثومة، وسوف يموت، ويُدفن تحت التراب، وتأكله الديدان، ويصبح رفاتاً تذروه الرياح..

ممدوحه هذا عبد من عباد الله، لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة، ولا صحةً ولا مرضًا، ولو أراد مَدَّ أجله لحظةً واحدةً ما كان ذلك له، ولو اجتمعت من أجله أطيائ الدنيا، وقدّمت إليه كلُّ أدوية الحياة.. . وإذا حان أجله لم يستأخرْ ساعةً ولم يستقلِّمْ ساعةً.. . ولا يستطيع الهرب من الموت، والاختفاء من أجله مهما كان ماله، ورجاله وقصوره، وأعونه، ومهما مدحه المادحون، وأشاد به المشيدون، وطلبَ له المطلبون، وزمر المزمرون.. . لسوف يُهال عليه التراب.. . ولو وقف ألف شاعر كابن هانئ يقولون فيه مثل ما قال، ويصفونه بمثل ما وصف، ويبالغون بمثل ما بالغ.. .

إنا نقبل من الشاعر أن يشبه ممدوحه بالبدر، أو بالبحر، أو بالشمس، أو بالكوكب الدرري.. . ويقول عن كرمه، أو شجاعته ما يُقرّبه من السباع والأسود وكل وحوش الغابة ولا نعرض عليه في ذلك.

أما أن يصفه الشاعر بأنَّ مشيئته فوق مشيئة القدر، والقدر هو قضاء الله

---

(١) سورة التكوير، الآية ٢٩.

وَحُكْمُهُ، فَذلِكَ شَيْءٌ مُرْفُوضٌ مِنَ الشَّاعِرِ، وَكَذَلِكَ نَرْفَضُ الشَّطَرَ الثَّانِي الَّذِي  
وَصَفَهُ بِالْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.. وَهُمَا صفتَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، إِذْ هُوَ الْوَاحِدُ  
الْأَحَدُ، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ<sup>(١)</sup>..

وَنَرْفَضُ مِنَ الْحَلَّىِ قَوْلَهُ<sup>(٢)</sup>:

مَلِكٌ، إِذَا اكْتَحَلَ الْمُلْوُكُ بِنُورِهِ خَرُوا لِهِبَّتِهِ إِلَى الْاِذْفَانِ  
لَأَنَّ الشَّاعِرَ أَعْطَى الْمَمْدُوحَ مُحَمَّدَ بْنَ قَلَوْوَنَ مِنَ الصَّفَاتِ مَا يُجِبُ أَنْ تُعْطَى  
لِلَّهِ وَحْدَهُ.. فَالسُّجُودُ لِلَّهِ دُونَ غَيْرِهِ.. وَمَنْ صَرَّفَ هَذِهِ الْعِبَادَةَ لِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ  
أَشْرَكَ بِهِ.

وَنَرْفَضُ مِنَ الشَّاعِرِ ذَاتِهِ قَوْلَهُ فِي مَمْدُوهِهِ الْأَرْثَقِيِّ<sup>(٣)</sup>:

لَوْ قَابَلَ الْأَعْمَى غَدَّا بَصِيرًا وَلَوْ رَأَى مَيْاً غَدَّا مَتَشُورًا  
وَلَوْ يَشَا الظَّلَامَ كَانَ نُورًا وَلَوْ أَتَاهُ اللَّيلُ مُسْتَجِيرًا  
أَمَّهَنَهُ مِنْ سَطُوقَاتِ الْفَجْرِ  
يَخْصُّ هَامُ الدَّهْرِ فَوْقَ بَاهِهِ وَتَسْجُدُ الْمُلْوُكُ فِي أَعْنَابِهِ  
وَتَخْدُمُ الْأَقْدَارُ فِي رِكَابِهِ تَرْوُمُ فَضْلُ الْعِزَّ مِنْ جَنَابِهِ  
وَتَسْتَمِدُ الْيُسْرَ بَعْدَ الْعُسْرِ

لَأَنَّ الشَّاعِرَ الْحَلَّىَ جَعَلَ مَمْدُوهَهُ الْأَرْثَقِيَّ فِي مَقَامِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي  
أَعَادَ الْبَصَرَ إِلَى مَنْ وُلِدَ أَكْمَهَ (أَيْ أَعْمَى) مِنْذُ لَادِتَهُ، وَرَدَّ الْحَيَاةَ إِلَى  
مَيْتِ.. وَكَانَ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقُدرَتِهِ لَا يُقْدِرُهُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا بِقُوَّتِهِ  
الْذَّاتِيَّةِ..

كَذَلِكَ نَرْفَضُ قَوْلَهُ «لَوْ يَشَا الظَّلَامَ كَانَ نُورًا» لَأَنَّهُ جَعَلَهُ بِمَثَابَةِ الْخَالِقِ  
لِهَذَا الْوُجُودِ، مُسِيرُ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ، وَخَالِقُ النُّورِ وَالظَّلَامِ..

(١) انظر الآيات الكريمة (الأنعام، ١٨ - ٦١ / الأعراف، ١٢٧ / يوسف، ٢٩ / الرعد، ١٦ / إبراهيم، ٤٨ / ص، ٦٥ / الزمر، ٤ / غافر، ١٦).

(٢) ديوانه ص ١٠٠ . ومطلع القصيدة «خلع الربيع على غصون البان».

(٣) ديوانه ص ١١٠ . ومطلع القصيدة «دارت على الدوح سلاف القطر».

كذلك نرفض وصفه لمدحه بأنَّ الدَّهْرَ يَخْضُعُ فَوْقَ بَابِهِ، وَتَسْجُدُ الْمُلُوكُ فِي أَعْتَابِهِ، وَتَخْدِمُ الْأَقْدَارُ فِي رَكَابِهِ.. . وَقَدْ وَرَدَ فِي الْأَثْرِ: لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ إِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَّهُ، وَوَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿وَلَلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup>.

إنَّ الشَّاعِرَ خَرَجَ عَنِ الْحَدُودِ الْدِينِيَّةِ إِلَى كَلَامِ مَرْفُوضٍ شَرَعًا.. لَذَلِكَ نَقْوِلُ: إِنَّ الْحَلْلَيَّ غَالِيٌّ فِي مَدْحُوهِهِ عُلُوًّا تَرْفُضُهُ الشَّرِيعَةُ، وَيَرْفُضُهُ الْعُقْلُ السَّلِيمُ، لَذَلِكَ قَوْلُهُ هُرَاءُ، وَلَيْسَ فِيهِ جَمَالٌ وَلَا إِبْدَاعٌ وَلَا بِلَاغَةٌ<sup>(٢)</sup>.  
متى تحسن المبالغة؟

إِنَّ الْغُلُوَّ فِي الصَّفَاتِ مَقْبُولٌ فَنِيًّا حِينَ يَحْتَاطُ لِهِ الْقَائِلُ، وَيَحْيِطُهُ بِمَا يُشِيرُ إِلَى مَعْلَاتِهِ وَتَزَيَّدُهُ مِنْ نَحْوِ: «يَكَادُ» وَ«لَوْ» وَ«لَوْلَا» وَ«قَدْ» وَمَا يُشَبِّهُهَا كَوْلُ الْمُعْرِيِّ :

تَكَادُ قَيْسِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ رَامٍ تُمْكِنُ فِي قُلُوبِهِمُ الْبَلا  
تَكَادُ سُوْفَيَّةٌ مِنْ غَيْرِ سَلَّةٍ تَجِدُ إِلَى قُلُوبِهِمُ اِنْسِلَالًا  
أو كَوْلُ ابْنِ حَمْلَيْسِ فِي وَصْفِ فَرْسٍ :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً مِنْ ظِلِّهِ لَوْ كَانَ يَرْغُبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقٍ  
أو كَوْلُ الْفَرَزْدَقِ فِي عَلَيَّ بْنِ الْحَسِينِ بْنِ عَلَيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانٌ رَاحِتَهُ رُكْنُ الْحَاطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ  
أو كَوْلُ أَبِي الطَّيْبِ :

عَقَدَتْ سَاتِيْكُهَا عَلَيْهَا عِثْرَيَا فَلَوْ ابْتَغَى عَنْتَاهَا عَلَيْهِ أَمْكَنَاهَا  
إِنَّ سَبْبَ قَبْولِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ وَجُودُ كَلْمَةِ (تَكَادُ ) أَوْ (يَكَادُ ) وَهِيَ فَعْلٌ يُشِيرُ إِلَى مَعْنَى الْمَقَارِبَةِ، وَلَيْسَ الشَّرْوَعُ أَوْ الْبَدْءُ فِي الْفَعْلِ. وَكَذَلِكَ وَجُودُ الْحَرْفِ

(١) سورة الرعد، الآية ١٥.

(٢) تَابَ الشَّاعِرُ فِي أَوَاخِرِ حَيَاتِهِ عَنِ هَذَا الْهُرَاءِ، وَنَظَمَ قَصِيدَةً فِي مَدْحِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ أَوَّلَ «بَدِيعَيْهُ» فِي تَارِيخِ الْأَدْبُرِ الْعَرَبِيِّ. اِنْظُرْ بَحْثَ «الْبَدِيعَيَّاتِ» فِي هَذَا الْكِتَابِ.

(لو) الذي وصفه النحاة بأنه حرف امتناع لامتناع .. وبعبارة أخرى : لقد أحبطت المعاني في الأبيات بما يفيد عدم وقوعها ، ومثل هذا كافٍ لجعلها مقبولة .

أما إذا لم يكن في الأبيات المغالى في معانيها هذه الاحتياطات ، ف فهي على الغالب تكون مرفوضة كقول أحدهم :

أَسْكُرُ بِالْأَمْسِ إِنْ عَرَّمْتُ عَلَى الشُّرُبِ غَدًا، إِنَّ ذَا مِنَ الْعَجَبِ  
أو كقول أبي نواس (١) :

وَاحْفَتَ أَهْلَ الشَّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطْفُ التِي لَمْ تُخْلِقِ  
فَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ مَرْفُوضٌ عَقْلًا وَعَادَةً، وَالثَّانِي مَرْفُوضٌ زِيَادَةً عَلَى الْعُقْلِ  
وَالْعَادَةِ بِالشَّرِيعَةِ .

طرفة لطيفة في موضوع المبالغة

ومن لطيف ما قرأنا في موضوع «الإغراق» أن شاعراً قال عن شدة ما يلاقي في الحب :

وَلَوْ أَنَّ مَا بَيْ مِنْ جَوَّيْ وَصَبَابَيْ عَلَى جَمْلِ لَمْ يَسْقِ فِي النَّارِ كَافِرُ  
كَائِنَهُ يَرِيدُ أَنْ يَقُولُ : إِنَّهُ لَوْ كَانَ مَا بِهِ مِنَ الْحُبَّ وَعِذَابَهُ عَلَى جَمْلِ لَنْحَلَ  
هَذَا الْجَمَلِ وَرَقَّ جَسْمَهُ حَتَّى يَدْخُلَ فِي سَمَّ الْخَيَاطِ (أَيْ فِي ثَقْبِ الْإِبْرَةِ).  
وَمِثْلُ هَذَا القَوْلُ لَا يَسْتَحِيلُ عَقْلًا، لَأَنَّ قَدْرَةَ اللَّهِ قَابِلَةُ لِذَلِكَ، لَكِنَّهُ  
مُمْتَنَعٌ عَادَةً .. وَهَذَا هُوَ الْإِغْرَاقُ .

وبهذه المناسبة أورد ابن حَجَّةَ حِكَايَةَ خلاصتها : أن إبليس تعرَّض

(١) ديوانه ص ٤٠١ . ومطلع القصيدة «يجلو القدى بعقيقتين اكتستا» . ويروى أن العتاي الشاعر الذي أبا نواس فتال له : ما استحببت الله تعالى حيث قلت ، وذكر البيت (وانحفت ...) . فتال أبو نواس : وأنت فيما راقت الله عز وجل حيث قلت :

مَازَلْتُ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ مُطْرَحًا يُضِيقُ عَنِي وَسِعُ الرَّأْيِ مِنْ حِيلِي  
فَلَمْ تَرَلْ دَائِبًا تَسْعَى بِلَطْفِنِكَ لِي حَتَّى اخْتَلَسْتِ حَيَاتِي مِنْ يَدِي أَجْلِي  
فتال العتاي : قد علِمَ الله عز وجل ذكره وعلمَتَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِثْلَ قَوْلِكَ، وَلَكِنَّكَ أَعْدَدْتَ لَكَ لِكَلَّ  
سُؤَالَ جَوابًا .

لبعض الصالحين، فلم يتب منه غرضاً، فقال له الصالح: من أشدُّ عليك.. العابدُ الجاهل ، أو العالمُ المسرف على نفسه. فقال إبليس: العالم المسرف: وأما العابد الجاهل فهو في قبضتي، أدخل عليه في دينه من حيث شئت، وأنا أريك ذلك. فانطلق به إلى عبدِ الجهمَ في ذلك الزمان ، فطرق عليه الباب ، فخرج إليهما . فقال له إبليس : جئتُ أستفتيك : هل الله قادر على أن يدخل الجمل في سَمَّ الخياط أو لا؟ . فتوقف وتحير وأغلق الباب . فقال إبليس للصالح : ها هو قد كفر بالشَّكْ في قدرة الله تعالى . ثم انطلق به إلى عالم مسرف على نفسه ، وطرق عليه الباب ، وكان في القائلة ، فقال الرجل العالم : من هذا الشيطان الذي يضرب بابي في القائلة؟ وقد قال عليه الصلاة والسلام : قيلوا ، فإنَّ الشياطين لا تُقْبَلُ . فقال إبليس : ها هو قد عَرَفَني قبل أن يراني . فلما خرج قال له إبليس : هل في قدرة الله تعالى أن يدخل الجمل في سَمَّ الخياط؟ فقال العالم : أتَشُكُ في قدرة الله تعالى على أن يوسع سَمَّ الخياط حتى يدخل فيه الجمل ، أو يُرْقَقَ الجمل حتى يصير كالخيط ، فيدخل في سَمَّ الخياط . فانصرفا ، وقال إبليس للرجل الصالح : معرفة هذا الله تمحو ذنبه ، وحاله خيرٌ من حال العابد الجاهل بالله .

### المبالغة في المديح النبوى

وبعد، فلقد أورد ابن حَجَّةَ في خزانته أنَّ المبالغة في المدائع النبوية والصفات المُحَمَّدية مقبولة ، وقال في حديثه عن الإغراق: إنَّ مقام النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صالح للمغalaة بالإغراق في مدحه . وفي معرض حديثه عن الغلو قال: إنَّ كُلَّ غلوٍ في حقِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُعَدُّ غلوًا .

ويبدو لنا أنَّ وضع ضوابط وحدود في المديح النبوى واجبة .. هذه الضوابط تعتمد في المقام الأول على مقام (العبدية) للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فهو عبد الله ورسوله .. وكلَّ مدحٍ وثناءً لحضرته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجب ألا يخرج عن هذه الحدود ، وإذا ضَمِّنَنا هذا الشرط فِلِّمَادِحٍ أن يقول ويشنِي بقدر ما يفتح الله عليه .. والرسول العظيم جدير بكلِّ محبة وثناء .. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ..

إنَّ هذا القيد الذي وضعناه مقتبس من تعاليم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وسلم ، فهو الذي قال : «لَا تُنْظِرُونِي كَمَا أَطْرَتَ النَّصَارَى الْمُسِيحَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، وَلَكُنْ قَوْلُوا : عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»<sup>(١)</sup> . وذلك لأنَّهم مدحوه بما ليس فيه ، وبالغوا حتى أخرجوه من مقام العبودية لله ، فأنكر ذلك ، وبين لهم ما يجب أن يكون .

### المبالغة وأسماء الله الحسنى

والأمر الثاني في أنَّ أسماء الله الحسنى ، في ظاهرها ما يشير إلى المبالغة كالقهار والجبار ، والوهاب ، والغفور ، والرحمن ، والرحيم ، والقدوس ، والقيوم ، وسوهاها من الأسماء . هي صفات للذات الإلهية على الحقيقة ، وليس للبالغة رغم ما يشير إليها ظاهرها اللغطي ، إذ ليس ما يقال وينطبق على البشر والعباد بجائز أن يُقال عن خالقهم جل جلاله ، وعز شأنه .

### أسماء المبالغة في علم الصرف

الأمر الثالث : إن في علم الصرف بحثاً في صيغ مبالغة اسم الفاعل كـ : (فَعَالٌ مثل حَمَالٌ) أو (مِفْعَالٌ مثل مِطْعَانٌ) ، أو (فَعُولٌ مثل صَبُورٌ) ، أو (فَاعُولٌ مثل فَارُوقٌ) ، أو (فَيَعُولٌ مثل حَيْسُوبٌ) ، أو (فُعْلةٌ مثل هُمَزةٌ) ، أو (فَعَالَةٌ مثل عَلَامَةٌ) ، أو (فَعِيلٌ مثل سِكِيرٌ) ، أو (مِفْعِيلٌ مثل مِعْطِيرٌ) ، أو (فُعُولٌ مثل قُدُوسٌ) وغير ذلك .. إنَّما تفيد معنى المبالغة ، وصياغتها كذلك دلت على الزيادة .

والفرق بين المبالغة في علم البلاغة وصيغ المبالغة في علم الصرف أنَّ المبالغة البلاغية تستفيد من المبالغة الصرفية ، وتستوعبها ، وتُضيف إليها أساليب أخرى كثيرة تفيد الزيادة والتَّكثير ، بينما ليس لمبالغة الصرف هذه الآفاق الممتدة الرَّحيبة .

### هل المبالغة تحسين معنوي بديعي؟

وأخيراً ، فإذا كان عدد من العلماء أدرج بحث «المبالغة» في علم البديع ، ثم جعله فرعاً من فروع (التَّحسين المعنوي) للكلام ، فإننا نرى أنَّ

(١) صحيح البخاري : الباب الثامن والأربعون من كتاب الأنبياء ، ومسند أحمد ٢٣ / ١ ، ٢٤ ، ٤٧ ، ٥٥ .

العلماء هؤلاء قد ظلموا هذا البحث وهضموه حَقّه . . لأنَّ مباحث البديع - في نظرهم - بمثابة الزُّينة ، والكماليات والنِّوافل ، وليس عناصر أساسية في التَّعبير الفَنِّي الرَّفيع ، وقد رأينا أنَّ المبالغة - في شروط معينة فصلناها - عنصرٌ أصيل في حديث الناس ، وتعبيرهم ، وشِعرِهم ، ونشرِهم ، وليس قاصراً على الأدباء والشَّعراء ، وإنما هو عامٌ مشترك بين النَّاس جميعاً . . بل إنَّه ظاهرة إنسانية تتجاوز الإنسان العربي واللغة العربية لتكون جزءاً من تعبير الإنسان في كلِّ الأوطان والأرمان واللغات .

\* \* \*

## الطباق والمقابلة

### الطباق في اللغة

للطباق في كتب النقد والبلاغة عدّة مسمّيات، منها: المطابقة، والتطابق، والتّطبيق، والطباق، والتّضاد، والتّكافؤ، والمقابلة<sup>(١)</sup>.

ولو نظرنا في معجم كلسان العرب لابن منظور - مثلاً - للبحث عن معنى هذه الكلمة في اللغة لوجدناه يقول في مادة «طباق» : (تطابق الشيئان بمعنى تساويها ، وقد طابقها مطابقة وطباقاً إذا ساواه ، والمطابقة الموافقة ، والتطابق الاتفاق ، وطابت بين الشيئين إذا جعلتهما على حذو واحد وألزقهما ، وهذا الشيء وفق هذا ووفقاً وطباقه وطابقه ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلمْ ترَوا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ . وقال الرّجّاج: معنى «طباقاً» مطبيق بعضها على بعض . وقال الأصمّي: المطابقة أصلها وضع الرجل موضع اليد في مشي ذات الأربع<sup>(٢)</sup> .

(١) لقدامة بن جعفر رأى في هذه المسمّيات ، فهو يجعل «الطباق» وما يشتقّ منه من أسماء لنوع من أنواع الجنس ، ويفرد للفظين المتضادين اسم (التكافؤ) ولأكثر من لفظين اسم (المقابلة) وقد شابعه على رأيه صاحب الطراز ٣٧٧/٢ . انظر نقد الشعر ص ٧٩ طبعة ليدن.

(٢) سورة نوح ، الآية ١٥ .

(٣) انظر مادة (طباق) في لسان العرب والصحاح وناتج العروس ..

## الطباق في البلاغة

أما في كتب البلاغة فالامر مخالف ، ذلك لأنَّ العلماء عرَفوا الطباق أو ما يقاربه من كلمات بأنَّ الجمع بين معنَين متضادَين ، أو هو الجمع بين الشيء وضدُّه .. مثل الجمع بين البياض والسوداد ، والليل والنهار ، والحر والبرد<sup>(١)</sup> ... ومع إدراك هؤلاء العلماء الفرق بين التفسيرين : اللغوي والاصطلاحي ، فإنَّهم يعترفون بأنَّه ليس بين المعنَين مناسبة .

### الطباق الحقيقى والمجازى

يقسم كثير من المؤلفين الطباق إلى قسمين :

الأول : يأتي بالفاظ الحقيقة ، وهو المسمى عند أكثرهم بـ «الطباق» .  
الثاني : يأتي بالفاظ المجاز ، ويميل المؤلفون إلى تسميته بـ «التكافؤ» تمييزاً له عن النوع الأول .

فالطباق الحقيقى : ما كان بالفاظ الحقيقة ، سواءً كان من اسمين ، أو فعلين ، أو حرفين ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾<sup>(٢)</sup> .  
وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظَّلَّامَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظُّلُلُ وَلَا الْحَرُورُ ﴾<sup>(٣)</sup> . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾<sup>(٤)</sup> . وقوله تعالى : ﴿ تُؤْتَى الْمُلْكَ مَنْ شَاءَ، وَتَنْزَعُ الْمُلْكُ مِمَّنْ شَاءَ، وَتَعِزُّ مَنْ شَاءَ، وَتَذَلُّ مَنْ شَاءَ ﴾<sup>(٥)</sup> . وقوله صلى الله عليه وسلم : «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفَقاً خَلْفَأَ، وَأَعْطِ مُمْسِكاً تَلْفَأَ»<sup>(٦)</sup> . وقول أبي صخر الهدلبي<sup>(٧)</sup> :

أَمَّا والذِي أَبْكَى وَأَضْحَكَ وَالذِي أَمَّاتَ وَأَحْيَا، وَالذِي أَمْرَأَ الْأَمْرَ

(١) انظر خزانة الأدب ص ٦٩ والصناعتين ص ٣٩٩ وعقد الجمان ٢/٧٩ والطراز ٢/٣٧٧ وأنوار الربع ٢/٣١ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٨ .

(٣) سورة فاطر ، الآية ٢١ .

(٤) سورة النجم ، الآيات ٤٣ - ٤٥ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية ٢٦ .

(٦) صحيح البخاري ، الباب السابع والعشرون في الزكاة .

(٧) شاعر أمري الهوى ، الأغاني ٢٣ / ٢٦٨ ، الأمالي للقالي ١ / ١٤٨ .

وقول ابن الدُّمِيَّةَ<sup>(١)</sup>:

لَئِنْ سَاءَنِي أَنْ نَتَبَشَّرَ بِمَسَاءَةِ الْقَدْرِ سَرَّنِي أَنِّي حَطَرْتُ بِيَالِكِ

وقول آخر: *وَمَعَ الْمَحَاجَزِ لَمْ يَمْلِمْهُ*

عَلَى أَنِّي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمَلَ الْهَوَى وَأَخْلُصَ مِنْهُ لَاعْلَىٰ وَلَا لِي

وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾<sup>(٢)</sup>.

**والطباق المجازي:** ما كان بالفاظ المجاز. وهو المسمى بالتكافؤ. وقد

اشترط ابن معصوم المدني في كتابه أنوار الربيع في أنواع البديع أن يكون

المعانيان المجازيان متقابلين أيضاً في المعنى الحقيقي<sup>(٣)</sup> كقوله تعالى:

﴿أَوَ مَنْ كَانَ مِنْ أَنْتَ فَأَحْيَيْتَهُ﴾<sup>(٤)</sup>. أي: ضالاً فهديناه، فالموت والإحياء متقابل

معناهما المجازيان، وهما الضلال والهدى. ومعناهما الحقيقيان معروfan

وقول الشاعر:

حُلُو الشَّمَائِلُ، وَهُوَ مُرُّ باسْلُ يَحْمِي الدَّمَارَ صَبِيَّةَ الْإِرْهَاقِ

فيَنْ «حُلُو وَمُر» تكافؤ، لأنَّهُما يجريان مجرى الاستعارة وليس فيهما من

الحقيقة المادية شيء. ومثله قول ابن رشيق القير沃اني:

وَقَدْ أَطْفَلُوا شَمْسَ النَّهَارَ وَأَوْقَدُوا نَجْوَمَ الْعَوَالِيِّ فِي سَمَاءِ عَجَاجِ<sup>(٥)</sup>

فالتكافؤ بين «أطفلوا وأوقدوا» لأنَّهُما لا يجريان على الحقيقة، وإنما

هما من المجاز. ومثله قول القائل:

إِنَّ هَذَا الرَّبِيعَ شَيْءٌ عَجِيبٌ تضحكُ الْأَرْضُ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ

ذَهَبَ حِينَما ذَهَبَنا، وَدُرَّ حِينَما ذَهَبَنا، وَفَضَّةً فِي الْفَضَاءِ

(١) شاعر عباسي مدح الرشيد ومحن بن زائدة. انظر ديوانه بتحقيق أحمد راتب النفاخ. ومعاهد التنصيص ١/٥٨.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

(٣) ٣٧/٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٢٢.

(٥) يعتري ابن معصوم على ابن حجَّة الحموي حين عَدَ هذا البيت من التكافؤ. ويراه من (إيهام

الطباق) لأنَّ (إطفاء الشمس) عبارة عن (إثارة العجاج) و (ايقاد النجوم) عبارة عن (تشريع

آسيَة الرماح)، ولا مضادة بين هذين المعنتين. انظر آثار الربيع ٢/٣٩.

فالتكافؤ بين (تضحك وبكاء) وهم لفظان وردا على سبيل المجاز وليس الحقيقة . ومثله قول عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - : «احذروا صولة الكريّم إذا جاء ، والثّيّم إذا شبع» . قال ابن أبي الحديد : (ليس يعني بالجوع والشبع ما يتعارفه الناس ، وإنما المراد : احذروا صولة الكريّم إذا ضيّم وامتهن . واحذروا الثّيّم إذا أكرِم<sup>(١)</sup>) فعبرَ عن الضيّم بالجوع ، وعن الإكرام بالشبع (وهو مجاز ، وكلا معنّيهما متقابل ، وسواء أكان في الحقيقة أم في المجاز .

### الطباق بين السلب والإيجاب

وقد يكون الطباق بين السلب والإيجاب ، وهي مطابقة لم يصرّح فيها بإظهار الضدّين ، وإنما كان أحد اللّفظين موجباً والآخر سالباً . . . كقوله تعالى : ﴿ قُلْ : هَلْ يَسْتُوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟ ﴾<sup>(٢)</sup> فالطباق بين (يعلمون ولا يعلمون) وهو طباق بين الإيجاب والسلب ، وكقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ، وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، يَعْلَمُونَ ظاهراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾<sup>(٤)</sup> .

فالمطابقة في هذه الآيات الكريمة حاصلة بين إثبات العلم ونفيه . ومثله كذلك ما قيل لישّر بن هرون ، وقد ظهر منه الفرح عند موته : «أتفرج بالموت؟ فقال ليس قدومي على خالقِ أرجوه كمقامي عند مخلوقِ لا أرجوه» . فقد طابق طباق إيجاب وسلب بين (أرجوه ولا أرجوه) . ومثله ما يُنسب إلى السّمّوّال<sup>(٥)</sup> :

وَنُكِرُ إِنْ شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ      وَلَا يُنْكِرُونَ القَوْلَ حِنْ نَقُولُ  
فقد طابق إيجاباً وسلباً بين (ونُكِر ولا ينكرون) .

(١) أنوار الربيع / ٢ / ٣٧ .

(٢) سورة الزمر، الآية ٩ .

(٣) سورة المائدة، الآية ١١٦ .

(٤) سورة الروم، الآيات ٦ و٧ .

(٥) نسب إلى السّمّوّال أشعار كثيرة في الفخر ومكارم الأخلاق . ويخيل إلينا أن هذه الأشعار جمِيعاً منحولة موضوعة ، فالبيهود - مذ كانوا وحتى يومنا - أحسن أهل الأرض وضررت عليهم الذلة والمسكتة وباءوا بغضبِ الله .

ومن الطباق نوع يسمى (الطباق الخفي) أو (الملحق بالطباق)، وهو الجمع بين معندين يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر في نوع من أنواع التعلق، كقوله تعالى : ﴿ مَحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ، رُحَمَاءُ بَنَّهُم . . . ﴾ فَإِنَّ الرَّحْمَةَ لِيُسْتَ طَبَاقًا لِلشَّدَّةِ ، وَلَكُنْهَا ناجمةٌ عَنِ الْلَّيْنِ » وهو عكس الشدة . . . ومثله كذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، لِتَسْكُنُوا فِيهِ ، وَلَتَبْيَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فَإِنَّ (ابيغاء الفضل) وإن لم يكن مقابلاً للسكنون ، لكنه يستلزم الحركة المضادة للسكنون ، ومثله كذلك قوله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطَّبَنَاهُمْ أَغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا ﴾ فالإغراق ليس مضاداً لدخول النار ، ولكن دخول النار يستلزم الإحرق ، والإحرق يضاد الإغراق ، والإغراق من صفات الماء ، فكأنه جمع بين الماء والنار . وقد قال ابن مقد (وهذه أخفى مطابقة في القرآن) <sup>(٤)</sup> . ويقول ابن المعتز : من أملح الطباق وأخفاه قوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ لأنَّ معنى القصاص : القتل فصار القتل سبيلاً للحياة <sup>(٥)</sup> .

### الطباق الوهمي

ومن الطباق لون يُذكر في سياق بحثه ، لكنه ليس منه ، وسبب ذكره في بحث الطباق أنَّ فيه لفظين ، ظاهرهما التضاد ، وحقيقةهما ليس كذلك . . . ومثل ذلك قول دعبدل الخزاعي <sup>(٦)</sup> :

لا تعجسي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى  
فلقد يتوهّم المتسّع العجلان أنَّ بين (ضحك المشيب وبكى) طباقاً ،

(١) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٧٣ .

(٣) سورة نوح ، الآية ٢٥ .

(٤) أنوار الربيع ٤٢/٢ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ١٧٩ .

(٦) أنوار الربيع ٤٢/٢ .

(٧) شاعر متّصّب لليمينة والطالبين ، شهر بهجائه المتذع . توفي سنة ٢٤٦ هـ .

ولكنَّ الحقيقة غير ذلك، فليس بين الْفَطِينِ تضادٌ، لأنَّ (ضحك المُشَيْب) يعني اشتعال الرأس بالشَّيْبِ، و(بكى) من البكاء الحقيقى بالدَّمْعِ . . . فأيَّ تضادٌ بين ظهور الشَّيْبِ وبكاء العين؟ ولهذا فقد دعا البلاعِيُونَ هذا اللَّونَ بالوَهْمِيِّ . ومثل ذلك قول أبي تمام<sup>(١)</sup>:

ما إنْ تَرَى الأَحْسَابَ يَبْصَرُوا وُضُحاً إِلَّا بِحِثٍ تَرَى الْمَنَابِيَا سُودَا

فالأَحْسَابُ (البيض) هي أَحْسَابٌ كَرِيمَةٌ، والْمَنَابِيَا (السُّود) هي المفزعَةُ المُجْزِعَةُ . . . ولا تَنَافِي بَيْنَ الأَحْسَابِ الْبَيْضِ وَالْمَنَابِيَا السُّودِ، ولَكِنَّ الَّذِي أَوْهَمَ بِالظَّبَاقِ وَجُودَ لَفْظِيِّ (البيضِ وَالسُّودِ) . ومثله قوله في وصف الشَّيْبِ<sup>(٢)</sup>:

لَهُ مَنْظَرٌ فِي الْعَيْنِ أَيْضُّ نَاصِعٌ وَلَكَنَّهُ فِي الْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعٌ  
فَلَا تَضَادٌ بَيْنَ اللَّوْنِ الْأَبْيَضِ النَّاصِعِ الَّذِي تَرَاهُ الْعَيْنُ عَلَى الرَّأْسِ وَبَيْنِ  
الْحَزَنِ الْأَسْوَدِ الْمَجَازِيِّ الْمُقَيْمِ فِي الْقَلْبِ مِنْ شَدَّةِ الْحَزَنِ وَالْهَمِّ النَّاجِمِينِ  
عَنْ انتِشَارِ الشَّيْبِ فِي الرَّأْسِ وَالْإِشْعَارِ بِدُنُوِّ النَّهَايَةِ الْمُحَتَمَّةِ . . . وَلَكَنَّ الَّذِي  
أَوْهَمَ بِوْجُودِ تَضَادٍ هُوَ ذِكْرُ كَلْمَتِيِّ (أَبْيَضُ وَأَسْوَدُ) وَهَذَا مَا دَعَاهُ الْبَلَاغِيُونَ  
بِالظَّبَاقِ الْوَهْمِيِّ . وَالشَّيْءُ نَفْسِهِ نَقُولُ عَنْ بَيْتِ الشَّاعِرِ ذَاتِهِ<sup>(٣)</sup>:

وَتَنَظَّرِي خَبْرَ الرَّكَابِ يَنْصُها مُحْبِي الْقَرِيبِ إِلَى مُمِيتِ الْمَالِ  
فَلَقَدْ يَتَوَهَّمُ الْمَرْءُ أَنْ بَيْنَ (مُحْبِي الْقَرِيبِ وَمُمِيتِ الْمَالِ) طَبَاقًا، وَلَيْسَ  
الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَمُحْبِي الْقَرِيبِ هُوَ نَاسِيرُهُ وَبَاعِثُ نَهْضَتِهِ، وَكَانَ الشَّاعِرُ يَعْنِي  
نَفْسَهُ: أَمَّا مُمِيتُ الْمَالِ فَيَعْنِي بِأَذْلَهِ وَمُضَيْعِهِ، وَأَبُو تَمَّامَ يَقْصِدُ بِهِ مَمْدوِحَهُ  
الْحَسَنُ بْنُ رَجَاءٍ . . . لَكَنَّ وَجُودَ لَفْظِيِّ (محبٍّ وَمُمِيتٍ) هُوَ الَّذِي دَعَاهُ إِلَى  
تَوَهُّمِ وَجُودِ طَبَاقِهِ .

#### الظَّبَاقُ الْفَاسِدُ

الأَصْلُ فِي الظَّبَاقِ هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الشَّيْءِ وَضَدِّهِ . فَإِذَا لَمْ يَجْتَمِعْ ضَدَّانِ

(١) من قصيدة يمدح بها خالد بن يزيد الشيباني، مطلعها (طلل الجمبع لقد عفوت حميدا . . .)

(٢) من قصيدة يمدح بها أبا سعيد الثغرى، ومطلعها: (أما إنَّه لولا الخلط المودع . . .).

(٣) من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجاء. وَتَنَظَّرِي بِمَعْنَى: انتظري. وَخَبْرُ الرَّكَابِ: سرعة العَدُوِّ للِّإِلْبَلِ. يَنْصُها: يسرع بها.

لم يكن طباق . . فلو جمعنا بين الخبز والماء ، أو الغناء والركض ، أو الرسم والموسيقى ، أو العلم والمال ، وما شابه هذه الثنائيات ما جاز لنا أن نسمّي ذلك طباقاً ، ولو كان في هذه الثنائية ما يشفّ عن أثر ضئيل من آثار الطباق ، من ذلك قول أبي الطيب<sup>(١)</sup> :

لَمْنَ تَطْلُبِ الدَّنَيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بَهَا سَرورَ مُحِبٍّ أَوْ إِسَاءةَ مُجْرِمٍ  
فَالْمُحِبُّ يُضَادُهُ وَيَقْفَ تُجَاهُهُ : الْمُبْغِضُ ، وَلِيُسَ الْمُجْرِمُ . . وَهَذَا مِنْ فَاسِدِ  
الْطَّبَاقِ .

### التديّع

يفرد علماء البلاغة لهذا العنوان بحثاً مستقلاً ، ويوردون ذكره كذلك في بحث «الطباق» .

فالتدبيّع : مشتقّ من الديّاج ، وهو نوع ممتاز من أنواع الحرير ، فكأنّهم يشيرون بهذه التسمية إلى موقعه العظيم ، ورونقه البديع في الكلام . ويدّرّبون أنه يرد في الكلام على وجهين :

الأول : أن يرد في مقام المدح كقول أبي تمام في رثاء الطوسي<sup>(٢)</sup> .  
تردّي ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندسٍ خضرٍ  
يعني : أنه ليس ثياب الدنيا ، وهي حمرٌ من دماء الجهاد ، ثم استشهد  
بعد ذلك فما أتى الليل إلا وقد فارقت روحه هذه الدنيا ، وصار إلى الجنة  
مرتدياً ثياباً سندسية من عقري الجنان . . وجمال البيت جاء من استخدام  
اللّوئينِ الأحمر والأخضر استخداماً رائعًا .

ومثل ذلك قول ابن حيوس<sup>(٣)</sup> :

(١) من قصيدة يمدح بها كافورا ، مطلعها : (فارق ومن فارقت غير مذمم) .

(٢) من قصيدة يرثي بها محمد بن حميد الطوسي ، مطلعها : (كذا فليجيّ الخطب ولتفتح الأمْ)  
قال صاحب معاهد التصيص ١٩٧ / ٢ ما نصه : ولو قال أبو تمام :

تردّي ثياب الموت حمراً فما اختفى عن العين إلا وهي من سندس خضر  
لكان أبلغ في القصد وأبدع ، فإن الميت إذا غيّب بالدفن عن الأعين تبدلت أحواله إلى خيراً أو شراً .

(٣) هو محمد بن سلطان الغنوبي من شعراء الدولة المرداوية بحلب . توفي سنة ٤٧٣ هـ .

طالما قلتُ للمسائل عنكم واعتمادي هداية الصالِّ  
 إنْ تُرِدُ عِلْمَ حاليهم عن يقينِ فالمُهْمُ يوم نائلٍ أو نزالٍ  
 تُلْقِي بِيَضَ الوجه، سُودَ مُثَارَ اللَّهِ... قَعْ، خُضرَ الأكنااف، حُمرَ الصَّابَالِ  
 فلقد قابل بين البيض والسود، والخضر والحرم، لا بين مدلولات ما  
 وُصِفت به، إذ أي تناقضٌ بين الوجه البيض الكريمة وبين الغبار الأسود  
 المُثَار، والأكنااف المُخضرة بإكرام الضيَفانِ، والسيوف المحمّرة بقتل  
 الأعداء؟ . والتَّدْبِيج هنا تدبِيج كناية كالبيت الذي سلف .

الثاني: أن يَرِد في مقام الذمِّ . ومثاله ما قاله مُسْلِم بن الوليد في امرأة  
 بخلت عليه بوصالٍ، فشيَّهها بأحد المشهورين بالبخل<sup>(١)</sup> .

وأحَبَّتْ من حُبَّها الباخليـن حتى وَمَقْتُ ابن سَلَمٍ سعيداً  
 إذا سيلَ عُرْفَاً كَسَّا وجهه ثياباً من اللؤم بيضاً وسوداً<sup>(٢)</sup>  
 ويشبه ذلك ما ورد في مقامات الحريري: «فَمُذْ ازُورَ المحبوبُ  
 الأصفر . وأغْبَرَ العيش الأخضر، اسْوَدَ يومي الأبيض، وايْضَ فُودِي الأسود،  
 حتَّى رَئَى لِي العدوُ الأزرق، فَجَبَّذَاهُ الموتُ الأحمر»<sup>(٣)</sup> .

قال الرّماني وغيره: السُّواد والبياض ضدان ، وسائر الألوان يضاد كلَّ  
 واحد منها صاحبه، إلا أنَّ البياض هو ضد السُّواد على الحقيقة، لأنَّ كلَّ واحد  
 منها كُلُّما قويَ زاد بعدها عن صاحبه، وما بينهما من الألوان كُلُّما قويَ زاد  
 قرباً من السُّواد، فإذا ضعُفَ زاد قرباً من البياض ، ولأنَّ البياض منصبٌ ،  
 والسُّواد صابع لا ينصبَ . وليس سائر الألوان كذلك ، لأنَّها تصبُع ، وهذا  
 ظاهر، فمن شكَ فيه فلا يُعدُّ من العقلاء فضلاً عن العلماء<sup>(٤)</sup> . ونذكر في هذا  
 المقام قول المتنبي في كافور، وقد استخدم اللون في معرض القبح إذ قال:  
 مَنْ عَلِمَ الْأَسْوَدَ الْمَخْصِيَّ مَكْرُمَةً أَقْوَمُهُ الْبِيَضُ أَمْ آبَاؤُهُ الصَّيْدُ؟

(١) ديوانه ص ٢٧٠ .

(٢) وَمَقْتُ: أحبت . سيل : سُلَى . عُرْفَا: معروفاً .

(٣) المقامة البغدادية . والمحبوب الأصفر هو الذهب ، أغْبَرَ العيش: ذيل وتلف .

(٤) نوار الربيع ٤٧ / ٢ .

المقابلة : هي إبراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة المواجهة أو المخالفة .

والفرق بين المقابلة والطباقي هو أنَّ الطباقي لا يكون إلا بين الأضداد، أما المقابلة ف تكون بين الأضداد، كما تكون بين غير الأضداد، والفرق الثاني هو أنَّ الطباقي لا يكون إلا بين ضدين فقط، أما المقابلة ف تكون بين أكثر من اثنين .

وتقع المقابلة في الكلام شرعاً كان أم ثراً، وتقع بين لفظين، وثلاثة ألفاظ، وأربعة، وقد تقع بين خمسة .

مثال مقابلة اثنين باثنين قول الطغرائي ، صاحب لامية العجم<sup>(١)</sup> :

حُلُوُ الفُكاهة، مُرِ الجد، قد مُزجت بشدة البأس منه رقة الغزل  
فإنه قابل الحلو والفكاهة بالمر والجد في صدر البيت، ثم قابل الشدة  
والباس بالرقة والغزل في عجز البيت :

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلِيَضْحَكُوا قَلِيلًا ، وَلَيُبُكُوا كَثِيرًا<sup>(٢)</sup> ﴾ . وقول النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه<sup>(٣)</sup> » ، وقوله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَسِّرُوا وَلَا تَعْسِرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلَا تَنْفِرُوا<sup>(٤)</sup> » ، وقول النابغة الجعدي<sup>(٥)</sup> :

فتى تم في ما يُسْرُ صديقه على أن فيه ما يُسْوِي الاعدية

(١) هو أبو اسماعيل، مؤيد الدين الحسين بن علي .. أديب شاعر ناثر. وزر للسلطان مسعود بن محمد السلجوقي بالموصى، ولما تغلب السلطان محمود على أخيه مسعود قتل الوزير الطغرائي ظلماً سنة ٥١٣ هـ. وفيات الأعيان / ١ ٤٢٨ .

(٢) سورة التوبه، الآية ٨٣ .

(٣) رواه مسلم، عن رياض الصالحين ص ١٨٧ - باب الحلم والأناة والرفق .

(٤) متفق عليه .

(٥) ديوانه ص ١٧٤ .

وقول كثيرون<sup>(١)</sup>:

فواعجبنا كيف اتفقنا فناصيح وفني ومحظوي على الغل غادر

ومن لطيف هذه المقابلات التي تضع اثنين مقابل اثنين ما حكى عن محمد بن عمران الطلحي إذ قال له المنصور: «بلغني أنك بخيل» فقال: «يا أمير المؤمنين ما أجمد في حق، ولا أذوب في باطل».

ومثال مقابلة ثلاثة بثلاثة قول المتنبي<sup>(٢)</sup>:

فلا الجود يُنفي المال والجَدُّ مقبل ولا البخل يُنفي المال والجَدُّ مدبر فالمقابلة على الترتيب بين «الجود ويفني ومقبل» و «البخل ويفني ومدبر» وقول أبي دلامة<sup>(٣)</sup>:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل فقد قابل بين (أحسن وأقبح، والدين والكفر، والدنيا والإفلاس).

ومنه البيت الثاني من قول الشاعر:

إذا جاءت الدنيا عليك فجُدْ بها على الخلق طرًا إنها تتقلب فلا الجود يُنفيها إذا هي أقبلت ولا البُخل يُنفيها إذا هي تذهب

وقول أبي تمام:

يا أمة كان قبح الجور يُسخطها دهرًا فأصبح حُسن العدل يُرضيها  
ومثال مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى: ﴿فَمَمَّا مِنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى، فَسَيِّرْهُ لِلْيُسْرَى، وَمَمَّا مِنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَيِّرْهُ لِلْعُسْرَى﴾<sup>(٤)</sup>. وقد قابل بين (أعطى وبخل، واتقى

(١) ديوانه ص ٥٢٨.

(٢) لم يرد هذا البيت في ديوانه.

(٣) اسمه: زند بن الجون، من محضرمي دولة بنى أمية والعباس، وكان الخلفاء العباسيون يستطليون نوادره ومجالسه، ويروى أن المنصور سأله عن أشهر بيت قاله العرب في المقابلة، فقال: بيت يلعب به الصبيان، قال: وما هو على ذلك؟ فأنشد له البيت. العمدة ٢/١٥ ومعاهد التصحيح ١/٢٠٨ (في العمدة ينسب البيت إلى غير أبي دلامة).

(٤) سورة الليل، الآيات ٥ - ١٠.

وأستغنى ، وصلق وكذب ، واليُسرى والعُسرى) . والمراد بـ (استغنى) زهد فيما عند الله ، كأنه مستغنٍ عنه ، فلم يَتَّقِ ، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة فلم يَتَّقِ .

وقول غرس الدين الإربلي<sup>(١)</sup>:

تُسَرَّ لِيَمَا مَكْرِمَاتُ تُعِزُّ وَتُبَكِّي كَرِيمًا حَادِثَاتُ تُهِينُهُ فقد قابل بين (تُسَرَّ وَتُبَكِّي، ولِيَمَا وَكَرِيمًا، ومَكْرِمَاتُ وَحَادِثَاتُ، وَتُعِزُّ وَتُهِينَهُ).

ومثله قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته:

«هذا ما أوصى به أبو بكر عند آخر عهده بالدنيا، خارجاً منها، وأول عهده بالأخرة داخلاً فيها...». فقد قابل بين (آخر وأول، والدنيا والآخرة، خارجاً وداخلاً، ومنها وفيها).

ومثال مقابلة خمسة بخمسة قول أبي الطيب<sup>(٢)</sup>:

أَزْوَرُهُمْ، وَسَوَادُ اللَّيلِ يَشْفَعُ لِي أَنْثِي، وَبِياضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي  
فَقَدْ قَابِلَ بَيْنَ «أَزْوَرُهُمْ وَأَنْثِي»، وَسَوَادِ وَبِياضِ، وَاللَّيلِ وَالصُّبْحِ،  
وَيَشْفَعُ وَيُغْرِي، وَلِي وَبِي»<sup>(٢)</sup>.

ومثله قول أحدهم<sup>(٤)</sup>: «إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وَالْبَاطِلُ خَفِيفٌ وَبَيِّنٌ». وأنت امرأً إذا صدِّقْتَ سَخْطَتَ، وإنْ كُذِّبْتَ رَضِيتَ». فقد قابل بين الحق والباطل، وثقل وخفيف، ومريء ونبيء، وصدقت وكذبت، ورضيت وسخطت.

(١) هو أبو بكر محمد بن إبراهيم . أديب متفوق في النظم والشعر . توفي بدمشق سنة ٦٧٩ هـ .  
معاهد التصصيص / ٢٠٩ .

(٢) من قصيدة يمدح بها كافورا، ومطلعها: (من العجائز في زى الرعایب).

(٣) يعرض بعض العلماء على مقابلة «لي وبي» ويحتاج بأنهما صلتان ليشع ويغري ، فهما من تمامهما . وليس من قبيل قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبتْ ﴾ . تهذيب الإيضاح / ٣٥ . ولو صح قولهم لكن في قول أبي بكر الذي مضى ما ينفي المقابلة بين «منها وفهها» .

(٤) ينسب القول إلى علي بن أبي طالب وهو يتحدث إلى عثمان بن عفان، رضي الله عنهما.

هل الطباق تحسين معنوي؟

درج علماء البلاغة انطلاقاً من عهد السكاكيني إلى يومنا هذا على جعل (الطباق والمقابلة) في جملة علم البديع، وعلوه أحد المحسنات المعنوية في الكلام.

عبارة ثانية نظر هؤلاء المؤلفون إلى الطباق على أنه جلية معنوية في الكلام، تزيده جمالاً إن وُجدت، ولا تضرّ به إن غابت.. فالطباق - في رأيهما - لا يعدو كونه نافلة من القول، يمكن الاستغناء عنها في أية لحظة، وما أشبهها بالزينة التي يجعلها المرء على جدار بيته، لا تنفعه لو رفعها، ولا تضرّه لو وضعها.

ويلوح لنا بعد تأمل طويل لهذا اللون أنَّ العلماء - أكرمهم الله ورحمهم - قد تجئوا على الطباق، وهضموه حقّه، ونظروا إليه نظرة استهانة، كان جديراً بخير منها، وبتقدير أكبر وأجل.. ويبدو أنهم حكموا عليه بما حكموا من خلال النّظرة الجزئية التي نظروا إليها بها.. فقد كانوا يأتون إلى الشاهد مفصولاً عن سابقه ولا حقه، فيفحصون مفرداته من حيث معناها ومتناها، ثم يطلقون الحكم عليها، تسمية أو وصفاً أو لقباً.. فإذا قرأ أحدهم الآية الكريمة: ﴿فَلِلَّهِمَّ مَا لَكُمْ مَالٌكُمْ، تُؤْتِيَ الْمُلْكَ مَنْ شَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ شَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ شَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ شَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، تُولِجُ اللَّيلَ فِي النَّهَارِ، وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ، وَتُخْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ الْحَيِّ، وَتَرْزُقُ مَنْ شَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ... ذكر أنَّ في: تُؤْتِي وَتَنْزِعُ، وَتُعِزُّ وَتُذِلُّ، طباقاً بين الأفعال، وفي الليل والنهار، والحي والموت طباقاً بين الأسماء.. ولا شيء أكثر من هذا.. وقد يذكر أنَّ في الشاهد جناساً أو تورية أو تديجاً أو سوى ذلك، ثم لا يذكر الحكمة من كون ذلك طباقاً أو جناساً أو تورية أو سوى ذلك. وما الجمال الفني الذي حملة هذا اللون (البديعي) بل هل كان في الإمكان الاستغناء عن إيراد هذا التحسين اللغطي أو المعنوي؟

هذه النّظرة الجزئية للكلمة، مقطوعة عن سياقها العام، مفصولة عن

(1) سورة آل عمران، الآيات 26 و 27.

ارتباطاتها النفسية والاجتماعية والأدبية وغيرها هي التي دفعت كثيراً من الباحثين إلى اتهام علم البدع وأولاً، ثم العلوم البلاغية الأخرى ثانياً بالقصور عن إدراك الجمال الفني في التعبير الأدبي الرفيع ..

ونعتقد أن هؤلاء النقاد مُحقّون إلى حدٍ كبيرٍ في اتهامهم، لو أبقينا العلوم البلاغية على ما هي عليه من جمود، ومن قيود، ومن تجزئة، وفصل عن العلوم الأخرى .

### الطباق والصورة الفنية

ونعود إلى الطباق، ونقرأ الأبيات التالية في ضوء نظرة القدماء، وما يجب أن ننظر:

سألت صبيَّةَ بَدْوِيِّ الْجَبَلِ الشَّاعِرَ السُّورِيَّ المُعْرُوفَ عَنْ عُمْرِهِ، وَهُلْ  
بَلَغَ الْخَمْسِينَ؟ وَإِذَا كَانَ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُحِبَّ الْجَمَالَ، وَيَتَّبَعَ الْحُسْنَ، وَيَنْظُمْ  
الْحُبَّ وَالْغَزَلَ قَصَائِدَ، فَقَالَ لَهَا<sup>(١)</sup>:

يَلِي الشَّبَابُ، وَلَا تَلِي سِحَابَاهُ  
يُعْطِي، وَيَرِدَادُ ما ازدادَتْ عَطَابَاهُ  
إِلَّا تَفَجَّرَ أَلْفُ فِي حَنَابَاهُ  
كُلُّ الرَّحِيقِ الْمُنْدَى فِي زَوَابِاهُ  
فَلَمْ يَشِبْ قَلْبُهُ إِنْ شَابَ فُؤَادَاهُ  
تَرَيَّنَ الْوَرَدُ أَلْوَانًا لِيَقِنَّا  
أَتَسْأَلُينَ عَنِ الْخَمْسِينَ مَا فَعَلْتُ  
فِي الْقَلْبِ كَنْزُ شَبَابٍ لِأَنْفَادَ لَهُ  
فَمَا انْطَوَى وَاحِدٌ مِنْ زَهْوِ صَبَوْتَهُ  
هُلْ فِي زَوَابِاهُ مِنْ رَاحِ الصَّبَا عَبَّقَ  
يَقِنِي الشَّبَابُ نَدِيَّاً فِي شَمَائِلَهُ  
تَرَيَّنَ الْوَرَدُ أَلْوَانًا لِيَقِنَّا مَا فَتَاهَ؟

عالم البلاغة القديم يقول: بين (يَلِي ولا يَلِي) طباق بين الإيجاب والسلب . وبين (انطوى وتفجر) طباق بين فعلين، وبين (فلم يشب وشاب) طباق بين السلب والإيجاب .. وهناك محسنات بدعاية أخرى .. كما أن هناك ألواناً من البيان وعلم المعاني .

ونتساءل: أيكفي هذا التحليل للحكم على أبيات الشاعر؟ أظهرت تلك الأقوال الإبداع الرائع الذي حقق فيه البدوي؟ .. ليس من حقه أن نذكر الثورة النفسية العارمة التي ملأت قلبه من سؤال الفتاة الذي جمع بين الشفقة والغمز؟ .. ونذكر الانفجار الكبير الذي تفجر به الشاعر، ونعرض للأ JW

(1) ديوان بدوي الجبل ص ٣٨٩

التي رسمها ، والمعطر التي نفحها ، وألوان الكربلاء التي نثرها ، والزينات التي رشّها في كلّ بيت بل في كلّ صورة ولوحة؟؟

لئن يلي الشّباب العَصْنِ ، وذوى الجلد اللَّدُنْ في عينيك يا صغيرتي ..  
فشباب السّجّايا وسجايا الشباب ، وهي أكبر وأكرم من أن أنشرها بين يديك وأعرضها بين عينيك ، لا تزال باقية لم يدلّف إليها البلى .. الشّباب شباب القلب كما هو شباب الجسد ، وإن كثيراً من الذين تراهم عيناك شباباً هم شيوخ في قلوبهم ، فلا تغرنّك الظواهر ، ولا تذهبنّ بعقلك القشور .. إنّ في قلبي كثراً من شباب ، ما يزال دفاقاً في العطاء ، وكلّما أعطى تفجّرت فيه ينابيع وينابيع .. إنّ في قلبي زُهْوٌ شبابٍ ، وكربلاء عطراً ، وندى رحيقٍ ، ولئنْ شاب فوداً في قلبي ما يزال غضاً ، ونفسى ما تزال على وهج الحياة ، ودفق العطاء .. يا سائلتى ، أتریدين أن تعرّفينا على الحقيقة .. أتریدين أن تعرّفينا من نحن .. نحن الذين فتنا الوردة في عقنا وعطرنا .. لقد ظنّ أنّه ترّين وتلّون وتعطّر ليفتّنا .. نحن أكرم من في هذه الحياة وأجمل .. نحن الورد والعطر والشّدّى .

تَرَيْنَ الْوَرَدَ الْوَلَانَا لِيَفِتَّا أَيْحَلُّ الْوَرَدَ أَنَا مَا فَتَّاهُ؟؟

وهذا عمر أبو ريشة يقف في حفلة أقيمت بحلب تكريماً للمجاهد الراحل إبراهيم هنانو ، الذي ظلّ يجاهد الفرنسيين حتى الرّمق الأخير .. وقد نظم الشاعر القصيدة ووطنه السّوري ما يزال يرسّف تحت نير الانتداب الفرنسي . وعنوان القصيدة (قيود) قال منها<sup>(١)</sup> :

وَطَنْ عَلَيْهِ مِنِ الزَّمَانِ وَقَارُونَ  
تَغْفُلُ أَسَاطِيرُ الْبُطْلَةِ فَوْقَهُ  
وَيَهْرُبُ مِنْ مَهْدِهَا التَّذَكَارُ  
فَتُطْلَلُ مِنْ أَفْقِ الْجَهَادِ قَوَافِلُ  
مُضَرُّ يَشُدُّ رِكَابَهَا وَنِزَارُ  
سَارَتْ عَلَى هَامِ الْخُطُوبِ وَلِلْمُنْتَهِي  
شَبَّحُ عَلَى وَهْجِ الْجَحِيمِ مُثَارُ  
وَالصُّبُحُ مِنْ دَفْقِ الدُّخَانِ دَجَّةٌ  
وَالْمَوْتُ جُرْحُ الْكَبِيرِيَاءِ يَصْدِرُهُ  
وَالْمَحْيَى جَنَاحُ الْكَبِيرِ هَذِي ثُرْبَةٌ  
فَاخْفِضْ جَنَاحَ الْكَبِيرِ هَذِي ثُرْبَةٌ  
غَمَرَ الْخُلُودَ أَرِيَحُهَا الْمَعْطَارُ  
فِي كُلِّ صُقُعٍ مِنْ جَمَاجِمِ شَيْهَهَا

(١) ديوان عمر أبي ريشة ص ٥٥٢

لو درسنا القصيدة من خلال عدد (الطباق) أو (المقابلة) أو الفنون الأخرى البدعية لهؤلئنا بالعمل الفتى إلى الدرك الأسفل . ولو نظرنا إلى الآيات في ضوء المراة التي تملأ قلب الشاعر من وجود المستعمر الفرنسي فوق أديم الوطن الطاهر، ومن خلال استشهاد القائد المجاهد إبراهيم هنانو، ثمّ من خلال ماضي هذا الوطن المشرف ، ومن تصميم أبنائه على النضال والتحرر وطرد الغزاة ، ودققنا في شكل العبارات التي اختارها عمر فإننا نرى المدهش والمطرب والمُعجب .

أجل ، إنه عمد إلى المقابلة في شتى صورها . واستخدم الطباق لوناً من الألوان التعبير . . وذلك حين قال : «النور ملء شعابه والنار ، والصبح من دفق الدخان دجنة ، والليل من سيل اللهيب نهار ، والموت .. يعيي وتضحك حوله الأعمار ..» لكن الشاعر لم يقصد إلى هذه المقابلات عمداً لولا أنها سيمة أصيلة من التعبير باللغة العربية .. وأنَّ الإنسان العربي ، بل الإنسان عامةً ، في كل مكان وزمان ولغة ، لا يستطيع التعبير الكامل ، دون اللجوء إلى هذه المتضادات من الألفاظ ، والمقابلات من العبارات ، ولقد أضفت على قصيدة الشاعر من الجمال ما لا يدخل في حسبان .

إن قوله وهو يصف الوطن «النور ملء شعابه والنار» ليس لوناً بديعياً ، أو زخرفاً معنوياً - كما زعم المؤلفون رحمة الله في علم البدع - لكنه صورة فنية ضمت في أطرافها جميع ما تشتمل عليه صورة الوطن في عين الشاعر . . من ماضٍ يعقب بالمجد ، وحاضر يفوح بالشذوذ والأريج .. وكأننا بالشاعر قد جمع على صعيد واحد الماضي والحاضر . . فرأى الماضي متلايلاً مشرقاً ، مضيئاً بالأنوار ، ذلك الماضي الذي يذكرنا ببني أمية وجحافل المجد والفتح التي انطلقت في أيامهم إلى شرق الدنيا وغربها تنشر النور والهدى ودين الله ، كما يذكرنا ببلاد الشام التي تجمعت تحت لواء صلاح الدين الأيوبى وسارت صفاً واحداً إلى حطين والقدس ، فطهرت الأرض من الصليبيين . وأعادتهم مهزومين مقهورين .. ذلك هو مما يجتمع تحت كلمة «النور» .

وأما النار فهي ما يراه من تأجُّج ثورات هنا وهناك ، في كل مدينة وقرية ، وسهل وجبل ، ضدَّ الغزاة الفرنسيين الذين سلّلوا إلى الوطن ، وقررروا أن يجعلوه تحت نير عبوديتهم .. إن الشاعر يرى في المجاهد الشهيد إبراهيم

هناو وفي إخوته الشّوار المجاهدين النّار التي سوف تحرق كل معتدٍ أثيم دُسْ  
هذا الوطن ، واستباح حرماته . . . وذلك هو ما عناه أبو ريشة (بالنّار) .

رأيتَ إلى بعض ما حملته عبارة واحدة من معان ، وما رسمته من  
صُور ، وما أوحت به من ذكريات؟؟ . . أو يكفي أن نقول : إنَّ في هذا الشّطر  
طريقاً بين النّور والنّار ثم نلوي وجوهنا؟؟ . . وعلى ذلك نمضي في بقية  
الأبيات .

لأخذ قصيدة أخرى مبللة بالدموع أرسلها ابن زيدون إلى ولادة حبيبته  
التي تركته يهيم بها ، ثم تعلقت بسواء . . من أبياتها :

أضْحَى التَّائِي بِدِيلًا مِنْ تَدَانِيَا  
بِشَّمْ، وَبِنَا، فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنا  
نَكَادُ، حِينَ تُسْجِيْكُمْ ضَمَائِرُنَا  
حَالَتْ لِفْقَدِكُمْ أَيَامًا فَغَدَتْ  
مِنْ مُبْلِغِ الْمُلْبِسِنَا بِإِنْزَاحِهِمْ  
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا زَالْ يُضْحِكُنَا  
غَيْظَ الْعَدَى مِنْ سَاقِنَا الْهَوَى فَدَعَوْا  
وَنَابَ عَنْ طَبِّ لُقْيَانَا تَجَافِنَا  
شُوقًا إِلَيْكُمْ، وَلَا جَفَّتْ مَاقِنَا  
يَقْضِي عَلَيْنَا الأَسْى لَوْلَا تَأْسِيْنَا  
سُودًا، وَكَانَتْ بِكُمْ بِيَضَا لِيَالِيْنَا  
حَزَنًا عَلَى الدَّهْرِ، لَا يَلِيْنَا، وَيَلِيْنَا  
أَنْسًا بِقُرْبِهِمْ، قَدْ عَادَ يُبَيْكِيْنَا  
بَأْنَ نَعَصَّ، فَقَالَ الدَّهْرُ: أَمِينَا

في الأبيات عدد كبير من ألفاظ الطلاق ومن عبارات المقابلة . .  
ويحيل إلينا أنَّ جمال القصيدة جاء من عوامل كثيرة ، من جملتها هذه  
المقابلات والمتضادات . . بين الثنائي والتَّداني ، وبين اللقاء والجفاء . .  
وبيَنَ الأسى والتأسي . . وبين سواد الأيام وبياض الليالي . . وبين لا يلِيْنَا  
وبيَلِيْنَا . . وبين يضحكنا ويُبَيْكِينا .

هذه المقابلات لم تكن زينة بدعة ، حسنت المعاني . وإنَّما هي جزء  
أصيل من تفكير الشاعر وتعبيره . ولو لا ما كان بال قادر على البوج بما يحرقه  
أو يكويه . . كيف يتحدث عن البعد إن لم يكن يعرف معنى القرب واللقاء؟  
وكيف يعبر عن حرقة الدموع إن لم يكن يعرف روعة اللقاء وفرحته وبرده  
وسلامه؟ وكيف يصف أيامه الحالية وقد تجلَّت سواداً إن لم يقارنها بلياليه  
الخواли ، وقد كانت تشرق أنواراً؟ .

أليست هذه المقابلات أساساً من أُسسِ تعبير بني الإنسان في سرائهم  
أو ضرائهم؟؟

وهذه بعض أبيات من قصيدة للمتنبي، كانت أولَ ما أنشد كافوراً  
الإخشيدى، وقد أفعمتها بالمقابلات فكانت أروعَ ما يكون عليه الفنَ الرَّفِيع :

كفى بكَ داءً أن ترى الموتَ شافياً  
تمَّيْتها، لمَّا تمَّيْتَ أن ترى  
صديقاً فأعياً، أو عدواً مُداجِياً  
فلا تَسْعَدَنَّ الْحُسَامَ الْيَمَانِيَا  
ولا تستَطِيلَنَّ الرَّمَاحَ لِغَارَةً  
فما ينفعُ الأَلْسُونَ الْحَيَاءُ مِنَ الطَّوَى  
حيَّتِكَ قلبِي قبْلَ حَبَّكَ مِنْ نَائِي  
وقد كانَ غَدَاراً فكُنْ أنتَ وافياً  
فلستَ فؤادي إِنْ رأَيْتَكَ شاكِيَا  
رأَيْتُكَ تُصْفِي الْوَدَّ مِنْ لِيس صافِيَا  
أقلَّ اشتياقاً أَيُّهَا الْقَلْبُ رَبِّما

إنَّ الأبيات جميلة، بل هي رائعة.. وَرَوَّعْتُها جاءت من مصادرَ شَتَّى،  
من جملتها قدرة الشاعر على حسن المقابلة بين المتضادَات.. ما أروعَ  
الصُّورَة التي صَوَّرتَ المَنَيَا، وهي الكريهة إلى كل مخلوق، بصورة الأَمَانِي  
التي يحلم بها الإنسان ويَتَمَّناها! وما كانت لتُصْبِحَ كذلك لو لا أن اختلطت  
عليه الأمور، وادلهمَت الأَيَامَ، فما عاد يُفرَقُ بين صديقه وعدوه. فراح يخبط  
في الحياة خَبْطَ عَشَوَاء، لا يَميِّز بين خَيْرٍ وشَرٍّ، أو نفعٍ وضرٍّ، ولا بين أَبِيس  
وأسود.

ثُمَّ ما أروع خطابه وعتابه لقلبه وحديثه معه.. واستذكاره لأيامه  
الخواли في ظلال سيف الدولة وربوعنه.. ثُمَّ بكاءه على  
وفاء سَفَحَه على تلك الصَّدَاقَة، وأرْخَصَه بين يديه من طَنَّه وفيَّا مثله، لكنَّه  
تَكَشَّفَ عن غدر وخيانة ونكران لكل ساعَةٍ ودَّ وصفاءً! أَيُّهَا الْقَلْبُ سُوفَ أَبْرَأُ  
منكَ لِو شَكوتَ الْبَعْد.. وأَنَا أَعْرُفُ أَنَّكَ تَمْزَقَ قَبْلَ أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْكَ يَدِي، أَوْ  
تَحرقَكَ دَمْعَتِي.. وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَيْنَ يُشَكِّيكَ بَعْدَه، فَلَسْتَ فَؤادي، إِنْ رأَيْتَكَ  
شاكِيَا.

إِنَّه الصَّوْتُ والصَّدَى.. وال فعل ورِدَّة الفعل.. وال فكرة وطباقها.. بل

هو الجَدَل «الديالكتيكي» بعينه .. هو فن الحوار النفسي والحسي الذي تحدث عنه أفلاطون وأفاض الحديث، ثم جاء تلميذه أرسطو فشرحه ومددّه وبسطه، لكنه نظر إليه من زاوية واحدة، ثم جاء هيغل الألماني فبسّط النظرية، ونقلها نقلة واحدة، وطبقها على كثير من آلاء الحياة، ومثله فعل ابن خلدون .

خلاصة هذه الحوارية الجدلية أنه إذا ما اجتمع اثنان مختلفا الرأي، نشب جدل بينهما، وحاول كل واحد منهما إدحاض رأي خصمه بالحجّة والبرهان . ومن خلال الحوار الدائري بينهما تتولد نتيجة . . . ذلك هو أصل النظرية اليونانية . وجاء العصر الحديث فتبني فريدرريك هيغيل هذه النظرية الجدلية ، وطورها ، وطبقها على تطور التاريخ الإنساني . . وكذلك نجد في مقدمة ابن خلدون شيئاً يُشبه هذه النظرية ، ويطبقها على نشوء الدولة ، وازدهارها ، ثم انهيارها .

إنَّ الذي يعنينا في هذا الموضوع هو كون الطباق أساساً من أسس التفكير والتعبير الإنساني وليس زخرفاً من القول، أو زينة يمكن الاستغناء عنها ..

لنقرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلْمَاتُ وَلَا  
الثُّورُ. وَلَا الظُّلْلُ وَلَا الْحَرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾<sup>(١)</sup>

إنَّهَا تَعْنِي أَنَّهَا لَا يُسْتَوِي عِنْدَ اللَّهِ الْإِيمَانُ وَالْكُفَرُ، وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ،  
وَالْهُدَى وَالضَّلَالُ، كَمَا لَا يُسْتَوِي الْعُمَى وَالْبَصَرُ، وَالظُّلْمَةُ وَالنُّورُ، وَالظُّلُلُ  
وَالْحَرُورُ، وَالْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ. وَهِيَ مُخْتَلِفةُ الطَّبَائِعِ مِنَ الْأَسَاسِ.

إنَّ بين طبيعة الكفر وطبيعة كُلٍّ من العَمَى والظُّلْمَةِ والحرُورِ والمُوتِ  
صلةً، كما أنَّ هناك صلةً بين طبيعة الإيمان، وطبيعة كُلٍّ من النُّورِ والبَصَرِ  
والظُّلْلِ والحياة .

إن الإيمان نور، نور في القلب، ونور في الجوارح، ونور في الحواس، نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والأحداث وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعاد. فالمؤمن ينظر بهذا النور، نور الله، فيرى تلك

(١) سورة فاطر، الآيات ١٩-٢٢.

الحقائق، ويتعامل وإياها على هدى وبصيرة، ولا يخبط خطط عشواء.  
والإيمان بصر، يرى رؤية حقيقة صادقة غير مهزولة ولا مخللة.  
ويمضي بصاحبه على نور، وعلى ثقة، وفي اطمئنان.

والإيمان ظلٌّ ظليلٌ، تستروحه النفس، ويرتاح له القلب، ظلٌّ من  
هاجرة الشك والقلق والحيرة في التّيّة المظلم بلا دليل.

والإيمان حياة، حياة في القلوب والمشاعر، حياة في القصد والاتّجاه، كما  
أنّه حركة بانية، مشمرة، قاصدة، لا خمود فيها ولا همود، ولا عبث فيها ولا ضياع.

والكفر عمى، عمى في طبيعة القلب، وعمى عن رؤية دلائل الحق،  
وعمى عن رؤية حقيقة الوجود، وحقيقة الارتباطات فيه، وحقيقة القِيم  
والأشخاص والأحداث والأشياء.

والكفر ظلمة أو ظلمات، فعندما يبعد الناس عن نور الإيمان يَقْعُون في  
ظلمات من شتى الأنواع والأشكال، ظلمات تعزّ فيها الرؤية الصحيحة لشيء  
من الأشياء.

والكفر هاجرة، حرر، تلفح القلب فيه لوافع الحيرة والقلق وعدم  
الاستقرار على هدف، وعلى الاطمئنان إلى نشأة أو مصير، ثم تنتهي إلى حَرَّ  
جهنّم، ولفحة العذاب هناك.

والكفر موت، موت في الضمير، وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل،  
وانفصال عن الطريق الواصل، وعجز عن الانفعال والاستجابة للآخرين من  
النبع الحقيقي، المؤثرين في سير الحياة.

ولكلّ طبيعته، ولكلّ جزاؤه، ولن يستويَ عند الله هذا أو ذاك<sup>(1)</sup>  
أرأيت إلى بعض ما تهدي إليه هذه الآيات، وما ترسم من ظلال  
وأفياء؟ وما كان ذلك إلا بمقارنة الأضداد بعضها بعض مما يسميه  
البلاغيون بالطباق الذي هو تحسين معنوي لا أكثر في رأيهم.

(1) في ظلال القرآن / ٥ ٢٩٣٩.

لقرأ آية أخرى في ظلّ هذا التفسير.. قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ  
الْمُلْكُ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزَعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتَعْزِيزُ  
شَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيلَ فِي النَّهَارَ، وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ  
فِي الْلَّيلِ، وَتَخْرُجُ الْحَيٌّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَتَخْرُجُ الْمَيِّتُ مِنَ الْحَيِّ، وَتَرْزُقُ  
غَيْرَ حِسَابٍ ﴾<sup>(١)</sup> .

ظاهر الآية مفعّم بالطبقات بين الأفعال من مثل (تُؤْتِي وتنزع ، وَتَعْزِيز  
وَتَنْزَعُ ) ، وطبقات بين الأسماء من مثل (الليل والنهر والحي والميت) . وتلك  
هي محسنات معنوية تزيد الكلام حسناً وجمالاً .

أما واقع الآية فهو أكبر من ذلك وأعمّ .. إنها نداء خاشع . . . في  
تركيبيه اللغطي إيقاع الدّعاء ، وفي ظلاله المعنوية روح الابتهاج ، وفي  
التفاتاته إلى كتاب الكون المفتوح استجاشة للمشارع في رفق وإناس ، وفي  
جمعه بين تدبّر الله وتصريفه لأمور الناس والأمور الكون إشارة إلى الحقيقة  
الكبيرة : حقيقة الألوهية الواحدة ، القوامة على الكون والناس ، وحقيقة أنَّ  
شأن الإنسان ليس إلا طرفاً من شأن الكون الكبير الذي يُصرّفه الله ، وأنَّ  
الدينونة لله وحده هي شأن الكون كله كما هي شأن الناس ، وأنَّ الانحراف  
عن هذه القاعدة شذوذ وسفه وانحراف .

﴿ مَالِكُ الْمُلْكُ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزَعُ  
مَنْ تَشَاءُ، وَتُنْذِلُ مَنْ تَشَاءُ ﴾ . إنَّها الحقيقة النائمة من حقيقة الألوهية  
الواحدة .. إِلَهٌ واحد ، فهو المالك الواحد .. هو «مالك الملك» بلا  
شريك .. ثمَّ هو من جانب يملُك من يشاء ما يشاء من ملكه .. كذلك هو  
يعزّ من يشاء ، ويذلّ من يشاء ، بلا معقب على حكمه ، وبلا مُجِيرٍ عليه ، وبلا  
رَادٍ لقضائه ، فهو صاحب الأمر كله بما أَنَّه - سبحانه - هو الله .. وما يجوز أن  
يتولّ هذا الاختصاص أحد من دون الله .

وفي قيام الله هذا الخير كلَّ الخير ، فهو يتولاه - سبحانه - بالقسط  
والعدل . يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يشاء ، وينزع الْمُلْكَ مَمَّنْ يشاء بالقسط والعدل ،  
فهو الخير الحقيقي في جميع الحالات ، وهي المشيئة المطلقة على تحقيق

(١) سورة آل عمران ، الآيات ٢٦ و ٢٧ .

هذا الخير في كل حال . . . يدك الخير، إنك على كل شيء قادر.

﴿ تُولِجُ اللَّيلَ فِي النَّهَارِ، وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ، وَتُخْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ الْحَيِّ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

التعبير التصويري لهذه الحقيقة الكبيرة، يملأ بها القلب والمشاعر والبصر والحواس: هذه الانسيابية الخفية المتداخلة، إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وإخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي.. والتي تدل على عظمة الله بلا شبهة ولا جدال، متى ألقى القلب إليها انتباها، واستمع فيها إلى صوت الفطرة الصادق العميق.

وسواء كان معنى إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل هو أخذ من هذا، وأخذ ذاك من هذا عند دورة الفصول . أو كان هو دخول هذا في هذا عند دبيب الظلمة ودبب الضياء في الامسأ والإباح . . . سواء كان هذا أو ذاك فإن القلب يكاد يبصر يد الله وهي تحرك الأفلاك، وتلف هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة المضيئة، وتقلب مواضع الظلمة ومواضع الضياء . شيئاً فشيئاً يتسرّب عيش الليل إلى وضاءة النهار، وشيئاً فشيئاً يتنفس الصبح في غيابة الظلام . شيئاً فشيئاً يطول الليل وهو يأكل من النهار في مقدم الشتاء، وشيئاً فشيئاً يطول النهار وهو يسحب من الليل في مقدم الصيف . وهذه أو تلك حركة لا يدعى الإنسان أنه هو الذي يمسك بخيوطها الخفية الدقيقة، ولا يدعى عاقل أنها تمضي هكذا مصادفة بلا تدبر.

كذلك الحياة والموت، يدب أحدهما في الآخر، في بطء وتدرج ، كل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة، ويأكل منه الموت، وتبني فيه الحياة . . خلايا حية منه تموت وتذهب، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل ، وما ذهب منه ميتاً يعود في دورة أخرى إلى الحياة، وما نشأ فيه حياً يعود في دورة أخرى إلى الموت . . هذا في كيان الحي الواحد . ثم تتسع الدائرة فيما بين الموت الحي كله ، ولكن خلاياه تتحول إلى ذرات تدخل في تركيب آخر، ثم تدخل في جسم حي، فتدب فيه الحياة . . وهكذا دورة دائبة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار . . ولا يدعى الإنسان أنه هو الذي

يصنع من هذا كله شيئاً، ولا يزعم عاقل كذلك أنها تسمّ هكذا مصادفة بلا تدبير.

حركة في كيان الكون كله، وفي كيان كل حي كذلك، حركة حفية عميقه لطيفة هائلة، تبرزها هذه الإشارة القرآنية القصيرة للقلب البشري والعقل البشري، وهي تشي بيد القادر المبدع اللطيف المدبّر.

«وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ». إنها اللمسة التي ترد القلب البشري إلى الحقيقة الكبرى، حقيقة الألوهية الواحدة، حقيقة القيام الواحد، وحقيقة الفاعلية الواحدة، وحقيقة التدبير الواحد، وحقيقة المالكية الواحدة، وحقيقة العطاء الواحد، ثم حقيقة أن الدينوية لا تكون إلا لله القديم، مالك الملك، المعز المذل، المُحْيى المميت، المانع المانع المدبّر لأمر الناس والكون بالقسط والخير على كل حال<sup>(١)</sup>.

أفنشطيع بعد هذا العرض أن نبقى على رأي من قال : إن في عرض هذه المتقابلات زينة بديعية ، وتحسيناً للمعنى ليس أكثر؟؟؟ .

نؤكّد أن الطلاق والمقابلة وما يتفرع عنهما ليس أمراً نافلاً، وليس زينة بديعية ، يليهو بها الأديب ، فيورد الكلمة وضدها ، والعبارة وأختها أو نقيضها ليجعل كلامه برّاقاً خلاباً بديعياً.

إنما الطلاق أساس من عمارة هذا الكون في ظاهره وباطنه ، وهو أكبر مما وصفه المؤلفون .. لأنّ الحياة بكلّ عناصرها هي جزء من هذا اللون ، أو هذا اللون جزء من الحياة ذاتها .. وهل نستطيع أن نفهم الوجود بكلّ ما فيه لو لا هذه المتقابلات؟ الغنى والفقير ، الحياة والموت ، الدنيا والآخرة ، الثواب والعقاب ، الخير والشرّ ، الجنّة والنّار ، السماء والأرض ، الإنس والجنّ ، الذّكر والأنثى ، الصّحة والمرض ، العلم والجهل ، الشّرق والغرب ، الأم والأب ، الأخ والأخت ، الصّديق والعدو ، الحاكم والمحكوم ، الجمال والقبح ، الوجود والعدم ، الخالق والمخلوق ، السيد والمسود ، الإيمان والكفر ، الأنّا والأنّت ، الحاضر والغائب ، الأعمى

---

(١) في ظلال القرآن / ١٣٨٢.

وأله البصیر، الظُّلْمَةُ وَالنُّورُ، الْحَيُّ وَالْمَيْتُ، الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ، الْجُودُ وَالْبَخْلُ،  
الشَّجَاعَةُ وَالْجُبْنُ، الرَّضْيُ وَالْغَضْبُ، الْفَرَحُ وَالتَّرَحُ، التَّقْىٰ وَالْفَجُورُ،  
الصَّدْقُ وَالْكَذْبُ .. وَسُواهَا مِنْ عَانِصِرَاتِ الْوُجُودِ الَّتِي تَجْرِي عَلَى هَذَا السَّبِيلِ  
الْمُتَقَابِلِ وَالْمُتَبَاينِ .. وَأَنَّ كُلَّ أَمْرٍ فِي الْوُجُودِ لَهُ مَا يَوَافِقُهُ أَوْ يَخْالِفُهُ، أَوْ لَهُ آفَةٌ  
مِنْ جُنْسِهِ .. أَلَمْ يَقُلُ الشَّاعِرُ الْقَدِيمُ (١) .

ضيّانٌ لِمَا اسْجَمَعَاهُ حَسْنًا وَالصَّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الصَّدُّ  
أخيراً، فإنَّ الذي نراه أن يكون الطَّبَاق جزءاً من دراسة الصُّور الفنية  
أو من حديث (النَّظَم) كما قال الجرجاني والرازي، وأكرِّم بذلك من مقام .

三

(١) النصيحة اليتيمة ص ٣٠ . واستجمعوا أي : اجتمعا .

## مراقبة النظير

### المعنى البلاغي

عرفه علماء البلاغة بقولهم «أن يجمع الناظم أو الناشر أمراً وما يناسبه، مع إلغاء ذكر التضاد، لتخرج المطابقة».

إنَّ الجمع بين الكلمات المناسبة، أو المعاني المترابطة أو بين الكلمات والمعاني المتألفة أمراً أساسياً في كلٍّ كلام، سواء كان شعراً أم نثراً، سواء كان حديثاً في الأدب، أم في العلم، أم في الحديث العادي الذي يدور بين الإنسان والإنسان..

وحيث يخرج المرء عن هذه القاعدة، فيجمع بين فكرة وأخرى، لا ارتباط بينهما أو يقرن لفظة بلفظة لا علاقة بينهما، أو يتحدث بحديث لا تعرف أوله من آخره، أو غايته وهدفه، فإنما تقول عن هذا المرء: إنه يهذى، أو يخلط، أو يأتي بأمورٍ تافهة، ولا تستحق الاهتمام، ولا تستدعي الانتباه.. ثم تحكم على الرجل ذاته بضعف التركيز أو التعبير.

### النقد ومراقبة النظير

ومن هذا المنطلق، وقف كثير من الشعراء، ينتقدون أخصامهم، وينعونهم بعدم القدرة على الملاءمة بين الفاظهم ومعانيهم.. وكذلك وقف نقاد كثيرون موقف هؤلاء الشعراء، وراحوا يقُومون أشعار الشُّعراء بموازين.. من جملتها: قُدرة الشاعر على مراقبة النظير أو عدم قدرته.

أورد صاحب الأغاني أنَّ دافع تهاجي جَرِيرٍ وعُمر بن لَجَّا التَّمِيميَّ<sup>(١)</sup> أنَّ  
جَرِيراً سمع عمر يُنشد في أرجوزة له يصف إبله :

جلد

قد وَرَدَتْ قَبْلَ إِنِّي ضَحَائِهَا وَتَفَرَّسَ الْحَيَّاتِ فِي خِرْشَائِهَا  
جَرَّ العَجُوزُ الشَّيْءَ مِنْ رِدَائِهَا<sup>(٢)</sup>

فتعرَّض له جرير بقوله : كان أَوْلَى بك أن تقول : (جَرَّ العَرَوْس) لا جَرَّ العَجُوز  
التي تساقط خَوْرَاً وَضَعْفَاً . واستشاط عمر غضباً، فهجاه، واحتدم بينهما  
الهجاء . ومدار الأمر كله على انتخاب الكلمة الملائمة للسياق، وليس أكثر .  
وكان كثيراً ما يتعرض بعض السامعين للشعراء وهم ينشدون، فيُبَدِّلون بعض  
ملاحظاتهم البيانية والتعبيرية . من ذلك ما يقال : إنَّ ذَا الرُّمَةَ كان يُنشد بسوق  
الكناسة في الكوفة إحدى قصائده ، فلما انتهى منها إلى قوله :

إِذَا غَيَّرَ النَّائِيُّ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكُدْ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبَّ مَيَّةَ يَبْرَحُ<sup>(٣)</sup>  
صَاحَ بِهِ ابْنُ شُبْرَمَةَ : أَرَاهُ قَدْ بَرَحَ ، وَكَانَهُ لَمْ يَعْجِبَهُ التَّعْبِيرُ بِقَوْلِهِ «لَمْ يَكُدْ» .  
فَكَفَ ذُو الرُّمَةَ ناقته بزمامها وجعل يتأخر بها ويفكر، ثم عاد فأنشد :

إِذَا غَيَّرَ النَّائِيُّ الْمُحِبِّينَ لَمْ أَجِدْ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبَّ مَيَّةَ يَبْرَحُ<sup>(٤)</sup>

وفي الأغاني أنه اجتمع نصيَّب والكميَّت ذو الرُّمَة ، فأنشد الكميَّت  
قصيده (هل أنت عن طَلَبِ الْأَيْفَاعِ مُنْقَلِب) حتى إذا بلغ منها إلى قوله :  
أَمْ هَلْ ظَعَائِنُ بِالْعُلَيَاءِ نَافِعَةٌ وَإِنْ تَكَامِلَ فِيهَا الْأَنْسُ وَالشَّنْبُ<sup>(٥)</sup>  
عَقَدْ نُصِيبُ وَاحِدَة ، فقال له الكميَّت : ماذا تحصي؟ قال : خطأك ، باعدت في  
القول ، ما الْأَنْسُ مِنَ الشَّنْبِ؟ أَلَا قلتَ كما قال ذو الرُّمَة :

(١) الأغاني / ٨ / ٧٠ وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٣٦٢ .

(٢) إِنِّي : وقت ، من أني يأنني إذا حان وقته . وضَحَائِهَا : مرعاتها في الضُّحَى . وَتَفَرَّسَ :  
تحطم وتدق . والخُرْشَاء : جلد الحيات .

(٣) رسِيسُ الْهَوَى : ابتداؤه .

(٤) الأغاني ١١٨ / ١٦ (طِ السَّاسِي) والمُوشَح ١٧٩ نقاً عن البلاغة تطور وتاريخ ص ١٧ .

(٥) الشَّنْبُ : ماء ورقه وبرد وعدوته في الأسنان .

لِمَيْأٌ فِي شَفَتِهَا حُوَّةٌ لَعْسٌ وَفِي اللَّثَاثِ وَفِي أَسْنَاهَا شَبَّ<sup>(١)</sup>  
فَانْكَسَرَ الْكُمِيتُ<sup>(٢)</sup>.

كما يُروى أنَّ عُمرَ بْنَ لَجَّاً، وَهُوَ الَّذِي أَتَاهُمْ جَرِيرُ بَعْدِ مِرَاعَةِ النَّظَرِ  
فِي «جَرَّ الْعَجُوزَ وَجَرَّ الْعَرْوَسَ»، فَاحْرَأَ أَحَدَ الشَّعَرَاءِ، وَقَالَ لَهُ: أَنَا أَحْسَنُ  
مِنْكَ، فَقَالَ: وَمِمَّ ذَلِكَ؟ قَالَ عُمَرُ: لَأَنِّي أَقُولُ الْبَيْتَ وَأَخْاهُ، وَأَنْتَ تَقُولُ  
الْبَيْتَ وَابْنَ عَمِّهِ.

وَرُوِيَ كَذَلِكَ أَنَّ شَخْصًا قَالَ لِرُؤْبَةَ بْنَ الْعَجَاجَ: رَأَيْتُ الْيَوْمَ ابْنَكَ عُقَبَةَ  
يُنْشِدُ شِعْرًا لِهِ أَعْجَبَنِي، فَقَالَ رَؤْبَةُ، نَعَمْ إِنَّهُ يَقُولُ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِشِعْرِهِ  
قِرَآنٌ<sup>(٣)</sup>. يَرِيدُ أَنَّ أَبِيهِاتَهُ تَتَوَالَى مُتَبَاعِدَةً، كَأَنَّمَا لَا يَضْمُمُهَا سِيَاقٌ.

وَيُسْوِقُ صَاحِبُ الْأَغَانِيِّ كَثِيرًا مِنْ مَلَاحِظَاتِ ابْنِ أَبِي عَتِيقِ وَالسَّيِّدَةِ  
سُكِينَةِ بْنَ الْحَسِينِ عَلَى أَشْعَارِهِمْ<sup>(٤)</sup>.

وَكَانَ بَعْضُ الْخَلْفَاءِ بِدِمْشَقِ وَخَاصَّةً عَبْدُ الْمُلْكِ بْنَ مَرْوَانَ يَعْلَقُونَ عَلَى  
مَا يَسْمَعُونَهُ بِمَلَاحِظَاتِ طَرِيفَةٍ. مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ابْنَ قَيسَ الرُّفَيَّاتَ أَنْشَدَ عَبْدَ  
الْمُلْكَ قَصِيدَتَهُ الْبَائِيَّةَ فِيهِ، فَلَمَّا انتَهَى إِلَى قَوْلِهِ:

يَأْتِيَنَّكُمْ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ عَلَى جَبَنٍ كَأَنَّهُ الْذَّهَبُ  
غَضْبُ عَبْدِ الْمُلْكِ، وَقَالَ لَهُ: قَدْ قَلْتَ فِي مُصَبِّعِ بْنِ الزُّبَيرِ:  
إِنَّمَا مُصَبِّعُ شِهَابٍ مِنَ اللَّهِ... وَهُوَ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلَمَاءُ  
فَأَعْطَيْتَهُ الْمَدْحُ بِكَشْفِ الْعُمَمِ وَجَلَاءِ الظُّلُمَاءِ، وَأَعْطَيْتَنِي مِنَ الْمَدْحِ مَا لَا فَخَرَ فِيهِ،  
وَهُوَ اعْتَدَالُ التَّاجِ فَوْقَ جَبَنِي الَّذِي هُوَ كَالْذَّهَبِ فِي النَّضَارَةِ<sup>(٥)</sup>.  
وَأَنْشَدَ عَبْدُ الْمُلْكَ قَوْلَ نَصِيبِ<sup>(٦)</sup>:

(١) الْأَلْمَى: سُمْرَةٌ فِي الشَّفَةِ. وَالْحُوَّةُ: حُمْرَةٌ فِي الشَّفَتَيْنِ تَنْتَرِبُ إِلَى السَّوَادِ. وَاللَّعْسُ: سُوَادٌ  
مُسْتَحْبَطٌ فِي الشَّفَةِ.

(٢) الْأَغَانِيِّ ١ / ٣٤٨ (طَ- دَارُ الْكِتَبِ) وَالْمَوْشِحُ صَ ١٩٣.

(٣) الْبَيَانُ وَالْتَّبَيِّنُ ١ / ٢٠٥.

(٤) الْأَغَانِيِّ ١ / ١٠٠ وَ ١١٨ وَ ١٦٦ وَ ١٦١.

(٥) الصَّنَاعَيْنِ صَ ١١٤.

(٦) الْمَوْشِحُ ١٦٠ - ١٨٩، الصَّنَاعَيْنِ ١٢٩.

أهيمُ بدعِي ما حَيْتُ فَإِنْ أَمْتُ فوَاحِنَا مِمَّن يَهِيمُ بِهَا بعدي  
فقال بعضٌ من حضر: أساءَ القول.. أَيْحَزَنُ لمن يَهِيمُ بها بعده.. فقال عبد  
الملك: فلو كنْتَ قاتلًا ما كنْتَ تقول؟ فقال:

أهيمُ بدعِي ما حَيْتُ، فَإِنْ أَمْتُ فَلَا صَلَحتْ دَعْيَةً لذِي خَلَةِ بعدي  
وقصة طرفة بن العبد مع المُتَلَمِّس مشهورة<sup>(١)</sup>. فقد رُويَ أَنَّ المُتَلَمِّس  
قال:

وقد أَتَنَاسَى الْهَمُّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْرَيَّةُ مُكْدَمٌ<sup>(٢)</sup>  
وَالصَّيْرَيَّةُ: سِمَّةٌ لِلنُّوقِ فَجَعَلُوهَا لِلْجَمَلِ - .. وَسَمِعَهُ طَرَفَةُ يَنْشِدُهَا، فَقَالَ:  
إِسْتَنْوَقَ الْجَمَلُ، فَضَحِكَ النَّاسُ، وَسَارَتْ مَثَلًا.. فَقَالَ لِهِ الْمُتَلَمِّسُ: وَيْلٌ  
لِرَأْسِكَ مِنْ لِسانِكَ.. فَكَانَ قَتْلُهُ بِلِسَانِهِ.

ومن عدم التوفيق في إيراد المعاني مطابقةً لمقتضى الحال، مراعيةً  
للموقف والجُوّ العام قولُ عمر بن أبي ربيعة في إحدى مقطوعاته الغزلة :

قالت لها أختها ثعابتها لتسيدنَ الطوافَ في عمرِ  
قُومِيِّ، تصَدَّيْ لَهُ ليصِرَنَا ثُمَّ اغْمَزَهُ يا أختَ في خَفَرِ  
قالت لها: قد غَمَزَهُ فَأَبَيَ ثُمَّ اسْبَطَرَتْ تَسْعَى عَلَى أثْرِي<sup>(٣)</sup>  
لقد تَغَزَّلَ عمرٌ - على لسان فتياهـ - بنفسه، وعَهَدَنا بالرجل هو الذي  
يَتَغَزَّلُ، ويتحَدَّثُ ويعَبِّرُ.. أمَّا أَنَّ يَكُونُ العَكْسُ فَهُوَ عَلَى حَدِّ تَعبِيرِ طرفةِ  
(استنوق الجمل). كذلك من عدم التوفيق أن تأمر الأخت أختها بالخشوع في  
الطواف، ثم تتراجع فتأمرها بمطاردة عمر، أو التَّصَدِّي والتَّعَرُضُ له، مع  
الغمز والإشارة والإغراء... . ومثل هذا لا يليق بوصف فتاة عربية مسلمة  
طائفة في الكعبة، شريفة عَفَّة الإزار... . وأخيراً فإنَّ من عدم التوفيق جعل  
ساحة الغَزَل الشاذ، والمطاردة، والغمز في أقدس ساحة في الدنيا.. حول الكعبة  
المشرفة.

(١) الموسَّح ٧٦، ٧٨، ويرُوى أَنَّ الشَّاعِرَ الْمُسَيْبَ بْنَ عَلَيْسَ (كما في اللسان).

(٢) الصَّيْرَيَّةُ: سِمَّةٌ تَكُونُ فِي عَنْقِ الْبَعِيرِ. والمُكْدَمُ: المَعْسُورُ.

(٣) ديوانه ص ١٤٥ . اسْبَطَرَتْ: استرسلت.

ولقد أورد أبو هلال العسكري في الصناعتين مئات الشواهد، أخطأ أصحابها هدفهم فغلطوا في استعمال اللُّفْظ، أو إيراد المعنى.. وقد عنون الباب بقوله «في التَّنْبِيه على خطأ المعاني وصوابها ليتبع من يزيد العمل برسمنا موقع الصواب فيرسمها، ويقف على موقع الخطأ فيتجنبها»<sup>(١)</sup>.

ولو أردنا بيان ما جاء به البلاغيون من قواعد في هذا الموضوع لوجدناهم قد جعلوه في ثلاثة أقسام رئيسية:

الأول : في ائتلاف اللُّفْظ والمعنى.

الثاني : في ائتلاف اللُّفْظ واللُّفْظ

الثالث : في ائتلاف المعنى والمعنى .

أما ائتلاف اللُّفْظ والمعنى فهو أن تكون الألفاظ لائقة بالمعنى المقصود ومناسبة له ، فإذا كان المعنى فخماً كان اللُّفْظ الموضوع له جزاً ، وإذا كان المعنى رقيناً كان اللُّفْظ رقيتاً ، فيطابقه في كلّ أحواله ، وهما إذا خرجا على هذا المخرج ، وتلاعهما هذه الملاءمة ، وقعَا من البلاغة أحسن موقع ، وتألّفا على أحسن شكل ، وانتظمما في أوقق نظام . ومن أمثلة ذلك قول زهير:

أثافي سُفِعاً في مُعرَّسِ مِرْجَلِ وَتُؤْيَا كِجَذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَشَّلِ  
فَلَمَّا عَرَفَتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبِّهَا: أَلَا أَعْمَ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَّبُّ وَاسْلِمْ<sup>(٢)</sup>

فالبيت الأول ألفاظه غريبة ، غير مأنوسية ، ذلك لأنَّ الطَّللَ كان في عيني الشاعر أول الأمر غريباً ، لم يعرف عنه شيئاً لكنه حين عرفه ، وتبين فيه آثار أحبابه الخوالي ، أنسَ به ، وطابت نفسه فعبرَ عن ذلك بالألفاظ المأنوسية الرّقيقة .

ونستطيع أن نقيسَ على هذه القاعدة الآياتِ المكَيَّةُ ، وما فيها من ألفاظ

(١) الصناعتين - ٨٤ - ١٤٨ .

(٢) شرح شعر زهير، صنعة أبي العباس ثعلب ، تحقيق فخر الدين قباوة ص ١٨ . الأثافي: الحجارة تجعل عليها التِّدر ، ومفردها: أثافية . وسفعاً: السُّفَعَة سواد تخلطه حمرة . معرسِ مرجل : مكان الهرجل وهو القدر التي يطيخ فيها . والتَّوي: حاجز ترابي يجعل حول البيت . وجذم الحوض : حرفه وأصله . لم يتسلم: لم يتغير . أنيعم صباحاً: تحية وداع .

ضخمة ، جزلة ، مثيرة للفزع ، شديدة الوقع على الأذن ، كبيرة التأثير في النفس ، من مثل الصاححة ، والطامة ، والقارعة ، والحافة ، والعاشية ، وسواها ، وهي تناسب صور الهول وال العذاب الذي ينتظر الكفرا الذين يُعرضون عن آيات الله ، ويرفضون اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بالله الواحد الأحد . من مثل قوله تعالى : ﴿ الحَقَّةُ، مَا الْحَقَّةُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَقَّةُ، كَذَبَتْ ثُمُودٌ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ . فَأَمَّا ثُمُودٌ فَأَهْلَكُوا بِالْطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلَكُوا بِرِيعِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةً ﴾<sup>(١)</sup> أو قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَنَاَكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ . وَجُوْهُ يَوْمَئِذٍ خَاسِيَّةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِيَةٌ ، تَصْلِي نَارًا حَامِيَةٌ ، سُقْيَ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ . لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ . لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾<sup>(٢)</sup> .

أَمَّا حين تصور الآيات الكريمة الجنة ونعيمها ، وما يلقاه المؤمنون فيها ، فإنَّ الألفاظ تمثل إلى العذوبة والرقة ، والسياق فيها يجري رحيباً ناعماً .. كأنَّه السلسيل . مثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَسَيِّقَ الَّذِينَ اتَّقَوْ رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمْرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا ، وَفُتُحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنُهَا : سَلامٌ عَلَيْكُمْ ، طِبُّتُمْ ، فَادْخُلُوهَا حَالِدِينَ . وَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبُوا مِنَ الْجَنَّةِ حِيثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَفُضِّيَّ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَقَيلَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

ولو حللنا مثلاً واحداً تحليلًا أدبياً .. ولغوياً .. لوقفنا على روعة ..

(١) سورة الحاقة ، الآيات ١ - ٦ . الحاقة : اسم من أسماء يوم القيمة ، سميت بها لتحقُّق وقوعها . القارعة : اسم آخر من أسماء القيمة : سميت بذلك لأنَّها تشرع القلوب بأهوالها . الطاغية : هي الصيحة المدمرة التي جاوزت الحد في الشدة ، بها هلكت ثمود (وهم قوم صالح) . الريع الصرصر : العاصفة ذات الصوت الشديد . عاتية : متجاوزة الحد في الهبوب والبرودة .. كأنَّها عنت حتى لم يمكن ضبطها .

(٢) سورة العاشية ، الآيات ١ - ٧ . العاشية هي يوم القيمة ، تغشى الناس بأهوالها وشدائدتها . خاشعة : ذليلة خاضعة مهيبة . عاملة ناصبة : دائمة العمل فيما يتعبعها ويشقيها . تصلي : تدخل ناراً مسيرة شديدة الحر . آنية : متاهية الحرارة . ضريع : نبات كثير الشوك وهو أخت الشوك وفيه سم قاتل ، وتسميه قريش (الشبرق) .

(٣) سورة الزمر : الآيات ٧٣ - ٧٥ .

«مرااعة النَّظير» أو موافقة الكلام لمقتضى الحال . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾<sup>(١)</sup> .

تأمل ما في هذه الآيات من مُدود، ولسوف تجد : يا، ها، جعي، إلى، را، خلي، في، عبا، دي، خلي، جنتي .

ثم تأمل الشَّدَّات : أيتها، النفس، المطمئنة، ربك، ضيَّة، جنتي . وتأمل النونات وسوف تجد : النفس، المطمئنة، راضية، مرضية، جنتي .

وحركات الكسر: جعي، ربك، خلي، في ، دي ، خلي ، نتي .

بعد هذا التأمل والتدقيق .. تصوَّر أنَّ هناك ميتاً حبيباً إليك .. قد يكون أباً، أو أمّا ، أو أخاً، أو اختاً، أو ولداً، أو صديقاً، أو غالياً .. هو الآن مسجَّى في كفن ، محمولاً على الأعناق ، منقولاً إلى المقبرة ، وهناك قبر فَغَرْ فاه ، يتضرَّر ضيفه الجديد ، ليضمِّه حيناً من الزَّمن ، ثم يُسلِّمه إلى الأبدية الخالدة التي لا نهاية لها .

وتتصوَّر الدُّموع الصَّامتة تذرفها أنت ، ويدرُّفها أحباب آخرون ، مفجوعون كفجيتك .. على فقيد عاش بينهم أو معك حيناً من الزَّمن ، ثم فارق إلى سَفَر طويل ، لا عودة منه .

وتتصوَّر الصراع النفسي في قلوب أولئك الناس تجدهم مطمئنين إلى ما هو مقبل عليه من رحمة الله ونعمته ، كما تجدهم حزينين على وداع حبيبٍ وداعاً أبداً .. إِنَّهُمْ بَيْنَ خَوْفٍ وَرَجَاءٍ، بَيْنَ الْأَلمِ وَأَمْلَ، بَيْنَ حَزْنٍ وَاطمئنان .. لَكِنَّ الدَّمْعَةَ الْحَرَّى تَظْلِلُ تَسِيلَ مِنَ الْأَمَاقِ، وَتَظْلِلُ الزَّفَرَاتِ الْكَاوِيَةَ تَحْرُقُ الْجَوَانِحَ وَالْأَكْبَادَ .

في مثل هذه المواقف الأليمة من حياة الناس ، تجد المفجوع دائماً مطرقَ الرَّأْسِ ، باكيَا بعنف ، متأوِّهاً .. بل تسمع أنينه عاليَاً أو خافتاً ، وتلمس بيديك آلامه مرسومة على كل ذرة من كيانه .

---

(١) سورة الفجر، الآيات ٢٧ - ٣٠

والآن.. عد إلى الآية الكريمة السابقة، وأعد تلاوتها من جديد..  
وانظر كمية المدود، والثونات، والكسرات، والشدّات.. ولسوف تجدها  
طاغية.. ألا تُشعرك هذه الكسرات بانكسار عين المفجوع، وانكسار قلبه،  
وانكسار خاطره؟؟ ألا توحّي إليك هذه الثونات بالأنين؟؟ ألا تصوّر لك هذه  
المَدَات تلك الآهات؟ ثم ألا ترى أنَّ الآية الكريمة بجملتها صورةً وصوتٌ  
لهذا الموقف الحزين؟؟

أليس هذا موافقة الكلام لمقتضى الحال؟ بل أليس هذا مناسبة القول  
للوضع الراهن؟ ثم أليس هذا ما سعى إليه العلماء حين رسموا في خاطرهم  
المَثَل الأعلى لمراعاة النَّظير؟ هذه المراعاة التي تجاوزت المظاهر  
والكلمات وامتدَّت إلى عالم الرُّوح والنَّفس والجوانح والخلجات، لتصنَّع  
كُلَّاً متوافقاً متفقاً.. الظاهر مع الباطن، والدَّمْعَة مع الآهة، والأنين مع  
الرَّنين.

أما ائتلاف اللُّفْظ واللُّفْظ فهو أن تريـد معنى من المعاني تـصـح تـأـديـته  
بـالـفـاظـ كـثـيرـةـ، وـلـكـنـ تـخـتـارـ وـاحـدـاـ مـنـهـاـ لـمـاـ يـحـصـلـ فـيـهـ مـاـ بـعـدـهـ  
وـمـلـاءـمـتـهـ، وـمـثـالـهـ قـوـلـ الـبـحـتـرـيـ فـيـ وـصـفـ الـإـبـلـ بـالـهـزـالـ:

كـالـقـسـيـيـ الـمـعـطـفـاتـ بـلـ الـأـسـ..ـ هـمـ مـبـرـيـةـ، بـلـ الـأـوـتـارـ  
فـيـهـ إـنـمـاـ اـخـتـارـ وـصـفـهـاـ بـالـقـسـيـيـ مـعـ أـنـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ يـحـصـلـ بـتـشـيـهـهـاـ  
بـالـعـرـاجـيـنـ وـالـأـخـيـلـةـ وـالـأـطـنـابـ وـالـأـعـوـادـ وـغـيـرـ ذـلـكـ، لـكـنـهـ اـخـتـارـ الـقـسـيـيـ لـمـاـ أـرـادـ  
ذـكـرـ الـأـسـهـمـ وـالـأـوـتـارـ، فـيـحـصـلـ بـذـكـرـ الـقـسـيـيـ مـلـاءـمـةـ لـاـ تـحـصـلـ بـذـكـرـ غـيـرـهـ،  
فـلـهـذـاـ آـثـرـ، وـلـقـدـ أـحـسـنـ فـيـهـ لـمـاـ اـشـتـمـلـ عـلـيـهـ مـنـ حـسـنـ التـأـلـيفـ، وـجـوـدـةـ  
الـنـظـمـ، وـمـرـاعـةـ الـمـنـاسـبـةـ فـيـمـاـ ذـكـرـهـ.

وكذلك قول ابن رشيق :

أـصـحـ وـأـقـويـ مـاـ رـوـيـنـاهـ فـيـ النـدـيـ  
أـحـادـيـثـ تـرـوـيـهـاـ السـيـوـلـ عـنـ الـبـحـرـ عـنـ جـوـدـ الـامـيرـ ثـبـيمـ

فـلـاءـمـ بـيـنـ الصـحـةـ وـالـقـوـةـ، وـبـيـنـ الرـوـاـيـةـ وـالـخـبـرـ، لـأـنـهـ كـلـهـ مـتـقـارـبـةـ فـيـ  
الـفـاظـهـاـ، ثـمـ قـوـلـهـ (أـحـادـيـثـ) تـقـارـبـ (الـأـخـبـارـ) ثـمـ أـرـدـفـهـ بـقـوـلـهـ: السـيـوـلـ، ثـمـ

عَقَبَةُ بْلِحَيَا، لَأَنَّ السَّيُولَ مِنْهُ، ثُمَّ عَنِ الْبَحْرِ، لَأَنَّهُ يَقْرُبُ مِنِ السَّيْلِ، ثُمَّ تَابَعَ بَعْدَ ذَلِكَ بِقُولِهِ: عَنْ جُودِ الْأَمِيرِ تَمِيمٍ . . فَهَذِهِ الْأَمْوَارُ كُلُّهَا مُتَقَارِبةٌ، فَلَا جُلُّ هَذَا لَاءُمُ بَيْنُهَا فِي تَأْلِيفِ الْأَلْفاظِ، فَصَارَ الْكَلَامُ بِهَا مُؤْتَلِفٌ النَّسْجُ، مُحْكَمٌ السَّدَى .

«إِنَّ تَخْيِيرَ الْأَلْفاظِ، وَإِبْدَالُ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ يَوْجِبُ التِّبَانَ الْكَلَامَ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ نَعْوَتِهِ، وَأَزَيْنَ صَفَاتِهِ، فَإِنْ أَمْكَنَ مَعَ ذَلِكَ مَنْظُومًا مِنْ حُرُوفٍ سَهِلَةٍ الْمُخَارِجِ كَانَ أَحْسَنُ لَهُ، وَأَدْعُى لِلْقُلُوبِ إِلَيْهِ . . وَإِنْ أَنْفَقَ لَهُ أَنْ يَكُونَ مَوْقِعَهُ فِي الْإِطْبَابِ وَالْإِيجَازِ أَلْيَقَ بِمَوْقِعِهِ، وَأَحَقَّ بِالْمَقَامِ وَالْحَالِ كَانَ جَامِعًا لِلْحُسْنَ، بَارِعًا فِي الْفَضْلِ، وَإِنْ بَلَغَ مَعَ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ مَوَارِدُهُ تُبَشِّكُ عَنْ مَصَادِرِهِ، وَأَوْلَهُ يَكْشِفُ قَنَاعَ آخِرِهِ كَانَ قَدْ جَمَعَ نَهَايَةَ الْحُسْنِ، وَبَلَغَ أَعْلَى مَرَاتِبِ التَّعْمَامِ .

وَمَثَالُهُ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ:

أَشَارَتْ بِأَطْرَافِ الْبَنَانِ الْمُخْضَبِ وَضَنَّتْ بِمَا تَحْتَ النَّتَابِ الْمَكْتَبِ  
وَضَنَّتْ عَلَى تَفَاحَةِ بَيْبَنِهَا بَذِي أُشْرِ عَذْبِ الْمَذَاقَةِ أَشَبَّ  
وَأَوْمَتْ بِهَا نَحْوِي فَقَمَتْ مَبَادِرَاً إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: هَلْ سَمِعْتَ بِأَشَعْبِ<sup>(۱)</sup>

فَهَذَا أَجْوَدُ شِعْرِ سِبْكَاً، وَأَشَدُهُ الشِّتَانَامَاً، وَأَكْثَرُهُ طُلاوَةً وَمَاءً . . وَيَنْبَغِي أَنْ  
تَجْعَلَ كَلَامَكَ مُشْتَبِهًا أَوْلُهُ بَآخِرِهِ، وَمُطَابِقًا هَادِيهِ لِعَجْزِهِ، وَلَا تَخَالِفَ أَطْرَافَهِ،  
وَلَا تَتَنَافَرَ أَطْرَارُهُ<sup>(۲)</sup> وَتَكُونَ الْكَلِمَةُ مِنْ مَوْضِعَةٍ مُعَاصِتِهَا، وَمُقْرَوْنَةٍ بِلِفْقَهِهَا.  
فَإِنَّ تَنَافَرَ الْأَلْفاظِ مِنْ أَكْبَرِ عِيُوبِ الْكَلَامِ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَ ذَلِكَ حَشْوٌ يُسْتَغْنَى عَنْهِ  
وَيَبْتَمِمُ الْكَلَامَ دُونَهُ .

وَمَثَالُ ذَلِكَ قَوْلُ أَحَدِهِمْ :

فَمَا أَنَا دَارِي أَيُّهَا هَاجَ لِي كَرْبِي  
أَمِ النُّطُقُ فِي سَمْعِي، أَمِ الرَّيْقُ فِي فَعِي  
أَوْجَهُكِ فِي عَيْنِي،

وَفِي أَرْبَعِ مَنْيَ حَلَّتْ مِنْكِ أَرْبَعَ

(۱) بَذِي أُشْرِ: بِأَسْنَانِ مَحْرَزَةٍ مَحْدَدَةٍ الْأَطْرَافِ، وَهِيَ صَفَةُ جَمَالِ الْأَسْنَانِ . أَشَعْبُ: رَجُلٌ مَشْهُورٌ بِالْطَّمْعِ وَالْتَّطْفَلِ .

(۲) أَطْرَارَهُ: أَطْرَافَهُ .

فقد لاءِم الوجهَ مع العينِ ، والرّيقَ مع الفمِ ، والنُّطقَ مع السّمعِ ، والحبَّ مع القلب .. وذلك غايةٌ في مراعاةِ النّظيرِ.

وكذلك ما رَوَى أحدُهم قال : كنت أنا وجماعةً من أحداثِ بغدادِ مِمْنَ يتعاطى الأدبُ نختلفُ إلى مُدركِ نتعلّمُ منه علمَ الشّعرِ ، فقال لنا يوماً : إذا وضعتم الكلمةَ مع لفقيها كتم شعراً .. ثم قال : أجيزةً وهذا البيت :

\* لا إنما الدّنيا متاعُ عُرُورِ

فأجازَه كلّ واحدٍ من الجماعة بشيءٍ ، فلم يرضِه . فقلتُ :  
وإنْ عَطَمْتُ في أَنفُسِي وصُدُورِ

قال : هذا هو الجيد والمختار .

وفي حكاية أخرى أنَّ أحدَهم دفنَ رجلاً من أهله وقال :

\* نروح ونغدو كلَّ يوم وليلة

ثم قال لبعضِهم : أجزِر ، فقال :  
فحَتَّى متى هذا الرَّواحُ مع العُذُولَ

قال له : لم تصنع شيئاً . وقال آخر :

فيالكَ مَعْدَى مَرَّةٍ ورَواحاً

قال له : لم تصنع شيئاً .. ثم قال الآخر : أجزِر فقال :

وعِمَا قَلِيلٍ لَا نَرُوحُ وَلَا نَغْدُو

قال : الآن تمَّ البيت .

وعابوا على طرفة بن العبد حين قال :

ولستُ بِحَلَالٍ التَّسَلاعِ مَخَافَةً ولكنْ متى يَسْرُفُ الْقَوْمُ أُرْفِدُ  
بأنَّه لم يضع اللّفَقَ مع لفقيه ، فالمصراع الثاني غير مشاكل للمصراع  
الأول ، وإن كان المعنى صحيحاً ، لأنَّه أراد : ولستُ بِحَلَالٍ مَخَافَةً السُّؤَالِ ،  
ولكِي أَنْزِلَ الأمْكَنةَ المرتفعةَ ليتابِني القومُ فَأَرْفَدُهُمْ ، وهذا وجهُ الكلام ، فلم

يعبر عنه تعبيراً صحيحاً، ولكنَّه خلطه، وحذف منه حذفاً كثيراً، فصار كالمنتافر<sup>(١)</sup> .

أما ائتلاف المعنى والمعنى فهو أن يكون الكلام مشتملاً على أمرين، فيُقرن بكلِّ واحد منهما ما يلائمه من حيث كان لاقترانه به مزية غير خافية. ومثاله ما قاله المتibi في السيفيات :

تمرَ بكَ الأبطالُ كلامي هزيمةَ ووجهكَ وضاحَ، ونغرُكَ باسمُ وقفتَ وما في الموتِ شَكٌ لوايقِيْ كأنكَ في جهنَ الرَّدَى وَهُوَ نائمٌ

فإنَّ عَجُزَ كُلَّ واحدٍ من البيتينِ ملائمٌ لكلِّ واحدٍ من صدرِيهما، وصالح لأنَ يؤلَّفَ منه، لكنَّه اختار ما أورده في البيت لأمرَينِ، أما أولاً فلأنَ قوله : (كأنكَ في جهنَ الرَّدَى وَهُوَ نائمٌ) إنَّما سبق من أجل التمثيل للسلامة في موضع العَطَبِ، فجعلَه مقرراً للوقوف والبقاء في موضعِ ، يقطع على صاحبه بالموتِ ، أحسنُ من جعلِه مقرراً لثباتِه في حالِ هزيمةِ الأبطالِ .

واما ثانياً فلأنَ جعلَ قوله ( وجهكَ وضاحَ ونغرُكَ باسمُ ) تتمةً لقوله ( تمرَ بكَ الأبطال ) أحسن من جعله تتمةً لقوله ( وقفتَ وما في الموتِ شَكٌ لوايقِيْ ) لأنَ الإنسانَ في حالِ الهزيمة يلحظه من ضيقِ النفسِ وعبوسِ الوجهِ ما لا يخفى . فلهذا الصَّفَرَ كلِّ واحدٍ منهما بما يكون فيه ملاعنة وحسن انتظام من أجلِ المبالغة في المعاني . ويُحكي أنه لاماً أنشدَ سيفَ الدُّولَة هذه القصيدة نقمَ عليه هذينِ البيتينِ ، قال : هلاً جعلت عَجُزَ أحدهما عَجُزاً للآخر؟ فأجابه بما ذكرناه من بلاغةِ المعنى إذا كان على هذه الصفة ، فاستحسن سيف الدُّولَة ما قاله من ملاحظةِ المعاني التي هي مجازِيه في قصائده ، وأكرمه وزاد في عطيته .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿إِنَّ لَكَ أَلَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِي، وَأَنَّكَ لَا تظمِّنَ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾<sup>(٢)</sup> . فإنه لم يُراعِ ملامةَ الرِّيَ للشَّبَعِ ، ولا أراد مناسبة الاستظلال للضُّحَى ، وإنَّما أراد مناسبةً دخلَ من ذلك ، فقرنَ الجوع

(١) الصناعتين ١٦١ .

(٢) سورة طه ، الآيات ١١٨ و ١١٩ .

بالعُري ، لِمَا لِلإِنْسَانِ فِيهِ مَا مِنْ مُزِيدٍ الْمُشَقَّةُ وَعَظِيمُ الْأَلْمِ بِمَلَابِسِهِما ، وَأَرَادَ مناسِبَةُ الْاسْتَظْلَالِ لِلرَّيْيِ ، فَقَرَنَ بِهِمَا لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مَزِيَّةِ الْامْتِنَانِ وَإِكْمَالِهِ ، وَوَجَهَ آخَرٌ وَهُوَ أَنَّ الْجُوعَ يَلْحِقُ مِنْهُ الْأَلْمَ فِي بَاطِنِ الإِنْسَانِ ، وَتَلَهُبُّ مِنْهُ أَحْشَاؤُهُ ، وَالْعُرُورُ يَلْحِقُ مِنْهُ الْأَلْمَ فِي ظَاهِرِ جَسْدِ الإِنْسَانِ ، فَلَهُذَا جَمْعُ بَيْنِهِما ، لِمَا كَانَ أَحَدُهُمَا يَتَعَلَّقُ بِالظَّاهِرِ ، وَالْآخَرُ يَتَعَلَّقُ بِالبَاطِنِ . وَهَكُذا حَالُ الظَّهَارِ ، فَإِنَّهُ يَحْرُقُ كَبِدَ الإِنْسَانِ وَيُوقَدُ فِي قُوَادِهِ التَّارِ ، وَالضُّحُّى يَحْرُقُ جَسْدَهُ الظَّاهِرِ ، فَلِأَجْلِ هَذَا ضَمَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى مَا لَهُ بِهِ تَعْلُقٌ لِتَحْصُلِ الْمُنَاسِبَةِ .

### هل مراعاة النظير تحسين معنوي؟

وبعد، فإن مؤلفي البلاغة ، ابتداء من عصر السَّكاكِي إلى يومنا هذا جعلوا «مراعاة النَّظِير» فرعاً من فروع علم البديع ، وعدُوهُ أحد المحسنات المعنوية في الكلام .

ويتراءى لنا ، من خلال ما استعرضنا من شواهدَ شعريةً ونشريةً ، ومناقشات شعراء ، وآراء علماء ، ومن خلال آياتٍ قرآنيةٍ في موضوعات شئٍ .. أن «مراعاة النَّظِير» ليس نافلة أو زينة ، وإنما هو عنصرٌ أساسيٌ في مكونات «البلاغة» في أصل تعريفها ، وأنَّ له مساساً بالفصاحة في شروطها وعنابر تكوينها .. وأنَّ الكلام الذي يجنه عن هذا الصَّرَاطِ يُعَذَّ كلاماً سفاسفاً ، وهذراً لا علاقَة له ببيان أو بديع .

إنَّ (مراعاة النَّظِير) أساس في العمليَّة التَّعْبِيرِيَّةِ في كلِّ اجزاءِها .. بدءاً بالمفردات وانتهاءً إلى التَّعْبِيرِ والإِفْصَاحِ .. إنَّه أساس في كلِّ حديثٍ وخطابٍ ، ورسالةٍ وموضوعٍ .. وإنَّ النَّقاد حين جعلوا منه أحد عوامل التَّرجيح بين أديب وأديب ، وشاعر وشاعر ، كانوا على حقٍّ وهلبي .

ولماذا نذهب بعيداً ونسى أولئك النَّفر من الذين تمَرَّدوا على قوانين الفصاحة وأساليبِ البلاغة ، ورفضوا الإِصَاخَة إلى ما يوجبه حقًّا (مراعاة النَّظِير) عليهم فراحوا يجمعون المتناقضات بعضها إلى بعض ، ويأتون بكلمة من الشرق وأخرى من الغرب ، ويلمُون فكرة إلى غير نظيرها ، أورديفها ، أو نقِيسها ، شأنهم شأن حاطب اللَّيل يلمُّ خشبة وبعرة وأفعى وجهرة ، وهو يحسب أنَّه يجمع شيئاً متوافقاً ذا بال .. فلو قرأت لأحدِهم أيَّ شيء لم تجد

صفة متناسبة وموصوفها، ولا مضافاً منسجماً مع المضاف إليه، ولا مبتدأً متطابقاً وخبره، ولا فاعلاً متفقاً ومفعوله.. وإنما هي الفوضى والاستهانة بقوانين اللغة، وأصول استخدام المفردات وبناء التراكيب في حقيقتها ومجازها.

\* \* \*

لنُعد إلى عالم الجمال والعطر والأناقة وروعة التعبير ومراعاة النَّظير.. ولنقرأ قصيدة البحترى الذي راح يُعاتب حبيبه الهاجر.. ولسوف نشم العِطر في الأسلوب، بل سوف نجد الأبيات رغم تجاوزها للألف من السنين في العمر ما تزال نديّة طرية فيّاضة بماء الشباب:

قال البحترى<sup>(١)</sup>:

أيها العاتبُ الذي ليس يَرْضَى نَمْ هَنْيَا، فلستُ أطْعَمُ غَمْضاً  
إِنَّ لِي مِنْ هَوَاكَ وَجْدًا قد اسْتَهَى.. سَلَكَ نُومِي، وَمَضْجَعًا قد أَقْضَى  
فِجْفُونِي فِي عَبْرَةِ لِيسْ تَرَقا وَفَوَادِي فِي لَوْعَةِ مَا تَنْضَى  
يَا قَلِيلَ الْإِنْصَافِ كَمْ أَفْتَضَى عَنِّي.. ذَكَرَ وَعْدًا إِنْجَازُهُ لِيسْ يُقْضَى  
أَحْبَبْنِي بِالْوِصَالِ إِنْ كَانَ جُودًا وَأَثْبَتْنِي بِالْحُبِّ إِنْ كَانَ قَرْضاً

أَلَا ترى معي أنَّ القصيدة تَفِيضُ رقةً وعذوبةً، وأنَّ ألفاظها متوافقة،  
ومعانيها متراقبة، وكأنَّ هذا البناء قد أحكِمَ فلا يأتِيه خللٌ، أو يتسرَّبُ إليه  
فسادٌ، رغم مرور مئات السنين؟

وإذا كنت تقول إنَّ معظم شعر الحب الصادق يمتلىء بمثل هذه الإشراقات، وتميل النقوس إليه لأنَّه جزء من عمارة الكون، وهذه الأبيات قد أخذت من ذلك قسطاً كبيراً.. إذا قلتَ هذا فخذ الآن قصيدة ثانية، يتحدث فيها صاحبها عن الموت، وهو شيء يغيب إلى معظم الناس رغم معرفتهم أنَّه أمر لا بدَّ منه.. ولسوف تجد العَظمة والنَّشوة واللذة التي وجدتها في قصيدة الغزل، لأنَّ الشاعر لا يَمْعَأ بين ما يجب أن يتلاءمَ وينسجم.. إنَّها لمالك بن الرِّيب، وكان قد خرج مع سعيد بن عثمان بن عفان مجاهداً في أقصى

(١) ديوانه ٢/٦٨.

خراسان، وعندما كان في بعض الطريق لدغته أفعى، فلما أحس بالموت كان من قوله:

ألا ليت شعري ، هل أبىتن ليلة  
فليت الغضى ، لم يقطع الركب عرضه  
أقول لأصحابي : ارفوني ، فإنه  
فيما صاحبِي رجلي دنا الموت فانزلـا  
وخطـا بأطراف الأسنة مضجـعي  
ولا تحسـاني ، بارك الله فيكما  
تفقدـت من يـكـي علىـ فـلمـ أـجدـ  
يـقولـونـ لاـ بـعـدـ وـهـمـ يـدـفـونـيـ  
يـجـبـ الغـضـىـ ، أـزـجيـ التـلاـصـ النـواـجاـ

ولـيتـ الغـضـىـ ماـشـىـ الرـكـابـ ليـالـاـ  
يـقـرـرـ لـعـنـيـ آنـ سـهـلـ بـداـ ليـاـ  
برـايـةـ إـنـيـ مـقـيمـ ليـالـاـ  
وـرـدـاـ عـلـىـ عـيـنـيـ فـضـلـ رـدـائـاـ  
مـنـ الـأـرـضـ ذاتـ الـعـرـضـ آنـ تـوـسيـعـاـ ليـاـ  
سوـيـ السـيـفـ والـرـمحـ الرـدـيـنـيـ باـكـياـ  
يـقـولـونـ لاـ بـعـدـ وـهـمـ يـدـفـونـيـ  
وـأـيـ مـكـانـ الـبـعـدـ إـلـاـ مـكـانـيـ

وهذه قصيدة أخرى في مناجاة الطائر، نظمها أبو فراس وهو في الأسر:

أقول وقد ناحت بقربي حمامـةـ  
معاذـ الـهـوـيـ ، ماـ ذـقـتـ طـارـقـةـ النـوـيـ  
أياـ جـارـتـاـ ماـ أـنـصـفـ الدـهـرـ بـيـنـاـ  
تعـالـيـ أـفـاسـمـكـ الـهـمـومـ تـعـالـيـ  
ترـددـ فيـ جـسـمـ يـعـذـبـ بـالـ  
وـيـسـكـتـ مـحـزـونـ وـيـنـذـبـ سـالـ  
ولـكـنـ دـمـعـيـ فـيـ الحـوـادـثـ غالـ

رأـيـتـ كـيـفـ آنـ الشـاعـرـ الـأـسـيرـ لـمـ يـأـتـ إـلـاـ بـالـفـاظـ النـواـحـ ، والنـوـيـ ،  
والـهـمـومـ ، والـضـعـفـ ، والـعـذـابـ ، والأـسـرـ ، والـانـطـلـاقـ ، والـحزـنـ ، والـنـدـبـ ،  
والـدـمـعـ ، والـحـوـادـثـ .. وهي جـمـيـعاـ مـتـالـفـةـ مـنـسـجـمـةـ تـعـبـرـ عنـ الـحـزـنـ وـالـأـسـىـ  
الـذـيـ يـعـيـشـ الشـاعـرـ وـيـكتـويـ بـآـلـاهـ .

وأخـيراـ ، فـهـذـهـ أـبـيـاتـ مـنـ العـصـرـ الـحـدـيـثـ نـخـتـمـ بـهـاـ هـذـاـ الـبـحـثـ وـلـعـلـ فـيـهاـ  
خـيـرـ شـاهـدـ عـلـىـ آنـ (مـراـعـةـ النـظـيرـ) رـكـنـ فـيـ حـيـةـ النـاسـ ، وـلـيـسـ زـيـنةـ يـحـلـونـ  
بـهـاـ كـلـامـهـمـ .

القصيدة لـشـاعـرـ عـربـيـ مـنـ حـلـبـ الشـهـباءـ ، وـمـنـ أـسـرـةـ عـرـيقـةـ ، اـسـمـهـ عـمـرـ  
بـهـاءـ الدـيـنـ الـأـمـيـرـيـ مشـهـورـ فـيـ أـرـجـاءـ الـوـطـنـ الـعـرـبـيـ وـالـإـسـلـامـيـ بـشـعـرـهـ وـنـشـرـهـ  
وـمـوـاقـفـهـ إـسـلـامـيـةـ وـعـرـبـيـةـ .

المناسبة القصيدة تتلخص في أنَّ الشاعر كان يصطاف مع أسرته في أحد المصايف اللبنانيَّة (قُنایل) ولمَّا اقترب موعد افتتاح المدارس تركت الأُسرة المصيف وعادت إلى حلب، وبقي الشاعر بعدها أياماً وحده، ينظر إلى آثارهم، وتأنبَّى عليه نفسه أنَّ يمسحها أو يزيلها من مكانها، بل على العكس، إنَّه راح يتقرَّأها بيديه، ويمسح عليها بعينيه، ويضعها على قلبه، ويمزجها بدموعه الفيَّاضة، ولقد أوحى إليه ذلك كله بهذه الرائعة الحالدة:

أين الضَّجِيجُ العَذْبُ والشَّغْبُ      أين التَّدَارُسُ شَابَهُ اللَّعْبُ  
 أين الطَّفُولَةُ فِي تَوْقِيْدِهَا      أين الدُّمْسِيُّ فِي الْأَرْضِ وَالْكِتَبِ  
 أين التَّشَاكِسُ دُونَمَا غَرَضٌ      أين التَّشَاكِيُّ مَالِهُ سَبْبُ  
 أين التَّشَاكِيُّ وَالتَّضَاحِكُ فِي      وَقْتٍ مَعَا، وَالْحَزْنُ وَالْطَّرْبُ  
 أين التَّسَابِقُ فِي مَجاورَتِي      شَغْفًا، إِذَا أَكَلُوا، وَإِنْ شَرَبُوا  
 يَتَرَاحَمُونَ عَلَى مُجَالِسِي      وَالْقُرْبُ مَنِيَّ حِينَما اتَّقْلِبُوا  
 يَتَوَجَّهُونَ بِسَوْقِ فَطْرَتِهِم      نَحْوِي، إِذَا رَغَبُوا وَإِنْ رَهَبُوا  
 فَتَشِيدُهُمْ «بَابَا» إِذَا فَرَحُوا      وَوَعِيَّدُهُمْ «بَابَا» إِذَا غَضَبُوا  
 وَهَتَافُهُمْ «بَابَا» إِذَا ابْتَدَعُوا      وَنَجَّهُمْ «بَابَا» إِذَا اقْتَرَبُوا

\* \* \*

بالأمسِ كَانُوا مِلْءًا مِنْزَلَنَا  
 وَكَأَنَّمَا الصَّمَتُ الَّذِي هَبَطَ  
 إِغْفَاءً الْمَحْمُومُ، هَدَانُهَا  
 ذَهَبُوا، أَجْل ذَهَبُوا وَمَسْكُنُهُمْ  
 إِنِّي أَرَاهُمْ أَيْنَا الْفَتَتُ  
 وَأَجِسْ فِي خَلْدِي تَلَاعِبُهُمْ  
 وَبَرِيقٌ أَعْيُّهُمْ إِذَا ظَفَرُوا  
 فِي كُلِّ رَكْنٍ مِنْهُمْ أَتَرُ  
 فِي النَّافِذَاتِ، زَاجَهَا حَطَمُوا  
 فِي الْبَابِ، قَدْ كَسَرُوا مَزَالَجَهُ  
 فِي الصَّحْنِ، فِيهِ بَعْضٌ مَا أَكَلُوا  
 فِي الشَّطَرِ مِنْ تَفَاحَةٍ قَضَمُوا  
 إِنِّي أَرَاهُمْ حِيشَما اتَّجهَتْ

واليَوْمَ قد ضَمَّهُمْ حَلْبُ  
 لِمَا تَبَاكُوا عِنْدَمَا رَكِبُوا  
 مِنْ أَصْلَعِي قَلْبًا بِهِمْ يَجِبُ  
 فَإِذَا بِهِ كَالْغَيْثِ يَسْكُبُ  
 يَسْكُبُ يَسْكُبُ  
 قَدْ يَعْجَبُ الْعُذَالُ مِنْ رَجُلٍ  
 هَيَّاهَا، مَا كُلُّ الْبُكَاءِ خَوْرٌ  
 ذَلِكُ هوَ الْبَيَانُ الَّذِي تَحَدَّثُ عَنْهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ  
 قَالَ: إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا.

وَلَعَمْرِي إِنَّ بَعْضَ مَا رَفَعَ هَذِهِ الْفَصِيحةَ إِلَى مَسْتَوِيِّ الْأَدَبِ الْعَالَمِيِّ  
 الْإِنْسَانِيِّ مَحَافَظَةُ الشَّاعِرِ عَلَى قَوَانِينِ الْلُّغَةِ، وَأَسَاسِيَّاتِ الْبَيَانِ، وَكَانَ حَظَّ  
 الْذُوقِ وَالْعَاطِفَةِ الصَّادِقَةِ كَبِيرًا . . . بَلْ كَانَ الشَّاعِرُ نَاجِحًا حِينَ جَمَعَ النَّظِيرَ إِلَى  
 النَّظِيرِ، وَالشَّبَّيهَ إِلَى الشَّبَّيهِ، وَأَكْرَمَ بِذَلِكَ مِنْ سَبِيلٍ .

\* \* \*

## الإِرْصَاد

### المعنى اللغوي والبلاغي

الإِرْصاد في اللغة مصدر للفعل : أَرْصَدَ . تقول : أَرْصَدْتُ لَهُ وَأَرْصَدْتُهُ بمعنى : ترقبته أو أعددته ، ومنه : الرَّصَدُ وهم القوم الذين يَرْصُدون أو يَرْصَدون كالحرَس ، وتقول : أَرْصَدْتُ السَّلَاحَ لِلْحَرْبِ إذا أعددته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِيَالِرْصَادِ ﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى على لسان الجن ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْنَا يَجِدُ لَهُ شِهَابًا رَصَادًا ﴾<sup>(٢)</sup> .

والإِرْصاد في البلاغة هو أن يُجعل قبل العَجُز من الفَقرة أو الْبَيْتِ ما يدل على تمامه ، إذا عُرِفت القافية أو الوزن .

والشُّعُراءُ الفحول يفتخرون بما كان أَوَّلَ الْبَيْتَ دالاً على آخره ، وفي هذا يقول ابن ثُباته في وصف شعره :

خُذْهَا إِذَا أَنْشَيْتَ فِي الْقَوْمِ مِنْ طَرَبٍ  
يَنْسَى لَهَا الرَّاكِبُ الْعَجَلَانُ حَاجَتَهُ  
وَيُصِّبُّ الْحَاسِدُ الْعَضِيَانُ يُطْرِيْهَا  
وَكَانَ بَابِنَ ثُباتَه يَقْصِدُ الإِرْصادَ فِي بَيْتِهِ ، فَإِنَّهُ يَفْتَخِرُ بِأَبْيَاتِهِ الَّتِي مَا إِنْ

(١) سورة الفجر ، الآية ١٤ .

(٢) سورة الجن ، الآية ٩ .

يبدأ في إنشادها حتى يعرف السّامِع قوافيها، وما ستنتهي إليه. ولعمري إنَّ الإِرْصاد صفة مديح للقصائد التي يتوقع السّامِع قوافيها قبل أن يتلفظ بها شعراً لها.. والشاعر الحق هو الذي يُشرِك سامِعه في النَّظم معه حيث يجعله يُنشِد القافية قبل أن يصل إليها الشاعر.

ولعلَّ لامية البحتري شاهد واضح، على جمال الإِرْصاد، وروعته موقعه، وحسن اختياره.. بل كأنَّ الشاعر ليس البحتري وحده، وإنما معه كلَّ سامِع أو قارئ.. وتلك هي بعض أبيات القصيدة:

ذاك وادي الاراك فاحس قليلاً مُفصراً من صبابة أو مطيلاً  
وخلافُ الجميل قولك للذى... يرى عهد الأحباب: صبراً جمila  
لا تلمه على مواصلة الدَّم... مع، ولؤم لوم العليل الخليل  
علَّ ماء الدَّموع يُخْمِد ناراً من جَوَى الْحُبُّ أو يُلْغِي  
لم يكن يوماً طويلاً بِنَعْمَانَ، ولكنْ كان البُكاء طويلاً

\* \* \*

قد وجدنا محمد بن عليٍّ غاية المجد فائلاً وفُولاً  
خلف البهر للجياد والتقي في مدى المجد غرة وحجولاً  
بلغ المكرمات طولاً وعرضًا وتناثرت إليه عرضاً وطولاً  
وكأنَّ الأصول كانت فروعاً وكانت الفروع كانت أصولاً  
سلبوا البيض بزها وأقاموا بظها التأويل والتزيلاً  
وإذا حاربوا أذلوا عزيزاً وإذا سالموا أغزو ذليلاً

خذ ما شئت من أبيات هذه القصيدة، وابداً بتلاوة أوله، فإنك واحدٌ نفسك مسُوقاً بصورةٍ فطريةٍ وطبيعية إلى النهاية نفسها التي ختم بها الشاعر بيته.

### أسس الإِرْصاد

ولعلَّ ما يساعد كلَّ شاعر على هذه السلاسة والعقوية حسنُ استخدامه الطِّباق مرَّةً، والتردُّيد للألفاظ أخرى، والمقابلة حيناً ثالثاً، وردَّ العَجَز على الصدر حيناً آخر، إلى غير ذلك من وسائل الصنعة والمهارة الفنية التي يجب أن يتحلى بها الشاعر قبل أن يُقصد القصید، وينظم الشَّعر، ويصوغ البيان.

ويُخَلِّ إلينا أنَّ قدرة الإنسان على عرض موضوعه بصورة واضحة، وبأسلوب رشيق، وبأفكار مرتبة منظمة، بحيث تكون كلَّ فكرة منظومة إلى اختها كالعقد مهارةٌ فائقةٌ، وسبيلٌ من سُبُل نجاح ذلك الإنسان.

### الإِرْصاد ومراعاة النظير

ولعلنا لا نكون مخطئين لو قلنا: إنَّ الإِرْصاد جزءٌ صغيرٌ من الموضوع الذي سَمِّاه البلاغيون (مراعاة النَّظير) ذلك أنه في مراعاة النَّظير يقرن المتردَّث الكلمة بأختها، وال فكرة بما يلائهما، ويجعل الكلام متواافقاً جملةً وتفصيلاً، مبنياً ومعنىً . . وما الإِرْصاد إِلَّا توقع كلمة أو عبارة تدور في ذهن السَّامِع ، ويتمَّنِي أن ينتهي إليها المتكلِّم ، ثم تأتي هذه الكلمة مصداقاً لما فكر به السَّامِع ، ووفقاً لما تَوَقَّع . . أَوَلَيْسَ هَذَا وضعاً للنظير مع النَّظير، والشَّبيه مع الشَّبيه؟؟ .

### الإِرْصاد والفاصلة القرآنية

وتروي لنا الأخبار أنَّ زيد بن ثابت، رضي الله عنه، كان يكتب ما يُملِي عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأملي عليه الآيات التالية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عُلْقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعُلْقَةَ مُضْعَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْعَةَ عِظَاماً ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَشْتَأْنَاهُ خَلْقَآ آخَرَ ﴾<sup>(۱)</sup> ﴿ وَهُنَا نَهَضَ صَحَابِيَّ آخَرُ هُوَ مُعاذُ بْنُ جَبَلَ ، رضي الله عنه ، فَقَالَ : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ فَضَحِّكَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ مُعاذَ : مِمَّ ضَحَّكْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ : « بِهَا خُتِّمَتْ » وَفَعْلًا ، إِنَّ تَلْكَ الْآيَةَ خُتِّمَتْ بِقُولِهِ تَعَالَى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

إنَّ معاذ بن جَبَلَ ، رضي الله عنه ، عربِيٌّ صَمِيمٌ ، وذوَّقةٌ مرهَفَ ، ولقد أدركَ ما يجب أن تنتهيَ به الآيات ، فتوقعَها ، وصدقَ توقعَهُ ، وفعلاً ختمَت الآيات بما قالَ .

(۱) سورة المؤمنون الآيات ۱۲ - ۱۴ .

وتروي الأخبار - كذلك - أنَّ أعراباً سمع قارئاً يقرأ ﴿فَإِنْ زَلَّتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمُ الْبَيِّنَاتُ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . وكان الأعرابي جاهلاً، لا يعرف القرآن ، ولكنه عربيٌّ أصيل ، يُدرِكُ اللغة ، وما يجب أن تكون عليه أساليبها، كما يدرك ما ينبغي أن تكون عليه نهاية الكلام ، إذا سمع بدایته ، فقال : «إِنْ كَانَ هَذَا كَلَامُ اللَّهِ فَلَا، إِنَّ الْحَكِيمَ لَا يَذَكُرُ الْغَفَرَانَ عَنِ الْزَّلْلِ، لِأَنَّهُ إِغْرَاءٌ عَلَيْهِ». وعاد القارئ إلى القرآن لينظر أكان مصيماً أم مخططاً، فوجد نفسه على خطأ ، فالآية انتهت بقوله تعالى : ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

إنَّ الشواهدَ من الكتابِ الكريمِ كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فَاخْتَلَفُوا، وَلَوْلَا كَلْمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. فإذا قرَأَ سمع السَّامِعَ قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فَاخْتَلَفُوا﴾ ثم وقف على قوله : ﴿وَلَوْلَا كَلْمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ فِي أَنَّهُ يعْرِفُ لَا محالةَ لِمَا سبقَ مِنْ تصدِيرِ الآيةِ أَنَّ تَيَمَّمَتْها وَتَكَمَّلَتْها : «فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ لِمَا تَقَدَّمَ مَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ وَيَدْلِلُ عَلَيْهِ».

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَكُلُّا أَخْذَنَا بِذَنْبِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْذَنَاهُ الصَّيْحَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسْفَنَا بِهِ الْأَرْضَنَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقَنَا، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمُهُمْ﴾<sup>(٣)</sup> فإذا وقف السَّامِعُ على قوله «ولِكُنْ كَانُوا» عرف لَا محالةَ أَنَّ بعده ذِكر ظلمِ النُّفُوسِ ، لِمَا كَانَ فِي الْكَلَامِ الْأَوَّلِ مَا يَدْلِلُ عَلَيْهِ دَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ ، وَأَمَارَةٌ قَوِيَّةٌ ، وَالآيةُ الْكَرِيمَةُ تَنْتَهِي بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ومثله قوله تعالى ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾<sup>(٤)</sup> فإذا وقف السَّامِعُ على قوله «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ» تَحَقَّقَ لَا محالةَ أَنَّ ما بعده : قوله «إِلَّا الْإِحْسَانُ» لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمُلَائِمَةِ وَشَدَّةِ التَّنَاسُبِ .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٩.

(٢) سورة يونس ، الآية ١٩.

(٣) سورة العنكبوت ، الآية ٤٠.

(٤) سورة الرحمن ، الآية ٦٠.

ولقد فصلَ العلماء المؤلفون في البلاغة القرآنية، في هذا الموضوع تفصيلاً كبيراً، وتحذّوا عنه تحت عنوان «الفاصلة القرآنية».

### من شروط الإِرْصاد

وأخيراً، فإنه بقي أن نقول: إنَّ الإِرْصاد لا يكون توقعاً كاملاً في الشَّعر إِلَّا إذا عرف السَّامِعُ القافية والرَّوِيَّ ليستطيع في ضوئهما اختيار الكلمة المناسبة. مثال ذلك قول البحتري:

أحَلَّتْ دَمِيَّ منْ غَيْرِ جُرمٍ وَحَرَّمَتْ بلا سَبِّ يَوْمَ اللَّقَاءِ كلامِي  
فَلَيْسَ الَّذِي حَلَّتْهُ بِمُحَلَّ لِـ وَلَيْسَ الَّذِي حَرَّمَهُ بِحَرَامٍ  
إِنَّ السَّامِعَ بَعْدَ أَنْ عَرَفَ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ، وَصَدَرَ الْبَيْتُ الثَّانِي أَدْرَكَ أَنَّ  
عَجُزَهُ يُجَبُ أَنْ يَتَهَيَّءَ بِكَلْمَةِ (بِحَرَامٍ) وَلَيْسَ بِكَلْمَةِ (بِمُحَلَّ) الَّتِي تَنَاسَبُ فِي  
الظَّاهِرِ كَلْمَةَ (بِمُحَلَّ)... لَكِنَّ قَافِيَّةَ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ سَاقَتْ إِلَى تَوْقِعِ كَلْمَةِ  
(بِحَرَامٍ) دُونَ سَوَاهَا. وَهَذَا مَعْنَى تَعْرِيفِ الْبَلَاغِيِّينَ لِلْإِرْصادِ: «أَنْ يُجَعَّلَ قَبْلَ  
الْعَجُزِ مِنَ الْفِقْرَةِ أَوَ الْبَيْتِ مَا يَدْلِلُ عَلَى تَمامِهِ إِذَا عُرِفَتِ الْقَافِيَّةُ أَوَ الرَّوِيَّةُ».

\* \* \*

## التورية

### المعنى اللغوي

التَّوْرِيَةُ مصدر لفعل «وَرَى». وتقول المعاجم: وَرَى الحديث إذا أخفته وأظهرت غيره. قال أبو عبيدة: لا أراه إلا مأخوذاً من وراء الإنسان، فإذا قال: «وَرَيْتُه» فكأنَّه جعله وراءه بحيث لا يظهر<sup>(١)</sup>.

وفي الاصطلاح: أن يذكر لفظه معينان، أحدهما قريب ودلالة اللُّفْظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد، ودلالة اللُّفْظ عليه خفية، فيقصد المتكلِّم المعنى بعيد، ويورِي عنه بالقريب فيتوقَّم السَّامِع أَنَّه يريد القريب من أول وهلة.

### سميات «التورية»

لهذا اللُّون من التَّعبير سمَّيات كثيرة في كتب البلاغة، أشهرها على الإطلاق «التَّوْرِيَةُ». ومن هذه التَّسميات الإِبَهَامُ<sup>(٢)</sup> (بالياء المُوحَّدة) أو الإِبَهَامُ<sup>(٣)</sup> (بالياء المُشَنَّأة)، والتَّخيِيلُ<sup>(٤)</sup>، والمُغَالَطَةُ<sup>(٥)</sup>، والتَّوجِيهُ<sup>(٦)</sup>، وبعض

(١) انظر (ورَى) في معجمي الصحاح وسان العرب.

(٢) حدائق السحر للوطواط ص ٣٥، مفتاح العلوم للسكاكيني ص ٤٢٧، نهاية الإيجاز للرازي ص ١٩١، عقود الجمان للسيوطى ٩٤/٢.

(٣) نوار الرابع ٥/٥.

(٤) الطراز ٦٣/٣، المثل السائر نقلًا عن عقود الجمان ٩٤/٢.

(٥) التجbir نقلًا عن عقود الجمان ٩٤/٢.

المؤلفين جعل الإلغاز والأحجية فرعاً منه<sup>(١)</sup>.

شواهد من قصص التورية

ونضرب مثلاً على التّورية ما ورد في السّيرة النّبويّة حيث رُويَ أنَّ رسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان سائراً بأصحابه يريد بَدْرَا، وكان يحرس على ألاً يشيع خبر سيره، ولا مكانه، خشية أن تعلم قريش بذلك، فتستعد للحرب، أو خشية أن يعلم أبو سفيان وهو قائد الحملة التجاربة القادمة من الشّام إلى مكّة بالخبر، فيهرب إلى غير طريق .. فلقاهم أعرابيٌّ فسأل: مِمَّن القوم؟ فأجاب صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُورِيَاً وصادقاً: نحن من ماء. فأخذ الرجل يفكّر ويقول: من ماء، من ماء .. . ويردّ الكلمة ليتذكّر أي قبائل العرب يقال له: ماء. وكان النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يقول: إنا مخلوقون من ماء، أخذنا من الآية القرآنية الكريمة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

وفي خبر ثانٍ من السّيرة العطّرة أنَّ رجلاً لقي النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبا بكر الصّديق رضي الله عنه وهما في طريقهما مهاجرين من مكّة إلى المدينة، وعرف الرجل أبا بكر ولم يعرف رسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فسأل أبا بكر: من هذا؟ فأجاب الصّديق مورِيَاً وصادقاً: «هَادِ يَهْدِنِي السَّبِيلُ». وفهم الرجل أنَّ هذا دليلاً على أنَّ أبا بكر في الصّحراء على قصده المنشود، بينما قصد الصّديق رضي الله عنه بكلمة (هاد) الذي يهديني إلى النور والإيمان ويدلّني على السَّبِيل القويم في العقيدة والسلوك.

ويروي الوطواط في كتابه «حدائق السّحر»<sup>(٣)</sup> حكاية عن أبي علي بن سينا أنه جلس يوماً في السوق، فاجتاز به قرويٌّ، يحمل على كتفه حملاً ليبيعه، فسأله أبو عليٌّ: بكم هذا الحَمْل .. ؟ فقال القرويٌّ: بدينار. فقال أبو عليٌّ: اترك الحَمْل هنا وأحضر بعد قليل لأعطيك ثمنه. وكاد القروي يُنزل الحَمْل عن كتفه، ولكنَّه علم أنَّه يحادث أبي عليَّ بن سينا، فالتفت إليه وقال:

(١) الطراز ٦٥ / ٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

(٣) ص ١٣٦.

«إنك حكيم عالِم ، فلِمْ جَهَلْتَ أَنَّ الْحَمْلَ دَائِمًا في مُقَابِلِ الْمِيزَانِ ، وَمَا دَمْتَ لَمْ تَزِنْ الْحَمْلَ فَلَنْ تَأْخُذَهُ إِلَيْ بَيْتِكِ ..» وَتَعْجَبْ أَبُو عَلِيٍّ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ، وَضَاعَفَ لِلْقَرْوَى ثَمَنَ حَمْلِهِ .

وَيَعْلَقُ الْوَطَوَاطُ عَلَى الْحَكَايَةِ قَائِلًا : « .. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى لَطْفِ هَذَا الْكَلَامِ وَجَدْنَا أَنَّ خَاطِرَ السَّامِعِ يَنْصُرِفُ إِلَى الْحَمْلِ الَّذِي هُوَ مِنْ صَغَارِ الضَّأنِ ، وَإِلَى الْمِيزَانِ الَّذِي يَزِنُونَ بِهِ الْذَّهَبَ وَالْفَضَّةَ بَيْنَمَا قَصْدُ الْقَرْوَى بِكَلَامِهِ بُرجُ الْحَمْلِ وَبُرجُ الْمِيزَانِ الَّذِينَ يَتَقَابَلُانِ دَائِمًا<sup>(١)</sup> . فَقَالَ فِي ذَلِكَ نَادِرَةٌ مُنْسَبَةٌ لِعِلْمِ الْحُكْمَاءِ تَلِيقٌ بِأَبِي عَلِيٍّ .»

### تَارِيخُ التَّوْرِيَةِ وَأَعْلَامُهَا

وَيَتَفَقَّدُ ابْنُ حَجَّةَ الْحَمْوَى وَصَلَاحُ الدِّينِ الصَّفْدِيُّ عَلَى أَنَّ الْمُتَأْخِرِينَ هُمُ الَّذِينَ سَمَوُا إِلَى أَفْقِ التَّوْرِيَةِ ، وَأَطْلَعُوا شَمُوسَهَا ، وَمَازَجُوا بَهَا أَهْلَ الذُّوقِ السَّلِيمِ لِمَا أَدَارُوا كَوْسُهَا ، وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْقَاضِيَ الفَاضِلُ هُوَ الَّذِي عَصَرَ سُلَاقَةَ التَّوْرِيَةِ لِأَهْلِ عَصْرِهِ ، وَتَبَعَهُ الْقَاضِيُ السَّعِيدُ ابْنُ سَنَاءِ الْمُلْكِ ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدِهِمَا شُعْرَاءُ كُثُرٍ حَفَلُوا بَهَا .. وَمِنْهُمْ : سَرَاجُ الدِّينِ الْوَرَاقِ ، وَأَبُو الْحَسِينِ الْجَزَّارِ ، وَالْمُصَيْرِ الْحَمَامِيِّ ، وَنَاصِرُ الدِّينِ حَسَنُ بْنُ التَّقِيبِ ، وَالْحَكِيمُ شَمْسُ الدِّينِ بْنُ دَانِيَالِ ، وَالْقَاضِيُّ مُحَمَّدُ الدِّينِ بْنُ عَبْدِ الظَّاهِرِ ، وَشَرْفُ الدِّينِ الْأَنْصَارِيِّ ، وَالْأَمْيَرُ مُجَرِّدُ الدِّينِ بْنُ تَمِيمٍ ، وَبَدْرُ الدِّينِ الْذَّهَبِيِّ ، وَمُحَمَّدُ الدِّينِ الْحَمَوَى ، وَالشَّابُ الظَّرِيفُ ، وَسَيفُ الدِّينِ بْنِ الْمَشَدِّ ، وَغَيْرُهُمْ .

الْطَّرِيفُ فِي كِتَابِ الْبَلَاغَةِ أَنَّكَ تَجِدُ الْجَرْجَانِيَّ وَالرَّازِيَّ وَالسَّكَاكِيَّ وَالْقَزوِينِيَّ لَمْ يَحْفَلُوا بِالتَّوْرِيَةِ ، عَلَى اختِلَافِ مُسَمَّيَاتِهَا عِنْدَهُمْ ، وَلَمْ يَعْطُوهَا مِنْ كَلَامِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ سُطُورٍ مُعَدُّودَاتٍ ، وَتَجَدُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ مُؤَلَّفِينَ آخَرِينَ جَعَلُوهَا فِي قِمَّةِ اهْتِمَامِهِمْ ، وَأَفْرَدُوا لَهَا الصَّفَحَاتِ الْكَثِيرَةِ فِي مُؤَلَّفَاتِهِمْ . فَابْنُ حَجَّةَ الْحَمْوَى خَصَّصَ لَهَا فِي كِتَابِهِ «خَزَانَةُ الْأَدَبِ» مَائَةً وَسَبْعَ عَشْرَةَ صَفَحَةً

(١) فِي حِسَابِ الْأَبْرَاجِ يَبْدَا بُرجُ الْمِيزَانِ فِي ٢٢ أَيُّولُو (سَبْتَمْبَر) أَيْ أَوْلَى فَصْلِ الْحَرِيفِ ، وَيَبْدَا بُرجُ الْحَمْلِ فِي ٢٢ آذَارِ (مَارْس) فِي أَوْلَى فَصْلِ الرَّبِيعِ .. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ « .. يَتَقَابَلُانِ دَائِمًا» .

من أصل أربعين سورة هي مجلد صفحات كتابه ، أي بما يعادل ربع الكتاب ، وأورد لها من الشواهد ما يزيد على المئات ، ثم أفرد لها مؤلفاً خاصاً أسماه «**كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام**<sup>(١)</sup>». وكذلك فعل ابن معصوم في كتابه «**أنوار الربيع**» إذ أفرد لها مائة وثلاث عشرة صفحة من الجزء الخامس (في الطبعة المحققة) ، وأورد مئات الشواهد ، وإن كان معظمها متسولاً من خزانة الأدب لابن حجة . أمّا صلاح الدين الصفدي فقد ألف كتاباً عنوانه «**فض الخاتم عن التورية والاستخدام**<sup>(٢)</sup>» ، كما ألف عبد الغني النابلسي كتاباً في الموضوع ذاته سماه «**نفحات الأزهار**<sup>(٣)</sup>».

ويبدو أنّ الاقتباس أو (السرقة) في التورية كان قوياً وشائعاً ، فما إن يبتكر أحد الشعراء تورية حتى يتطلّل عليه شاعر آخر فيسرقها ، ويصوغها بقالب جديد ، ثم يأتي ثالث فيأخذ من الثاني وهكذا .. فلقد تطلّل ابن نباتة على توريات المظفر الكيندي الوداعي ، وجاء صلاح الدين الصفدي فتطلّل على معاني ابن نباتة ، وقد أبان ابن نباتة سرقاتِ الصفدي بمُؤلَّف دعاه «**خبر الشاعر**<sup>(٤)</sup>».

ووقف مؤلف «**الطراز**» من التورية موقفاً مناهضاً ، فذكر أنه ليس يتعلّق بها كبير بلاغة ، ولا عظيم فصاحة ، ولكنها غير خالية من تفّنن في الكلام واتساع فيه ، وتدلّ على تصرُّف بالغ ، وقوّة على تصريف الألفاظ واقتدار على المعاني . ثم قسمها إلى قسمين ، وسمى الأول المغالطة المعنوية ، والثاني الألغاز أو الأحجية ، ونبي أن يكون في القرآن شيء من القسم الثاني ؛ لأنّ معرفة معانيه مقرّرة على ما يكون صريحاً لا يحتمل سواه من المعاني أو ظاهراً يحتمل غيره ، أو مُجملًا يفتقر إلى بيان ، فاما ما يُعلم بالجزر والحدس فلا وجہ له في القرآن<sup>(٥)</sup> .

(١) طبع في بيروت سنة ١٣١٢ هـ.

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية (نـ خ ١٢٦).

(٣) طبع في بولاق سنة ١٢١٩ هـ وفي مطبعة نهج الصواب بدمشق سنة ١٢٩٩ هـ.

(٤) انظر ابن حجة الحموي في خزانة الأدب ص ٣٣٨.

(٥) الطراز ٩ / ٣.

## أقسام التورية

في خزانة ابن حجة وأنوار الربيع ومطول التفازاني وبعض المؤلفات البلاغية المعاصرة تقسيم للتورية فيه شيء من العقاده والتكرار، بل إنك لتجد الأمثلة ذاتها في جميع تلك المؤلفات والأقسام التي قررها هؤلاء المؤلفون وهي أقسام أربعة.

١ - التورية المجردة: وهي التي تتجزأ عما يلائم كلاً من المورى به، والمورى عنه.

٢ - التورية المرشحة: وهي التي تتضمن ما يلائم المورى به، إما قبل التورية أو بعدها.

٣ - التورية المبينة: وهي التي تتضمن ما يلائم المورى عنه، إما قبل التورية أو بعدها.

٤ - التورية المُهَيَّأة: وهي التي تفتقر إلى ذكر شيء يهينها لاحتمال المعنى إما قبلها، أو بعدها، وإلا لم تتهيأ التورية، أو تكون بلفظين أو أكثر لولا كلّ منهما لم تتهيأ التورية في الآخر.

ومن تتبع الشواهد التي أوردتها مؤلفو البلاغة وجذنا المجردة والمرشحة أكثر شيوعاً، وأقرب طبعاً، وأحلى صياغة من النوعين الآخرين المبينة والمُهَيَّأة.. زُد على هذا أنّ هؤلاء المؤلفين أوردوا لهذين الآخرين أمثلة محدودة، ولم يستطع مؤلف من المتأخررين أو المعاصرین الخروج عن أقوالهم أو شواهدهم قيداً ألملاً، بل إنهم أوردوا كلامهم بالنص والحرف، ولم يتتجاوزوه إلى الشرح أو التأكيد أو التقنيـد، ولذلك فإنـا سنتـصـرـ على الشـواـهدـ الأـدـيـبـيـةـ الرـفـيـعـةـ الـتـيـ تـفـوحـ بـالـطـبـعـ،ـ وـتـلـوـحـ عـلـيـهـ أـمـارـاتـ الصـحـةـ وـالـعـافـيـةـ،ـ أـوـ تـظـهـرـ فـيـهـ الـطـرـفـةـ الـأـدـيـبـيـةـ الـمـفـرـحةـ،ـ دـوـنـ الـإـفـرـاطـ فـيـ بـيـانـ نـوـعـهـ،ـ وـلـاـ سـيـماـ إـنـ كـانـتـ مـنـ الـمـبـيـنـةـ أـوـ الـمـهـيـأـةـ،ـ مـاـ اـسـتـطـعـنـاـ إـلـىـ ذـلـكـ سـبـيلـاـ..

قال برهان الدين القيراطي<sup>(١)</sup>:

(١) خزانة الأدب ص ٢٦٦.

وَتَبَاهَتْ ذَاتُ الْجَنَاحِ بِسُحْرَةِ  
وَرِقَاءِ قَدْ أَخْذَتْ فَنُونَ الْحُزْنِ عَنِ  
قَامَتْ تُطَارِحُنِي الْغَرَامَ جَهَالَةً  
أَئْتَى تُبَارِينِي جَوَى وَصَبَابَةً  
وَأَنَا الَّذِي أُمْلِي الْجَوَى مِنْ خَاطِرِي  
بِالسَّوَادِينِ فَنَبَهَتْ أَشْوَاقِي  
يَعْقُوبَ وَالْأَلْحَانَ عَنِ إِسْحَاقِ (١)  
مِنْ دُونِ صَحْبِي بِالْجَمْعِ وَرَفَاقِي  
وَكَابَةً وَأَسَّى وَفِيضَ مَاتِي  
وَهِيَ التِّي تُمْلِي مِنَ الْأُورَاقِ

إِنَّ كَلْمَةَ (الْأُورَاقِ) لَهَا مَعْنَى: أَحَدُهُمَا ذَاكُ الَّذِي نَكْتَبُ عَلَيْهِ وَنَقْرَأُ  
فِيهِ، وَمَفْرِدُهَا (الْوَرْقَةُ)، وَهُوَ الْمَعْنَى الْقَرِيبُ الَّذِي يَتَبَادرُ إِلَى الْذَّهَنِ بِسَبَبِ  
الْتَّمَهِيدِ لَهُ بِكَلْمَةِ (أُمْلِي أَوْ تُمْلِي). وَثَانِيَهُمَا هُوَ أُورَاقُ الشَّجَرِ، وَهُوَ الْمَعْنَى  
بَعِيدٌ. وَقَدْ أَرَادَهُ الشَّاعِرُ وَلَكِنَّهُ تَلَطَّفَ فَوْرًا عَنْهُ، وَسْتَرَهُ بِالْمَعْنَى الْقَرِيبِ.

وَقَالَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ (٢):

بِاللَّهِ قُلْ لِلنَّلِ عَنِي إِنِّي  
لَمْ أَشْفِ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ غَلِيلًا  
وَسَلَّمَ الْفَوَادَ فَإِنَّهُ لِي شَاهِدٌ  
إِنْ كَانَ طَرْفِي بِالْبَكَاءِ بِخِيلًا  
يَا قَلْبُ كُمْ خَلَفْتَ ثُمَّ بُشِّيَّةً  
وَأَظْنَنْتُ صَبَرَكَ أَنْ يَكُونَ جَمِيلًا

كَلْمَةُ (جَمِيلًا) فِي الْبَيْتِ الْآخِيرِ لَهَا مَعْنَى. أَحَدُهُمَا هُوَ جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرِ  
الْعَذْرَىيِّ الشَّاعِرِ الْأَمْوَى الَّذِي شَهِرَ بِحَبْبَهِ لِبَشِّيَّةَ، وَهُوَ الْمَعْنَى الْقَرِيبُ الَّذِي  
يَتَبَادرُ إِلَى الْذَّهَنِ، وَقَدْ مَهَدَهُ لَهُ الشَّاعِرُ بِاسْمِ الْحَبِيبَةِ (بَشِّيَّة). وَثَانِيَهُمَا هُوَ  
(الصَّبَرُ الْجَمِيلُ) الَّذِي حَكَاهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى لِسَانِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبَرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصْفُونَ﴾ (٣). وَهُوَ الْمَعْنَى  
الْبَعِيدُ الَّذِي أَرَادَهُ الشَّاعِرُ، وَلَكِنَّهُ تَلَطَّفَ فَوْرًا عَنْهُ، وَسْتَرَهُ بِالْمَعْنَى الْقَرِيبِ.

وَقَالَ سَرَاجُ الدِّينِ الْوَرَاقَ (٤):

أَصْوَنُ أَدِيمَ وَجْهِي عَنْ أَنَاسٍ لِقَاءُ الْمَوْتِ عِنْدَهُمُ الْأَدِيبُ  
وَرَبُّ الشِّعْرِ عِنْدَهُمْ بَغِيْضٌ وَلَوْ وَافَى بِهِ لَهُمْ حَبِّيْبٌ

(١) يَعْقُوبُ: نَبِيُّ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ وَالَّدُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَصْصَتُهُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ.  
إِسْحَاقُ: هُوَ الْمَغْفِيُّ إِسْحَاقُ الْمَوْصَلِيُّ الْعَبَاسِيُّ.

(٢) خَرَازَةُ الْأَدِيبِ صِرْ ٢٤٣.

(٣) سُورَةُ يُوسُفَ، الْآيَةُ ١٨.

(٤) الْخَرَازَةُ صِرْ ٢٤٦.

كلمة (حبيب) لها معنيان : أحدهما المحبوب ، وهو المعنى القريب الذي يتadar إلى الذهن بسبب التمهيد له بكلمة (بغض) والثاني اسم أبي تمام وهو حبيب بن أوس ، وهذا المعنى بعيد ، وقد أراده الشاعر ، ولكنه تلطف فوراً عنه ، وستره بالمعنى القريب .

وقال أيضاً متغلاً<sup>(١)</sup> :

وَبِي مِن الْبَدْوِ كَحْلَاءُ الْجَفُونَ بَدَتْ  
بَنَتْ عَلَيْهَا الْمَعَالِي مِنْ ذَوَائِبِهَا  
وَأَوْقَدَتْ وَجْتَاهَا النَّارَ لَا لِقَوْيِ  
فَلَوْ بَدَتْ لِجَسَانِ الْحُضْرِ فَمَنْ لَهَا  
فِي قَوْمِهَا كَمَهَاءَ بَنْ آسَادِ

بيتاً من الشَّعْر لم يُمَدَّ بأوتادِ  
لِكِنْ لَأْفَدَةَ مَنَا وَأَكَابِدِ  
عَلَى الرَّؤُوسِ وَقُنْنَ الفَضْلُ لِلْبَادِي

كلمة (البادي) لها معنيان : أحدهما اسم فاعل للفعل (بدا بمعنى ظهر ، وهو المعنى الذي يتadar إلى الذهن بسبب التمهيد له بكلمة (فلو بدلت) ، والثاني هو (الساكن في البادية) وهذا المعنى بعيد ، وقد أراده الشاعر ، بدلالة البيت الأول حيث قال : (وبي من البدو) ، ولكنه تلطف فوراً عنه ، وستره بالمعنى القريب .

وقال أبو نواس في محبوبته جنان<sup>(٢)</sup> :

مَا هُوَ إِلَّا سَبَبُ يَتَدَدِّيِّ مِنْهُ وَيَنْتَعِبُ أَخْرَى  
فَتَسْتَ قَلْبِي مُحَجَّبٌ وَجْهَهَا بِالْحُسْنِ مُنْتَقِبٌ  
خَلَيْتُ وَالْحُسْنُ تَأْخُذُهُ تَتَقْبِي مِنْهُ وَتَتَنْتَخِبُ  
صَارَ جِدًا مَا مَرَحْتُ بِهِ رَبُّ جِدًا جَرَّهُ اللَّعْبُ

كلمة (منتقب) من النقاب ، وهو الخمار ، وهو المعنى القريب المورى به ، بدلالة الكلمة (محجّبة) قبله ، وهي تلائم (المنتقب) ، وقد تكون الكلمة مشتقة من الثقبة ، (وزان نكتة) ، وهي اللون والوجه ، ومنه سمى نقاب المرأة ، لأنّه يستر وجهها بلون النقاب ، أمّا المعنى بعيد ، المورى عنه فهو «ملون بالحسن من تحت النقاب» . وهو المراد .

(١) الخزانة ص ٢٤٨ .

(٢) ديوانه ص ٣٦١ .

وقال البحترى<sup>(١)</sup> :

حَتَّى أَضَاءَ الْأَقْحَوْانُ الْأَشْبَرُ  
بَرْقَانٍ : خَالٌ مَا يُنَالُ وَخَلْبٌ  
فَابْتُ غَوَالِبُ عَبْرَةً مَا تُعْلَبُ  
بِالْحُسْنِ تَمْلُحُ فِي الْقُلُوبِ وَتُعَذَّبُ  
وَالشَّمْسُ ، إِلَّا أَنَّهَا لَا تَغْرِبُ

عَارَضَنَا أَصْلًا فَقَلَّنَا الرَّبِّرُ  
أَوْمَضْنَاهُ مِنْ خَلْلِ السُّتُورِ فَرَأَيْنَا  
وَلَقَدْ نَهَيْتُ الدَّمْعَ يَوْمَ سُوْيَقَةَ  
وَوَرَاءَ تَسْلِيَةِ الْوِشَاحِ مَلِيَّةَ  
كَالْبَدْرِ ، إِلَّا أَنَّهَا لَا تَجْتَلِي

الشاهد في قوله (تملح). لها معنيان : أحدهما من الملوحة ، ضدّ  
الحلوة . بدلالة ما عطف عليه من قوله «تعذب» وهذا هو المعنى القريب ،  
المورى به ، غير المراد ، والثاني من «الملاحة» بدلالة قوله «ملية بالحسن»  
وهو المعنى بعيد ، المورى عنه ، والمراد .

وقال لسان الدين بن الخطيب<sup>(٢)</sup> :

قال لي ، والدموع تنهل سحبًا في عراض من الخلود ممحول  
أنا جئني القربي يروي عن الأعمش ... مش ، والجفن منك عن ممحول

الشاهد في قوله «الأعمش وممحول». فالاعمش لفظ مشترك بين  
ضعيف البصر من سيلان دموعه ، وبين سليمان الأعمش التابعي المشهور الذي  
روى ألفاً وثلاثمائة حديث وكذلك (ممحول) اسم مفعول من كحل العين ، وهو  
اسم فقيه الشام من حفاظ الحديث . والتورىة هنا «مبينة» لأن ذكر لازم المورى عنه  
وهو «يروي» .

وجاء في حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال للأشعث بن  
قيس : «إنَّ أبا هذا كان ينسجُ الشَّمَالَ بِاليمين»<sup>(٣)</sup> .

كلمة (الشمال) لها معنيان . الأول ، وهو القربي المورى به هو اليد  
المقابلة لليمنى ، وهو غير مراد . والثاني ، وهو بعيد ، المورى عنه ، والمراد

(١) ديوانه ١٨٧/٢ : تسدية بمعنى الافتراء ، وفي الأساس : وتسدي عليه الوشاة أي تفترى .  
والكلمة مستعملة مجازا .

(٢) تهذيب الإيضاح ١/١٠٤ .

(٣) التهذيب ١/١٠٤ .

جمع (شملة) وهي ما يضعه المرء على رأسه ، أو كتفه .

ولولا ذكر (اليمين) بعد الشمال لما فهم السامع معنى اليد الذي به التورية ، وهذه هي التي سماها البلاغيون بالتورية المهيأة ، لأنّها لا تتهيأ ولا تستقر فيها التورية إلا بلفظ قبلها أو بعدها . وقد عد ابن منظور هذا القول من أحسن الألفاظ وألطافها بلاغة وفصاحة :

ومن لطائف شعر أبي الحسين الجزار<sup>(١)</sup> .

تَرَوْجَ الشَّيْخُ أَبْيَ شِيخَةَ  
لِوَبَرَزَتْ صُورُهَا فِي الدُّجَى  
كَانَهَا فِي فَرْشَهَا رِمَّةَ  
وَشَعَرَهَا مِنْ حَوْلَهَا قُطْنَ  
وَقَائِلٌ قَدْ قَالَ مَا فِي فَوْهَا سِنُّ

الشاهد في قوله : (ما سِنُّها؟) . والسنّ : لها معنیان : قريب ، مورى به ، غير مراد ، وهو السنّ الكائنة في الفم ، تقطع الطعام ، وتطحنه .. ومعنى بعيد ، مورى عنه ، هو المراد ، بمعنى (العمر) ، وهنا يدلّ على العجز والشيخوخة . وهذه التورية مبيّنة لقوله : ما في فمها سنّ .

وقال أيضاً في وصف داره<sup>(٢)</sup> :

وَدَارٍ خَرَابٍ بِهَا قَدْ نَزَلتُ  
وَلَكِنْ نَزَلتُ إِلَى السَّابِعَةِ  
طَرِيقٌ مِنَ الطُّرُقِ مَسْؤُلَةً  
مَحْجُونًا لِلْوَرَى شَاسِعَةَ  
تُسَاوِرُهَا هَفَوَاتُ الرَّسِيمِ  
فَتَصْغِي بِلَا أَذْنٍ سَاعِمَةَ  
وَأَخْشَى بِهَا أَنْ أُفْيَ الصَّلَاةَ  
فَسَجَدَ حِيطَانُهَا الرَّاكِعَهُ  
إِذَا مَا قَرَأَتْ (إِذَا زُلِّتْ)  
خَشِيتُ بَأْنَ تَقْرَأَ الْوَاقِعَهُ

فالواقعه : تعني الواقع والسقوط ، وهو المورى عنه ، كما تعني اسم سورة في القرآن الكريم .. وقد بين الشاعر توريته بذكر القراءة ، واسم سورة الزلزلة كذلك .

المسننة  
ذكر  
بالدائم  
المورى  
معنى  
(البعيد)  
الزمان

الموسوعة  
المصرية

(١) الخزانة ص ٢٤٩.

(٢) الخزانة ص ٢٥٢.

ومن شواهد التورية اللطيفة الشائعة قول ابن دانيال الكحال<sup>(١)</sup>:

يا سائلني عن حرفتي في الورى  
ما حال من درهم إنفاقه  
يأخذه من أعين الناس؟

وقول الشاب الطريف محمد بن العفيف<sup>(٢)</sup>:

قامت حروب الدهر ما بين الرياض السندينه  
وأتت بجمعها لبغداد... زرو روضة الورود الجنينه  
لكيها انكسرت لأن الورود شوكته قوية

\* \* \*

يا شاعر العصبة  
يا شاعر العصبة  
يا شاعر العصبة

(١) الخزانة ص ٢٥٢.

(٢) الخزانة ص ٢٦٠.

## تأكيد المدح بما يشبه الذم

و

## تأكيد الذم بما يشبه المدح

هذا الأسلوب من أساليب المبالغة في المدح، أو في الذم، لا يقدر عليه إلا من أöttى حظاً من القدرة على تصريف القول، وتحسين الكلام، وإنشاء الأدب الرفيع البديع.

وقد أحسن ابن المعتر - رحمه الله - حين جعله لوناً من ألوان البديع في كتابه المشهور، وسمّاه «تأكيد المدح بما يشبه الذم»<sup>(١)</sup> وعلى خطاه مشى كلّ من جاء بعده من العلماء والمؤلفين.

ولئن سمي بعض العلماء هذا الأسلوب بأسماء أخرى تخالف ما سماه ابن المعتر، إنَّ تلك التسميات لم تثبت، ولم يأخذ بها أحد سوى أصحابها وارتفعت راية تسمية ابن المعتر ولا تزال مرفوعة فمن تسمياتهم: (الاستثناء) قالها العسكري في كتاب الصناعتين<sup>(٢)</sup>. و (المدح في معرض الذم) و (الهججو في معرض المدح) قالهما ابن حجّة وابن معصوم ورداًهما

(١) كتاب البديع (نشر كراتشوفسكي) وطبع دار الحكمة بدمشق ص ٦٢.

(٢) الصناعتين ص ٤٥٦ والخزانة ٢/٩. وفي تهذيب الإيضاح ١/٨٤ العبارة التالية: «وقال المبرد: هذا القبيل من المدح يسمى: الاستثناء». ويدلّ لنا أنَّ في كلمة «الاستثناء» تصحيفاً، في غالب الظن، لكلمة «الاستثناء»، وأنَّ أقدم من ذكر «الاستثناء» هو ابن سلام أو ابن الأعرابي، وعنه أخذ أبو العباس ثعلب لا المبرد.

إلى ابن أبي الإِصبع وإلى ما قال صَفَيُ الدِّين الحَلَّيٌ<sup>(١)</sup> ، و (التجييه) قالها العلوى<sup>(٢)</sup> .

يختلف هذا الأسلوب وأساليب المدح والذم الأخرى في طريقة عرضه . . فلقد اعتدنا من الشعراء أن يمدحوا أحباءهم من الناس مدحًا مباشرًا، لا التوء فيه ولا انحناء، فهذا يقول لمدحه: فإنك شمسُ الملوك كواكبُ، وذاك يقول: وقفتَ وما في الموت شَكٌ لِوَاقِفٍ، وثالث يقول: لم يُقِ حُودُكَ لي شيئاً أَوْمَلَهُ . . وهكذا . . أما في هذا الأسلوب فإن الشاعر أو الناشر يلجأ إلى أسلوب غير مباشر اعتقداً منه أنه يبالغ في مدحه، أو في هجائه .

### العلاقة النفسية في أسلوب تأكيد المدح أو الذم

يعتمد هذا الأسلوب على التلاعب النفسي الذي يقوم به المادح . . ذلك أنه يبدأ - مثلاً - بـنفي كل صفة عيبٍ أو ذمَّ عن ممدوحه، ويُوقع حينئذ في ذهن سامعه أنه رفعه إلى الأُوج، وسما به إلى درجة جعله فيها مُرِّاً من كل عيب . . حتى إذا ما استيقن أنه ثبَّت هذه الفكرة ومكَّنها في نفوس سامعيه وفي ذهن ممدوحه كذلك . . بدأ لعبه بالعبارة، فأورد أولاً ما أورده أداته استثناء مثل «إلا» أو «غير» أو «لكن» أو ما يشبه ذلك من أدوات ، وبهذا الاستثناء الطارئ يوقظ مشاعر سامعيه أو ممدوحه، ويرمي في قلوبهم ظللاً من شَكٍ في كلامه الذي سبق، ويُوحِي إليهم ، قبل أن يقول شيئاً، أنَّ حديثه من قبل ، فيه ما فيه، أو أنه بالغ ، أو أعطى صاحبه أكثر مما يجب أن يُعطي ، وأنَّ عليه أن يضع الأمور في نصابها ، وألا يدع سامعيه يذهبون في تعظيم الممدوح إلى ما لا نهاية . . هذه الأداة الاستثنائية هي التي فعلت هذا كله قبل أن يورِّد الشاعر شيئاً بعدها .

وعند سماع هذا الاستثناء يفتح السامعون عيونهم أكثر ، ويحملقون في الشاعر، ويفتحون آذانهم أكثر ، ويُصيغون إلى ما سوف يقول بعد هذا

(١) أنوار الربيع / ٣ ٦٠ و ٦ / ٢٧ والخزانة ٤١٩ .

(٢) الطراز / ٣ ١٣٦ .

الاستثناء ، وتحرك أخيتهم بشئي الأختية ، وقد يتصورون للمدح ألواناً من العيوب ، وقد يدور في خيال كلّ منهم أمور وأمور لا يحبها من المدح ، ويتوّقع من الشاعر أن يأتي عليها ، أو يذكرها ويصرّح بها بعد هذا الاستثناء الذي خبّطه بعف في أسماعهم وفي جوهرهم ، ويستعجلون المستنى ، وذكر العيب الذي أوحى به ، بل تشدّ عيونهم وأذانهم وقلوبهم وجميع حواسّهم إلى ما سوف يقول .

وعند هذه المرحلة يخطب الشاعر خبطة العظمى ، فيورد عليهم ما لم يكن في حسبان أحدٍ منهم ، ولا خطأ على قلب بشرٍ فيهم .. إنّه يضيف صفة مدح جديدة بعد ذلك الاستثناء ، وهذه الصفة غالباً ما يختارها من الأمور التي لا يأتيها الشكُّ من بين يديها ولا من خلفها .

وعند هذه المفاجأة تقلب التوقعات رأساً على عقب ، وتملاً الفرحة وجه المدح أولاً ، كما تملأً وجوه السامعين جميعاً .. وتتهجّ القلوب بالنعمّة الجديدة غير المتوقعة ، ويُطري الحاضرون الشاعر على أسلوبه المظفر ، الذي بلغ به الدرجات العلى .

رأيت إلى الفرق بين الأسلوب المباشر وغير المباشر؟ إن الشيء الذي يأتي على غير انتظار يكون أكثر إفراحاً وإبهاجاً من الأمر المتّظر والمتوقع ، والشيء نفسه يقال عن الصدّر ، في وضع الهجاء أو في المصائب . كفانا الله شرّها .

وتحقيقاً لما ذكرنا نورد بيت ابن الرومي :

لَيْسَ بِهِ عَيْبٌ سُوِّيَ اللَّهُ لَا تَقْعُدُ الْعَيْنَ عَلَى شَبِيهِ  
إنّ في قول الشاعر «ليس به عيب» نفياً لكلّ ما يمكن أن يخطر في بال إنسان من أنواع العيوب ، فالمدح مصطفى من العيوب ، منقى من كلّ ما يشين ، كاملٌ مُكمّل .. بدليل قوله «ليس به عيب» .

لكنه حين أورد الكلمة (سوّي) أوقف استرسال النفس والخيال بكمال المدح ونقائه وبهائه ، وتركنا نفّرّأ فواهنا من هذه الصدمة .. فلقد قرع لنا

جَرَسَا، وَأَرَادَ أَنْ يَنْبَهَنَا إِلَى أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يَدُرْ فِي خَلْدَنَا. أَوْ أَنْهُ سُوفَ يَسْتَدِرُكَ عَلَى مَا قَالَ، وَسُوفَ يَسْتَشِنِي بَعْضُ الْعَيُوبِ وَالْهَنَاتِ. وَطَبِيعِيُّ مِنَ الشَّاعِرِ هَذَا الْاسْتِشَاءُ وَالْاسْتِدَرَاكُ، فَالإِنْسَانُ مِنْهَا عَلَى شَأنِهِ، وَسِمَا مَكَانَهُ، وَعَظَمُ قَدْرِهِ، وَكَثُرَ مَالُهُ، فَإِنَّهُ يَبْقَى فِي حَدُودِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي تَخْطِئُ وَتَصِيبُ، وَتَقْوَمُ وَتَقْعُدُ، وَتَفْعَلُ مَا يَفْعُلُهُ الإِنْسَانُ غَيْرُ الْمَعْصُومِ.

لَقَدْ هِيَ الشَّاعِرُ بِكُلِّمَةِ (سِيَوِي) النُّفُوسُ لِتَقْبُلُ صَفَةً، مِسْتَشَاءٌ مِنْ قَوْلِهِ السَّابِقِ، وَيَدُورُ فِي الْخَاطِرِ أَنَّ هَذَا الْاسْتِشَاءَ سَيَكُونُ ذَكْرًا عَيْبٍ مِنَ الْعَيُوبِ، وَلَوْ كَانَ عَيْبًا صَغِيرًا.. فَإِنَّهُ - عَلَى كُلِّ حَالٍ - عَيْبٌ.

هُنَا، فِي هَذِهِ الْلَّحْظَةِ، تَكُونُ الْعَيُونُ وَالْأَذَانُ وَالْقُلُوبُ وَالْجُوَارِحُ جَمِيعًا مَشْدُودَةً إِلَى مَعْرِفَةِ هَذَا الْمَسْتَشِنِي.. أَتَرَاهُ عَيْبًا خَلْقِيًّا أَمْ تَرَاهُ عَيْبًا خَلْقِيًّا؟ أَتَرَاهُ يَتَصَلُّ بِالْطَّبَائِعِ أَمْ بِالسُّلُوكِ؟ أَلَهُ عَلَاقَةٌ بِالآخَرِينَ مِنَ الْعَالَمِينَ أَمْ أَنَّهُ عَيْبٌ ذَاتِيٌّ قَاصِرٌ عَلَى ذَلِكَ الإِنْسَانِ وَحْدَهُ، لَا يَتَجَاوزُهُ إِلَى سُواه..؟؟.. أَسْتِلَةٌ كَثِيرَةٌ تَوَارَدُ عَلَى الْخَوَاطِرِ، وَمَعَ هَذِهِ الْأَسْتِلَةِ تَرَقُّبٌ فِي لَهْفَةٍ وَشُوقٍ إِلَى مَعْرِفَةِ هَذَا الَّذِي قَرَعَ الشَّاعِرَ جَرَسَهُ بِكُلِّمَةِ (سِيَوِي).

وَحِينَ يَصِلُّ الشَّاعِرُ إِلَى هَذِهِ الدَّرْجَةِ الْحَادِّهِ يَضْرِبُ ضَرَبَتِهِ التَّاجِحةُ، وَيَفْتَحُ فَمَهُ، وَيَنْطَلِقُ بِذِكْرِ هَذَا الْمَسْتَشِنِيِّ، وَمَاذَا يَكُونُ هَذَا الْمَسْتَشِنِي..؟ إِنَّهُ (لَا تَقْعُدُ الْعَيْنُ عَلَى مِثْلِهِ). اللَّهُ أَكْبَرُ.. إِنَّ الشَّاعِرَ خَيْبٌ ظَنَّ السَّامِعِينَ، وَحَطَّمَ أَمْلَاهُمْ بِالْوُقُوفِ عَلَى عَيْبٍ.. وَجَاءُهُمْ بِعَكْسِ مَا ظَنُّوا وَتَوَقَّعُوا.. لَقَدْ جَاءُهُمْ بِمَدْحٍ آخِرٍ، أَوْ تَعْظِيمٍ أَكْبَرٍ، وَتَأكِيدٍ بِالْغُلَّ لِمَا بَدَأَ بِهِ.. إِنَّهُ (لَا تَقْعُدُ الْعَيْنُ عَلَى مِثْلِهِ).. إِنَّهُ فَرِيدُ الْمَثَالِ، عَالِيُّ الْمَقَامِ، مُعْلَمٌ أَنْ يَلْعَلِّهُ إِنْسَانٌ بَسُوءٍ، أَوْ يَتَشَبَّهُ بِمَخْلوقٍ، إِنَّهُ لَا مِثْلُ لَهُ، وَلَا شَبِيهٌ.. أَجْلٌ.. خَلاصَةُ مَا نَقَولُ فِيهِ: إِنَّهُ لَا تَقْعُدُ الْعَيْنُ عَلَى مِثْلِهِ.

ذَلِكَ هُوَ أَسْلُوبٌ «تَأكِيدُ الْمَدْحِ بِمَا يَشْبَهُ الذَّمَّ» وَإِذَا كَانَ ابْنُ الْمُعْتَرَ قدْ عَدَهُ مَحْسُنًا بَدِيعًا، يَزِيدُ الْمَعْنَى حُسْنًا، فَإِنَّهُ قَدْ أَصَابَ وَنَطَقَ بِالْحَقِّ وَرَيْعَمَ مَا قَالَ.

ويبدو أنَّ أقدم من اتبَعَ هذا الأسلوب البديع التَّابِغُ الذِّيانيَّ، فقد قال في إحدى مدائنه<sup>(١)</sup> :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ، غَيْرَ أَنَّ سِيوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِّنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ  
ثُمَّ افْتَحَ الْبَابَ لِلشِّعَرَاءِ بَعْدِهِ، فَرَاحُوا يَسِيرُونَ عَلَى خُطَاهُ، وَيَقُولُونَ  
مِثْلُ قَوْلِهِ . مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي هَفَانَ<sup>(٢)</sup> :

أَضَرَّ بَنَا، وَالْبَأْسُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ  
وَأَفْنَى النَّدِيَّ أَمْوَالَنَا غَيْرَ عَائِبٍ  
أَبَا وَاحِدًا أَغْنَاهُمُ بِالْمَنَاقِبِ

وَلَا عَيْبَ فِينَا غَيْرَ أَنَّ سِمَاحَنَا  
فَأَفْنَى الرَّدَى أَرْوَاحَنَا غَيْرَ ظَالِمٍ  
أَبُونَا أَبُّ، لَوْ كَانَ لِلنَّاسِ كُلُّهُمْ

وقول أبي جعفر القرشي<sup>(٣)</sup> :

وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا إِلَيْهِ إِبَابُ  
ثَعَابُ لِهِ الدُّنْيَا، وَلَيْسَ يُعَابُ

فَتَّى لَمْ تَسْافِرْ عَنْهُ آمَالُ آمَلٍ  
وَلَا عَيْبَ فِيهِ لَا مَرْءٌ غَيْرَ أَهْهَ  
وقول ابن الحجاج البغدادي<sup>(٤)</sup> :

وَذَاكَ عَلَى سَمْعِ الْمُحَبِّ خَفِيفٌ  
مَرَاضٌ، وَأَنَّ الْخَصْرَ مِنْهُ ضَعِيفٌ

أَتَوْنِي، فَعَابُوا مَنْ أَحْبَبَ جَهَالَةً  
فَمَا فِيهِ عَيْبٌ غَيْرَ أَنَّ جَفَونَهُ

وقول عَزَّ الدِّينِ التَّنْوُخِي (الْغَوَّاصُ اللَّخْمِيُّ)<sup>(٥)</sup> :

وَيُدَخِّلُونَهُ لِلضَّيْفِ فِي لَزْبَةِ الْمَحْلِ  
حَسِيبَهُمُ - لَمَّا نَزَلتُ بِهِمْ - أَهْلِي

وَيَدَخِّرُونَ الرَّزَادَ يُخْفِونَ خَيْرَهُ  
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ ظَاهِرٌ غَيْرَ أَنَّنِي

وقول آخر<sup>(٦)</sup> :

ثَعَابُ بَنِسِيَانِ الْأَحَبَّةِ وَالْوَطَنِ

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ ضِيوفَكُمْ

(١) ديوانه ص ١٣

(٢) تهذيب الإيضاح ١٩٠ / ١

(٣) تهذيب الإيضاح ١٩١ / ١

(٤) تهذيب الإيضاح ١٩١ / ١

(٥) يكتي أستاذنا المرحوم التَّنْوُخِي عن نفسه بالْغَوَّاصُ اللَّخْمِيُّ . ولذلك فقد ذكرنا اسمه صراحة .  
والأبيات من التهذيب ١٩١ / ١

(٦) خزانة الأدب ص ٤١٩

وقول آخر<sup>(١)</sup>:

لَا عِيبٌ فِي هَذَا الرَّشَاءِ غَيْرَ أَنَّهُ لَهُ مِعْطَفٌ لِدُنْ وَحْدَةٍ مُنْعَمٌ  
وَقُولٌ بِأَئِي الْخِيَارِ فِي بَلَادِ الشَّامِ: «يَا خِيَارًا! يَا خِيَارًا! مَالِكٌ عِيبٌ إِلَّا  
أَنَّكَ أَخْضُرُ وَبَلْدِي».

### أساليب التأكيد

وهناك أسلوب آخر لتأكيد المدح بما يشبه الذم، وذلك بأن يورد المتكلّم صفة المدح ويعقبها بأداة الاستثناء، صفة مدح أخرى. مثال ذلك ما رُوِيَ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بِيَدِي أَنِّي مِنْ قُرِيشٍ.

في العبارة الأولى (أنا أفصح العرب) إشارة إلى صفة مدح مثبتة، فالرسول عليه السلام يُخْبِرُنَا - وهو الصادق - أَنَّهُ أَفْصَحُ الْعَرَبِ جَمِيعًا.

ثم جاء بأداة تفيد الاستثناء، وهي (بِيَدِي) مما أوحى إلى السَّامِعِ أَنَّهُ، عليه السلام، يريد أن يستثنى شيئاً من تلك الصفة التي سبق أن أخبر بها، وهي (أنا أَفْصَحُ الْعَرَبِ).

لكنه أورد صفة مدح جديدة، وهي (أَنَّهُ مِنْ قُرِيشٍ) وقریش أَفْصَحُ الْعَرَبِ غير منازعين. فكانت هذه الصفة الجديدة توكيداً للمدح الأول، إلا أنها وردت بأسلوب ألف الناس سماعه في الذم.

ومن هذا القبيل قولُ التَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ<sup>(٢)</sup>:

فَتَسِيْ كَمْلَتْ أَخْلَاقِهِ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبَشِّي مِنَ الْمَيْالِ باقِيَا  
فَتَسِيْ كَانَ فِيهِ مَا يُسِرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعْدَادِ  
وَقُولٌ آخَرُ<sup>(٣)</sup>:

(١) خزانة الأدب. ص ٤١٩.

(٢) تُسَبِّ هَذَا الْبَيْتَانِ فِي الصَّنَاعَتَيْنِ ص ٤٥٩ إِلَى جَنْدَلَ بْنَ جَابِرَ الْفَزَارِيِّ، لَكَنَّهُ فِي الْحَمَاسَةِ لِلْجَعْدِيِّ /١/ ٤٠٨ وَفِي الْقَالِيِّ /٢/ ٢ وَفِي السِّيوطِيِّ ٢٠٩ وَفِي الْكِتَابِ لِسَيِّدِهِ /١/ ٣٦٧ وَرَوَيْتَهُ «فَتَسِيْ كَمْلَتْ خَيْرَاتِهِ . . .».

(٣) تَهْذِيبُ الْإِيْضَاحِ /١/ ١٩١.

وظبيٍ ثياب الصَّحَاحِ كَمَا تَرَى من الرِّيقِ يرويهَا الرُّضابُ المَبْرَدُ  
وقد حاز أشتات البهاء غير أنه له مقلة كحلاً وخدًّا مورداً

وزاد بعض المؤلفين ضرباً ثالثاً من تأكيد المدح بما يشبه الذم فقال: هو  
أن يأتي الاستثناء فيه مفرغاً، فلا يذكر المستثنى منه، ويكون العامل قبل (إلا)  
مما فيه معنى الذم ، كما يكون المستثنى بعد أداة الاستثناء مما فيه معنى  
المدح . مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَ إِلَّا أَنْ أَمَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا  
جاءَنَا (١) ﴾ .

لقد حذف المستثنى منه قبل إلا ، وكان العامل فيه يتضمن معنى الذم  
وهو (تنقم) وأما المستثنى الذي جاء بعد (إلا) فقد تضمن معنى المدح ، وهو  
(أنْ أَمَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا) ..

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَ إِلَّا أَنْ  
أَمَّا بِاللهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا (٢) ﴾ ..

### الخلاصة

تأكيد المدح بما يشبه الذم يكون على أضرب .

- ١ - أن يستثنى من صفة ذمٍ منفيّة صفة مدح .
- ٢ - أن يثبت لشيء صفة المدح ، ويؤتى بعدها بأداة استثناء ، تليها صفة مدح  
آخرى .
- ٣ - أن يؤتى بالاستثناء مفرغاً ، ويتضمن ما قبل الاستثناء معنى الذم ، وما بعده  
معنى المدح .

\*\*\*

أما تأكيد الذم بما يشبه المدح فأسلوبه شبيه بأسلوب سابقه ، وله ضربان:

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٢٦ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٩ .

١ - أن يُستثنى من صفة مَدح منفيّة صفة ذمّ، نحو: فلان لا خير فيه إِلَّا أنه يسيء إلى من يحسن إليه . وقول أحدهم :

يُبَصِّرُ الْمَطَابِخَ، لَا تَشْكُو وَلَا يَدْهُمُ  
طَبَخَ الْقُدُورِ وَلَا غَسْلَ الْمَنَادِيلِ  
لَا تَأْكُلُ النَّارَ فِي مَقْعَدِ بَيْوَتِهِمْ  
إِلَّا فَتَائِلَ سُرْجٍ أَوْ قَنَادِيلَ.

٢ - أن يُثبت لشيء صفة ذمّ، ويؤتي بعدها بأداة استثناء، تليها صفة ذمّ أخرى .  
قولك : فلان فاسق ، إِلَّا أَنَّهُ جاَهِلٌ .

وقول الشاعر:

هُوَ الْكَلْبُ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ مَلَلَةً  
وَسُوءَ مُرَاعَاةً، وَمَا ذَاكَ فِي الْكَلْبِ

\* \* \*

## أسلوب الحكم أو القول بالوجب

للعلماء البلاطين رأى في تسمية هذا اللون . فالسَّكاكِي أطلق عليه اسم (أسلوب الحكم) ووصفه « بأنه من نوع إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر . وأن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرَّك من نشاط السَّامِع ما سلبه حكم الوقور . وأبرزه في معرض المسحور . . . ». أمَّا الحَمْوَي والسبكي والسيوطِي ومعهم جُلُّ المؤلِّفين فقد اختاروا له اسم (القول بالوجب) بفتح الجيم أو بكسرها .

واختلفوا كذلك في كون الأسلوب الحكيم والقول بالوجب شيئاً واحداً أو أنَّ كلاًًا منهما يدلُّ على غير ما يدلُّ عليه الآخر . . فقال فريق - ومنهم السَّكاكِي والقرزويني - إنَّهما شيءٌ واحدٌ ، وقال فريق آخر - ومنهم ابن معصوم وابن أبي الإصبع ، والسبكي - بأنَّ لكلَّ منهما شخصيته واستقلاله .

ويخيل إلينا أنَّ الفروق بين هذا وذاك ضئيلة ، ويمكن أن تتلاشى إذا ما وزعنا أساليب صياغتهما توزيعاً واضحاً ، وشرحناها شرحاً كافياً ، وجمعناها على الصورة التالية :

أولاً - أن يتحدث متكلِّم بحديث ، فيأتي آخر فيأخذ كلمةً من حديثة ، ويعكس معناها ، ويبني على هذا المعنى الجديد المعكوس كلامه ، أو يعلق على الكلمة تعليقاً لطيفاً مبنِّياً على المعنى المعكوس . ونضرب على هذا اللون الأمثلة :

حكي أن رجلاً قال لهشام القرطبي : كم تَعْدَ؟ قال : من واحدٍ إلى ألفٍ وأكثر . قال : لم أرد هذا ، كم تَعْدَ من السنن؟ قال : اثنينٍ وثلاثين ، ستة عشرَ من أعلى وستة عشرَ من أسفل . قال : لم أرد هذا ، كم لك من السنين؟ قال : والله ليس لي منها شيءٌ ، السنون كلُّها لِللهِ . قال : يا هذا ، ما سِنُّك؟ قال : عظيم . قال : ابنُ كم أنت؟ قال : ابنُ اثنين ، رجلٌ وامرأة . قال : كم أتى عليك؟ قال : لو أتى على شيءٍ قتلني . قال : فكيف أقول؟ : تقول : كم مضى من عمرك؟

في هذه الحكاية وجدنا الرجل أراد أن يسأل هشاماً عن عمره .. وراوغه هشام . . . فكان يأخذ سؤال الرجل ، ويجيبه بغير ما يقصد ، ولكن إجابته صحيحة وفي موضعها . . وكان يتخلص بمهارة من الجواب .

وهذا شاهد آخر :

رَوَى الشَّرِيفُ الْمَرْتَضَى قَالَ: رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَلَى الْحِيرَةِ، وَتَحَصَّنَ مِنْهُ أَهْلُهَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَنْ ابْعَثُوا إِلَيْهِ رَجُلًا مِنْ عَقْلَائِكُمْ، وَذُوِّي أَنْسَابِكُمْ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ عَبْدَ الْمَسِيحِ بْنَ بُقَيْلَةَ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى دَنَا مِنْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ. فَقَالَ: أَنْعَمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الْمَلِكِ . قَالَ: قَدْ أَغْنَانَا اللَّهُ عَنْ تَحِيَّتِكَ هَذِهِ، فَمَنْ أَيْنَ أَقْصَيَ أَثْرَكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ؟ قَالَ: مِنْ ظَهَرِ أَبِي . قَالَ: فَمَنْ أَيْنَ خَرَجْتَ؟ قَالَ: مِنْ بَطْنِ أُمِّيِّ . قَالَ: فَعَلَامَ أَنْتَ؟ قَالَ: عَلَى الْأَرْضِ . قَالَ: فَفَيْمَ أَنْتَ؟ قَالَ: فِي ثَيَابِيِّ . قَالَ: أَتَعْقِلُ، لَا عَقْلَتِ . قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ وَأَقِيدُ . قَالَ: ابْنُ كم أَنْتَ؟ قَالَ: ابْنُ رَجُلٍ وَاحِدٍ . قَالَ خَالِدٌ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطَّ، إِنِّي أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّيْءِ وَيَنْحُو فِي غَيْرِهِ . قَالَ: مَا أَنْبَاتَكَ إِلَّا عَمَّا سَأَلْتَ، فَسَلِّ عَمَّا بَدَا لَكَ<sup>(١)</sup>.

ومثل ذلك ما رُويَ عن الغضبانِ بْنِ الْقَبَعَشِريِّ ، وكان من زعماء الخوارج أَنَّهُ كان مع صحابة له في بستان ، وذَكَرَ الْحَجَاجَ ، فدعاه عليه ابنُ الْقَبَعَشِريُّ قائلًا: اللَّهُمَّ سَوْدَ وَجْهَهُ وَاقْطَعْ عَنْهُ، وَاسْقِنِي دَمَهُ ، فَلَمَّا ظَفَرَ بِهِ الْحَجَاجُ ، سَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: أَرَدْتَ الْعِنْبَ . فَقَالَ لَهُ مُتَوَعِّدًا: لَا حَمِلْتَ عَلَى

(١) من أنوار الربيع ٢٠٠ / ٢ وللخبر بقية في الصفحة ٢٠١.

الأدْهَم<sup>(١)</sup> . فقال : مِثْلُ الْأَمِيرِ يَحْمِلُ عَلَى الْأَدْهَمِ وَالْأَشْهَبِ . قال : وَيُلْكِ إِنَّهُ حَدِيدٌ . فقال : لَانْ يَكُونَ حَدِيداً خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ بَلِيداً .

ومثله قول ابن نباتة :

أَثَرَ السَّقَامَ بِعَظَمِيَ الْمُنْهَاضِ  
أَنَا بِالسَّقَامِ، وَأَنْتَ بِالإِعْرَاضِ

وَمَلْوَلَةٌ فِي الْحَبَّ لِمَا أَنْ رَأَتْ  
قَالَتْ : تَغَيَّرْنَا . قَلَّتْ لَهَا : نَعَمْ  
وَقُولُ أَبِي الْمَحَاسِنِ الشَّوَّاءِ :

وَمَا فِيهِمُ إِلَّا لِلْحُمْرِيَ قَارِضُ  
وَقَالُوا : بِهِ عَيْنَ فَقِلْتَ : وَعَارِضُ

وَلَمَّا أَتَانِي الْعَادِلُونَ - عَدِمْتُهُمْ  
وَقَدْ بَهْتُهُمْ لِمَا رَأَوْنِي شَاحِباً

وَقُولُ الشَّهَابِ مُحَمَّدٌ :

وَفَاضَتْ دَمْوَعِي عَلَى الْخَدَّ فِي ضَيَا  
فَقِلْتَ : صَدَقْتِ، وَبِالْخَصْرِ أَيْضاً

رَأَتِي، وَقَدْ نَالَ مِنِي التَّحْوُلُ  
فَقَالَتْ : بِعِينِي هَذَا السَّقَامُ

وَقُولُ الصَّفْدِيِ :

وَلَقَدْ أَتَيْتُ لِصَاحِبِي وَسَائِلَهُ  
فَأَجَابَنِي : وَاللَّهِ دَارِي مَا حَوَّتْ  
وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤَذِّنُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ : هُوَ أَذْنُ  
أَذْنُ خَيْرٍ لَكُمْ<sup>(٢)</sup> . ﴾

\* \* \*

ثانيةً : أن يسأل سائل سؤالاً ، فيرد عليه المسؤول بجواب آخر ، كأنه تجاهل سؤاله ، وجاءه بجواب فيه تنبية له على أن هذا أهتم وأولى وأنفع ..  
ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ . قُلْ : هِيَ مَوَاقِيتٌ

(١) أراد الحجاج بالأدْهَمِ : القيد . فحمله ابن القبيحى على غير مراده وجعله صفة للفرس الأدْهَمِ ، وهو الذي غلب سواده على بياضه ، والأشْهَبِ ، وهو الذي غلب بياضه على سواده .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٦١ .

**لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ**<sup>(١)</sup> ﴿فَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُ النَّاسِ فَقَالُوا مَا بِالْهَلَالِ يَبْدُو دِقِيقًا مِثْلَ الْخِيطِ، ثُمَّ يَتَرَاهُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يَسْتُوِي وَيَمْتَلِي، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَنْقُصُ حَتَّى يَعُودُ كَمَا بَدَأَ؟ فَأَجَبُوهُ بِمَا تَرَى تَنبِيَّهًا عَلَى أَنَّ الَّذِي يَنْفَعُكُمْ وَهُوَ أَهْمَّ بِحَالِكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا مِنْهَا أَوْقَاتَ الطَّاعَاتِ﴾.

وَكَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿يَسْأَلُوكُمْ مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ قُلْ : مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرِ فِلْلَوِ الدِّينِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾<sup>(٢)</sup>. سَأَلُوا عَنْ بَيَانِ مَا يَنْفَعُونَ فَأَجَبُوهُ بِبَيَانِ الْمَصَارِفِ، تَنبِيَّهًا عَلَى أَنَّ الْمَهْمَّ هُوَ السُّؤَالُ عَنْهَا، لَأَنَّ النَّفَقَةَ لَا يُعْتَدُ بِهَا إِلَّا أَنْ تَقْعُدْ مَوْقِعَهَا، وَكُلَّ مَا فِيهِ خَيْرٌ فَهُوَ صَالِحٌ لِلنَّفَقَةِ .. فَالْمَالُ يَنْفَقُ مِنْهُ، وَالطَّعَامُ يَمْكُنُ أَنْ يَنْفَقَ مِنْهُ فَيَقْدِمُ إِلَى مُحْتَاجِيهِ الْمَعْوِزِيْنَ، حَتَّى الْجَاهُ وَالْعَوْنَ وَمَسَاعِدُ الْفَارِسِ عَلَى رَكُوبِ فَرَسِهِ .. كُلُّ ذَلِكَ يَمْكُنُ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعًا لِإِنْفَاقِ .

حَتَّى الْبِسْمَةُ فِي وِجْهِ الْأَخْ وَالْأَخْتِ وَهُؤُلَاءِ النَّاسِ الْمُذَكُورِيْنَ .. إِذْنُ، لِنَسْ الْمَهْمَّ مَاذَا نَنْفَقُ .. فَهُوَ كَثِيرٌ، وَمُمْتَنَوٌ، وَشَامِلٌ، إِنَّمَا الْأَهْمَّ مَعْرِفَةُ الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْفَاقُ فِيهَا .

\* \* \*

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٥.

## الاقتباس

الاقتباس في اللغة : مصدر «اقتبس» إذا أخذ من معظم النار شيئاً، وذلك المأخوذ «قبس» بفتح القاف والباء .

وفي البلاغة : هو تضمين النظم أو الشِّرْ بعض القرآن الكريم لا على أنه منه ، بآلاً يقال فيه : قال الله ، أو نحوه ، فإن ذلك لا يكون اقتباساً .

قال الحافظ السيوطي : وقد اشتهر عن المالكية تحريمـه ، وتشديد النـكير على فاعله . وأمـا أهل مذهبـنا - يعني الشـافعـية - فلم يتعرـض له المتقدـمون ، ولا أكثر المتأخـرين مع شـيـوع الاقتبـاس في أـعـصـارـهـم ، واستـعمـالـ الشـعـراءـ له قديـماً وحـدـيـثـاً ، وقد تـعرـضـ له جـمـاعـةـ منـ المـتأخـرـينـ ، فـسـئـلـ عـنـهـ الشـيـخـ عـزـ الدـينـ بنـ عبدـ السـلـامـ فـأـجـازـهـ ، واستـشـهـدـ بطـائـفـةـ منـ أـحـادـيـثـ الرـسـولـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ وـالـخـلـفـاءـ الرـأـشـدـيـنـ وـأـنـ فـيـهاـ اـقـتـبـاسـاـ منـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ .. وـهـذـاـ يـدـلـ عـلـىـ جـواـزـهـ ، وـشـايـعـهـ فـيـ هـذـاـ حـكـمـ عـدـدـ مـنـ الـعـلـمـاءـ وـالـبـاحـثـيـنـ<sup>(١)</sup> .

### أقسامه

أما ابن حـجـةـ الحـموـيـ فقد قـسـمهـ إـلـىـ ثـلـاثـةـ أـقـسـامـ فـيـ «ـخـزـانـةـ الـأـدـبـ»ـ : اـقـتـبـاسـ مـحـمـودـ مـقـبـولـ ، وـاقـتـبـاسـ مـبـاحـ مـبـذـولـ ، وـاقـتـبـاسـ مـرـدـوـدـ مـرـذـولـ .

(١) عـقـرـدـ الجـمـانـ ٢١٢ / ٢

## الأول (المحمود المقبول)

يكون في الخطب والمواعظ والمعاهد ومدح النبي صلى الله عليه وسلم وأله وصحبه.

## الثاني (المباح المبذول)

يكون في الغزل والصفات والقصص والرسائل ونحوها.

## والثالث (المردود المرذول)

وهذا القسم على ضربين : أحدهما ما نسبه الله تعالى إلى نفسه ، ونعود بالله ممن ينقله إلى نفسه ، كما قيل عن أحد بنى مروان أنه وقع على مطالعة فيها شكاية من عماله « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَّاَهُمْ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ<sup>(١)</sup> » وثانيهما : تضمين آية كريمة في معرض هزل أو سخف كقول ابن النبي في مدح الفاضل :

قَمْتُ لِلَّهِ الصُّدُودَ إِلَّا قَلِيلاً  
ثُمَّ رَأَيْتُ ذِكْرَكُمْ تَرْتِيلًا  
وَهَجَرْتُ السُّهَادَ أَقْبَحَ وَصْلًا  
مَسْعَيِ كُلِّ عَنْ سَمَاعِ عَذُولٍ ثُقِيلًا  
إِلَى أَنْ يَقُولُ :

جَلَّ عَنْ سَائِرِ الْخَلَائِقِ فَضْلًا فَاخْتَرْعَنَا فِي مَذْحِسِ التَّزِيلَا<sup>(٢)</sup>  
قال السيوطى : وهذا التقسيم حسن جداً ، وبه أقول<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

أما بهاء الدين السبكي فقد قال في « عروس الأفراح » : الورع اجتناب ذلك كله ، وأن ينزعه عن مثله كلام الله ورسوله ، لا سيما إذا أخذ شيء من القرآن وجعل بيته أو مصراعاً فإن ذلك ما لا يناسب المتدين كقوله :

(١) سورة العاشية ، الآيات ٢٥ و ٢٦.

(٢) خزانة الأدب ص ٤٤٢.

(٣) عقود الجمان ٢/ ٢١٣.

كَتَبَ الْمَحِبُوبُ سَطْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ مَوْزُونٍ  
لَنْ تَأْلُوا الْبِرَّ حَتَّى تَنْقُسُوا مِمَّا تَحْيَوْنَ

وخلاصة القول :

١ - أن الاقتباس ليس بقرآن حقيقة، بل كلام يماثله، بدليل جواز القول عن معناه الأصلي .

٢ - الاقتباس على ضربين: ضرب لا ينقل المقتبس فيه عن معناه الأصلي كقول أحدهم وقد طلب من أحد أصحابه المكينين (حُبَا) - وهي الجرأة الكبيرة - فاعتذر منه :

طَلَبْنَا مِنْكُمْ حَبًّا أَجْتَمَعْ فِيهِ بِالْمَعْ  
عَذَرْنَاكُمْ لَا تَكُونُ بِوَادٍ غَيْرَ ذِي زَرْعٍ

فإِنَّ الْمَرَادَ بِهِ مَكَّةُ الْمُكَرَّمَةُ، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ .

أما الثاني فينقل عن معناه الأصلي على أنه ليس بقرآن حقيقة، كقول ابن الرومي :

لَئِنْ أَخْطَأْتُ فِي مَدْحِي لَكَ مَا أَخْطَأْتَ فِي مَنْجِي  
لَقَدْ أَنْزَلْتُ حَاجَاتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ

فَإِنَّهُ كَنَّى بِهِ عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي لَا نَفْعَ لِدِيهِ، بَيْنَمَا هُوَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَكَّةُ الْمُشْرَفَةُ .

٣ - يجوز تغيير لفظ المقتبس بزيادة أو نقصان، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال الظاهر من المضمر، أو العكس كقول أبي تمام في رثاء ولده :

كَانَ الَّذِي خَفِتُ أَنْ يَكُونَا إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاجِعُونَا  
فَقُولُهُ (إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاجِعُونَا) اقتباس، لَكِنَّهُ زَادَ الْفَأَ في  
(راجعون) عَلَى جَهَةِ الإِشْبَاعِ، وَأَتَى بِالظَّاهِرِ مَكَانَ الْمُضْمَرِ، فَالْآيَةُ  
الْكَرِيمَةُ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ .

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٦ .

٤ - يمكن أن يقتبس من الحديث النبوي الشريف كقول الصّاحِبِ بن عَيَّادَ :

أَقُولُ وَقَدْ رَأَيْتُ لَهُ سَحَابًا مِنَ الْهِجْرَانِ مُقْبَلًا إِلَيْنَا  
وَقَدْ سَحَّتْ غَوَادِيهَا بَهْطَلْ حَوَالِيْنَا الصُّدُودُ وَلَا عَلَيْنَا  
اقتبسه من الحديث النبوي حين استسقى وحصل مطر عظيم (اللَّهُمَّ  
حَوَالِيْنَا وَلَا عَلَيْنَا) .

وبعد، فقد نظر معظم الخطباء ، والكتاب والشعراء والبلغاء إلى جواز الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف التي سبق أن عرضناها من قبل .

ويبدو لنا أنَّ سبب حماستهم في استخدام الاقتباس من المصدرين المقدَّسين القرآن والحديث رغبتهم في تنوير كلامهم .. فكلام الله نور .. وكلام رسول الله نور .. واقتباس الإنسان من هذين التورين أو من أحدهما يرفع من مقام كلامه ومستوى أدائه الفني ، وأكِّرم بذلك من غاية وهدف . ولعلنا لو استعرضنا بعضَ ما جاء به هؤلاء القابسون .. أو المقتبسون لعرفنا كيف يسمون الكلام بالنور والضياء ..

قال الشاعر الأحوص :

إذا رمتُ عنها سلوة قال شافعٌ من الحبِّ: بيعاد السرور المقاربُ  
ستبقى لها في مضمير القلب والحسناً سرائرُ وَدَّ يوم ثُلثي السرائرِ

وقال ابن سناء الملك في مطلع قصيدة :

رَحِلُوا، فَلَسْتُ بِسَائِلٍ عَنْ دَارِهِمْ أَنَا بَاخِعٌ نَفْسِي عَلَى آثَارِهِمْ  
وقال أبو الفضائل أحمد بن يوسف بن يعقوب مقتبساً من سورة مريم :

لَسْتُ أَنْسِي الْأَحْبَابَ مَا دَمْتَ حَيَا إِذْ تَوَوَّلُ لِلنَّوْيِ مَكَانًا قَصِيَا  
وَتَلَوْلَا آيَةَ الدُّمْوعِ فَخَرُّوا خِيفَةَ الْبَيْنِ سُجَّداً وَبُكِيَا  
وَبِذِكْرِ أَكْمَمْ يُسَبِّحُ دَمْعِي كَلَمَا اشْتَقَتْ بُكْرَةَ وَعَشِيَا  
وَأَنْاجِي إِلَهَةَ مِنْ فَرْطِ حُزْنِي كُمْنَاجَاهَ عَبْدِهِ زَكْرِيَا  
وَانْخَفَقَ نُورُهُمْ فَنَادَيْتُ رَبِّي فِي ظَلَامِ الدُّجَى نِدَاءَ خَفِيَا

وَهُنَّ الْعَظِيمُ بِالْبُعْدِ فَهُنْ لِي  
وَاسْتَجِبْ لِي فِي الْهَوَى دُعَائِي إِلَيْيَ  
لَمْ أَكُنْ بِالدُّعَاءِ مِنْكَ شَقِيقًا  
قَدْ فَرِي قَلْبِي الْفِرَاقُ وَحَقًا  
كَانَ يَوْمُ الْفِرَاقِ شَيْئًا فَرِيَا  
لَيَسْتِي مِنْ قَبْلِ هَذَا وَأَنِي مَشْيَا

\*\*\*

## التّضمين

التّضمين : في اللّغة : جَعْلُ شَيْءٍ ضِمنَ آخِر.

وفي الاصطلاح البلاغي : أن يضمّن الشاعر غيره في أبياته ، مع التّبّيه والإشارة إلى ذلك ، إذا لم يكن مشهوراً عند البلّغاء أو أكثر النّاس .

ومن أمثلة ذلك أَنَّ حَسَانَ بن ثَابَتَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، مَدَحَ الْغَسَاسَةَ بِقَصِيدَةٍ ، كَانَ مِنْ جَمِيلَتَهَا قَوْلُهُ :

يُغَشِّوْنَ حَتَّىٰ مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ      لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبَلِ

وجاء الصّلاح الصّفدي ، فأخذته ، وضمّنه شِعره ، إِلَّا أَنَّهُ قَلْبَ مَعْنَى (السواد) الذي أراد به حَسَانَ جَمْوَعَ النّاسِ وَالظَّيْفَ الْقَادِمِينَ إِلَى (السواد) في الشّعر المقابل للشّيْبِ ، فَقَالَ :

دَبَّ الْعِذَارَ فَظَنَ فِيهِ عَوَادِلِيٍّ      أَنِّي أَكُونُ عَنِ الْغَرَامِ بِمَعِزْلٍ  
لَا كَانَ ذَاكَ فِيَّنِي مِنْ مَعْشَرِ      « لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبَلِ »

فقد أَخَذَ الْمَصْرَاعَ الْأَخِيرَ مِنْ عَجْزِ بَيْتِ حَسَانَ .

وَمِنْ شِعْرِ السَّرَّاجِ الْوَرَاقِ قَوْلُهُ :

تَوَارَتْ مِنِ الْوَاشِي بِلِلِّذَوَائِبِ      لَهُ مِنْ جَبَنٍ وَاضْعَافٍ تَحْتَهُ فَجْرٌ  
فَدَلَّ عَلَيْهَا شَعْرُهَا بِظَلَامِهِ      « وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءُ يُفْتَنُ الدُّرُّ »

فالصراع الأخير مأخوذ من بيت أبي فراس :

سَيِّدُكُرْنِي قومٌ إِذَا جَدَ جِدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَنُ الْبَدْرُ  
وَمِنْ شِعْرِ ابْنِ الْعَمِيدِ قَوْلَهُ<sup>(۱)</sup> :

دَهْرًا فَغَادَنِي فَرْدًا بِلَا سَكِنٍ  
نَحْوَ السُّرُورِ وَالْجَانِي إِلَى الْحَزَنِ  
وَلَمْ يَكُنْ فِي ضَرُوبِ الشِّعْرِ أَشْدِنِي :  
مَنْ كَانَ يَأْلَمُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِنِ  
وَصَاحِبٌ كَنْتُ مَغْبُوطًا بِصُحُبِتِهِ  
هَبَّتْ لَهُ رِيحٌ إِقْبَالٌ فَطَارَ بِهَا  
كَأَنَّهُ كَانَ مَطْوِيًّا عَلَى إِحْنِ  
إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا مَا أَسْهَلُوا ذَكْرَهُ  
فَالْبَيْتُ الْأَخِيرُ لِأَبِي تَمَّامٍ .

وَمِنْ طَرَائِفِ التَّضْمِينِ مَا حُكِيَ أَنَّ الْحَيْضَ بَيْضَ الشَّاعِرِ قُتِلَ جَرْوًا وَهُوَ  
سَكِرانٌ ، فَأَخْذَ أَبُو الْقَاسِمِ الْقَطَانَ الشَّاعِرَ كَلْبَةَ ، وَعَلَقَ فِي رَقْبَتِهِ قُصَاصَةً وَرَقَّ  
بَعْدَ أَنْ كَتَبَ عَلَيْهَا بَعْضَ أَبْيَاتٍ مِنِ الشِّعْرِ ، وَأَطْلَقَهَا عِنْدَ بَابِ الْوَزِيرِ ، وَأَبْصَرَ  
الْحَرَاسَ الْكَلْبَةَ وَفِي عَنْقِهَا الْوَرْقَةَ ، فَأَمْسَكُوا بِهَا ، وَأَخْذُوا الْوَرْقَةَ مِنْ رَقْبَتِهِ ،  
وَدَخَلُوا بِهَا عَلَى الْوَزِيرِ ، وَإِذَا مَكْتُوبٌ فِيهَا :

يَا أَهْلَ بَغْدَادِ إِنَّ الْحَيْضَ بَيْضَ أَتَيَ  
عَلَى جَرِيٍّ ضَعِيفٍ الْبَطْشِ وَالْجَلْدِ  
فَأَنْشَدَتْ أُمُّهُ مِنْ بَعْدِ مَا احْتَسَبَتْ  
«أَقُولُ لِلْنَّفْسِ تَائِسًا وَتَعْزِيزَةً :  
كَلَاهُمَا خَلْفٌ مِنْ فَقْدٍ صَاحِبِهِ هَذَا أَخْيَ حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلْدِي»<sup>(۲)</sup>  
فَالْبَيْتُانِ الْأَخِيرَانِ لِأَمْرَأَةِ مِنِ الْعَرَبِ قُتِلَ أَخْوَهَا بَنَهَا ، فَقَالَتُهُمَا تَسْلِيَةً لِنَفْسِهَا .

وَأَخْذَ أَبُو الْحَسْنِ حَازِمَ أَعْجَازَ بَعْضِ مَعْلَقَةِ امْرِئِ الْقِيسِ وَضَمِّنَهَا  
شِعْرَهُ ، وَنَقْلَ مَعَانِيهَا إِلَى مَدِيعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :

لِعَيْنِكَ قُلْ إِنْ زَرْتَ أَفْضَلَ مُرْسَلٍ قَيْمَا نَبَكِ مِنْ ذَكْرِي حَبِيبِ وَمَنْزِلِ  
وَفِي طِبَّةِ فَانِزَلَ ، وَلَا تَغْشَ مَنْزَلًا بِسَقْطِ اللَّوْيِ بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

(۱) رد صاحب معاهد التصيص في ۱۷۴ / ۲ الأبيات إلى الصاحب بن عباد، وأورد سبعه أبیات  
تختلف بعض الاختلاف عن الأبيات المذكورة أعلاه.

(۲) تهذيب الايضاح ۳۱۴ / ۱

نَبِيُّ هَذِيْ قَدْ قَالَ لِلْكُفَّارِ نُورٌ  
 أَلَا أَئْهَا اللَّيلَ الطَّوِيلَ أَلَا انْجَلَ  
 تَلَا سُورًا مَا قَالَهَا بِمُعَارِضٍ  
 إِذَا هِيَ نَصَّةٌ وَلَا يَمْعَطُلُ  
 لَقَدْ نَزَلَتِ فِي الْأَرْضِ حُلْلَةٌ هَدِيهٌ  
 لَرْزَلَ الْيَمَانِيِّ ذِي الْعِيَابِ الْمُحَمَّلِ  
 جوازاته

وأجاز العلماء وقوع تغيير يسيراً في البيت المضمن، كقول الشاعر ضياء الدين بن موسى الكاتب في الرشيد عمر الغوي، وكان به داء الثعلب (وتسميه العامة الثعلبة) وهو داء يتاثر منه شعر الرأس والوجه . قال :

أَقُولُ لِمَعْشِرِ غَلِطْلَوَا وَغَضْلَوَا عَنِ الشَّيْخِ الرَّشِيدِ وَأَنْكَرُوهُ  
 «هُوَ ابْنُ جَلَّا وَطَلَاعُ الثَّنَيَا مَتَى يَضَعُ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُوهُ»  
 وأصل البيت :

أَنَا ابْنُ جَلَّا وَطَلَاعُ الثَّنَيَا مَتَى يَضَعُ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي  
 وَهُوَ لِسْحِيمُ بْنُ وَقَيْلٍ، وَالتَّغَيِّيرُ - كَمَا تَرَى - يَسِيرٌ، وَالظَّرِيفُ فِي الْبَيْتِ المضْمَنِ  
 أَنَّ الشَّاعِرَ ضياء الدِّينَ قَصَدَ بِقَوْلِهِ «هُوَ ابْنُ جَلَّا» أَيْ هُوَ رَجُلُ جَلَّا شَعْرُهُ  
 عَنْ رَأْسِهِ، وَبِقَوْلِهِ «طَلَاعُ الثَّنَيَا» مَا يَلَاقِيهِ مِنْ عِذَابٍ سُقُوطُ الشَّعْرِ، وَمِنْ  
 جَمِيلَتِهِ بِرُوزِ ثَنَيَا أَسْنَاهُ، وَيَرَوِي أَنَّهَا كَانَتْ فَعْلًا بَارِزَةً وَقَبِيحةً الْمَنْظَرُ.

### عصر التضمين

وَلَقَدْ أَوْلَعَ الْمُتَأْخِرُونَ بِالْتَّضْمِنِ وَلَعَا بِالْغَا، حَتَّى لَقَدْ عَبَرَ أَحَدُهُمْ ، وَهُوَ  
 مُجِيرُ الدِّينِ بْنِ تَمِيمٍ، عَنْ لِسَانِ حَالِهِمْ فَقَالَ :

أَطَالِلُعُ كُلُّ دِيَوَانٍ أَرَاهُ وَلَمْ أَزْجُرْ عَنِ التَّضْمِنِ طِبْرِي  
 أَصْمَمُنَ كُلُّ بَيْتٍ فِيهِ مَعْنَى فَشِعْرِي نَصْفُهُ مِنْ شِعْرِ غَيْرِي

### تسميات أنواعه

وأخيراً، فلقد فصل بعض العلماء في كمية الماخوذ من شعر الآخرين،  
 وسمّوا ذلك تسميات مختلفة، فإذا كان المضمن بيّاناً وأكثر فهو (الاستعابة)،  
 وإذا كان دون البيت فهو (الإبداع) أو (الرّفو) .. ونعتقد أنّ تسمية الجميع  
 باسم (التضمين) كافية ووافيّة .



القسم الثاني

جماليات في الشكل والأسلوب



## السجع

جاء في الصّاحح ولسان العرب في مادة : « سَجَعٌ » :  
 سَجَعَ يَسْجُعُ سَجْعاً : استوى واستقام وأشباهه بعضه بعضاً.

والسَّجَعُ : الكلام المُفَقَّن  
 والجمع : أَسْجَاعٌ وَأَسَاجِعٌ .  
 وكلام مُسَجَّعٌ .

وسَجَعَ وسَجَعٌ : تَكَلَّمَ بكلام له فواصل كفواصل الشّعر من غير وزن .  
 وصاحبـه : سَجَاعَة .

قال ابن جِنِي : سُمِّيَ سَجَعاً لاشتياه أو اخره وتناسب فواصله .

وقال الرُّمانـي : إِنَّه تَكُلُّفُ التَّقْفِيَةِ مِنْ غَيْرِ تَأْدِيَةِ الْوَزْنِ (١) .

\* \* \*

ويبدو من خلال المعنى اللّغوـيـ لـكلـمةـ « السـجـعـ » وأقوـالـ العـلـمـاءـ أنـ فيـ هـذـاـ اللـونـ مـنـ الـكـلامـ تـشـابـهـاـ فـيـ أـوـاـخـرـ الـعـبـارـاتـ،ـ أـوـ الـفـوـاـصـلـ،ـ وـأـنـ فـيـ ماـ يـشـبـهـ التـقـفيـهـ الشـعـرـيـةـ،ـ وـأـنـ يـشـبـهـ الشـعـرـ فـيـ مـوـسـيقـاهـ دـوـنـ أـنـ يـصـبـ فـيـ قـالـبـ الـوزـنـ العـرـوـضـيـ الشـعـرـيـ .ـ

(١) نهاية الإيجاز ص ١٤٢ .

وتورد المعاجم وكتب البلاغة الحديث النبوى الذى جاء في سُنن أبي داود<sup>(١)</sup> أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قضى في جنين امرأة ضربتها أخرى، فسقطت ميتاً بِغُرْة<sup>(٢)</sup> على جماعة الضاربة. فقال رجل منهم : كيف نَبِيٌّ<sup>(٣)</sup> من لا شَرِب ولا أَكْل ، ولا صَاحَ فاستهَلَّ ، ومِثْلُ دَمِه يُطْلَ<sup>(٤)</sup>؟ قال صلّى الله عليه وسلم : إِيَّاكُمْ وسَجْعَ الْكُهَانَ ، وفي رواية أَنَّه قال : أَسَجَعُ كَسْجَعَ الْجَاهِلِيَّةِ وَكَهَانَتِهَا<sup>(٥)</sup>؟

### السَّجْعُ : بين التحرير والتحليل

ويُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّ كثِيرًا من علماء البلاغة - وهم جمِيعاً من التُّقَى بِمَكَانٍ - توقفوا حين رأوا هذا الحديث الشَّرِيفَ عن وصف كلام الله تعالى ، ولا سيَّما السور المكَيَّة بالسَّجْع ، وأَحْلَوْا مَكَانَهُ هذِهِ الْكَلْمَة لِفَظَة «الْفَاصِلَة» ، أَخْدَأُوا مِن الآية الكريمة ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ . وقالوا : إِنَّ اللَّهَ - جَلَّ جَلَالَهُ - وصف آيات كتابه بـ (فُصِّلَتْ) ولم يقل (سُجَعَتْ) ، وأنَّه تَأدِبَاً مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وتقديرًا وتعظيمًا لِرَسُولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ يَلْزَمُ أَلَا يُطْلِقَ عَلَى مَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ صِفَةَ (السَّجْع) ، وإنَّما نَقُولُ : «الْفَوَاصِلُ الْقَرَآنِيَّةُ» ، وأَكَدَ كثِيرُونَ مِنْهُمْ أَنَّهُ «لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَتَجاوزَ ذَلِكَ» . وأَضَافَ آخَرُونَ : إِنَّ أَصْلَ «السَّجْع» مِنْ «سَجْعِ الطَّيْرِ» . والْقُرْآن يَشْرُفُ أَنْ يُسْتَعَارَ لِهِ لَفْظُهُ هُوَ فِي الْأَصْلِ لِطَائِرٍ ، ولِشَرْفِهِ عَلَى الْكَلِمَاتِ الْحَادِثَةِ يُرَايَ فِيهِ الْأَدْبُ ، فَلَا يُطْلِقُ عَلَيْهَا مَا يُطْلِقُ عَلَيْها ، وَهُوَ «السَّجْع» .

لَكِنَّ عَلَمَاءَ آخَرِينَ فَهَمُوا مِنْ ذَلِكَ الْحَدِيثِ النَّبِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ مَا أَنْكَرَ السَّجْعَ عَامَّةً . وَإِنَّمَا أَنْكَرَ سَجَعًا مُعِينًا كَانَ الْكُهَانُ فِي

(١) الباب التاسع عشر من كتاب الديات.

(٢) بِغُرْةٍ : أي بعنق عبد أو أمَةٍ .

(٣) نَبِيٌّ : من وَدِي أي دفع الدينة .

(٤) يُطْلَ : من طَلَ دَمَهُ أي أهدره .

(٥) انظر الصحاح ، ولسان العرب : مادة (سجع) وخزانة الأدب ص ٤٢٣ ، وعتمود الجمان ١٧٨ / ٢٠ ، والطراز / ٣ ، ونهاية الإيجاز ص ١٤٢ .

(٦) سورة فصلت ، الآية ٣ .

(٧) انظر خزانة الأدب وعتمود الجمان في نفس الصفحات المشار إليها سابقاً .

الجاهلية كشِقٌ وسَطْبِحٌ وَمُسَيْلَمَةٌ وَغَيْرُهُمْ يَسْتَخْدِمُونَهُ، وَيُخْبِرُونَ بِهِ عَنِ الْأَمْوَالِ الْغَيْبِيَّةِ، وَالْحَوَادِثِ الْكُوْنِيَّةِ، وَالْأَوْهَامِ الظَّنِّيَّةِ، فَيَكْذِبُونَ وَيُؤْقِعُونَ النَّاسَ فِي الْأَحَابِيلِ وَالْمَهَالِكِ.

وَرُوِيَّ عَنِ الْبَاقِلَانِيِّ رَأْيَانِ مُتَبَاينَانِ . فِي كِتَابِهِ «إِعْجَازُ الْقُرْآنِ» عَقَدَ فَصْلًا بِعْنَوَانِ «فَصْلٌ فِي نَفْيِ السَّجْعِ مِنَ الْقُرْآنِ» ثُمَّ أَوْرَدَ السُّيوْطِيَّ أَنَّهُ وَجَدَ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّىِ «الْأَنْتَصَارِ» الْخَلَافُ فِي جَوَازِ تَسْمِيَةِ بَعْضِ الْفَوَاصِلِ الْقُرَآنِيَّةِ سَجْعًا، وَأَنَّهُ رَجَحَ فِيهِ حَوَازِرَ تَسْمِيَتِهَا بِذَلِكِ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ سَنَانَ الْحَفَاجِيَّ، وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ السَّجْعِ : هُوَ مُحَمَّدٌ، لَكِنْ لَا عَلَى الدَّوَامِ، وَلَذِكْ لَمْ تَجِئِ فَوَاصِلُ الْقُرْآنِ كُلُّهَا عَلَيْهِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ ابْنُ النَّفِيسِ : يَكْفِي فِي حُسْنِهِ وَرُوْدُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِهِ، وَلَا يَقْدَحُ فِي ذَلِكَ خُلُوًّا بَعْضِ الْآيَاتِ عَنْهُ، لِأَنَّهُ قَدْ يَقْتَضِي الْمَقَامَ الْأَنْتَقَالِ عَنِ الْحَسَنِ إِلَى الْأَحْسَنِ<sup>(٣)</sup>.

وَاسْتَدَلَ بَعْضُ آخِرٍ عَلَى جَوَازِهِ فِي الْقُرْآنِ بَعْدِ مَنْ الشَّوَاهِدُ وَالْأَدْلَةُ مِنْهَا: أَنَّ الْكُلَّ مُتَفَقُونَ عَلَى أَنَّ مُوسَىً أَفْضَلُ مِنْ هَرُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَلِمَكَانِ السَّجْعِ فِي سُورَةِ طَهِ تَقْدُمُ ذِكْرُ هَرُونَ عَلَى مُوسَى<sup>(٤)</sup> رِعَايَةً لِلْفَاصِلَةِ أَوْ «السَّجْعِ» أَوْ لِلْنَّغْمَةِ الْإِيقَاعِيَّةِ لِلْآيَاتِ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ يُقَالُ عَنْ تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ «خِيفَةً» عَلَى الْفَاعِلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾<sup>(٥)</sup>.

كَذَلِكَ الْأَمْرُ فِي حِذْفِ الْمَفْعُولِ فِي سُورَةِ «الْضَّحَى» حِيثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾<sup>(٦)</sup> وَالْأَصْلُ : «وَمَا قَلَاكَ». فَحُذِفَتِ الْكَافُ :

(١) عَقُودُ الْجَمَانِ / ٢٧٩ ، وَتَهْذِيبُ الْإِيْضَاحِ / ١٢٣.

(٢) عَقُودُ الْجَمَانِ / ٢٧٨ .

(٣) عَقُودُ الْجَمَانِ / ٢٧٨ .

(٤) سُورَةُ طَهِ، الآيَةُ ٧٠ وَهِيَ فَأْلَيْتِي السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾.

(٥) سُورَةُ طَهِ، الآيَةُ ٦٧ . وَانْظُرْ: الْبَيَانُ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ لِلْأَنْبَارِيِّ / ٢١٤ .

(٦) سُورَةُ الضَّحَىِ، الآيَةُ ٣ .

انسجاماً مع سياق الآيات : ﴿ وَالضَّحْنِي، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى، وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ... ﴾ .

وقد صرَفَ ما لا ينصرف رَعْيَاً للفاصلة القرآنية ، أو للسَّجع في قوله تعالى في سورة الإنسان : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَيْنَةٍ مِنْ فَضْلَةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا . قَوَارِيرَ مِنْ فَضْلَةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا ١١ ﴾ .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا : إنَّ كثيراً من السُّور القرآنية المكَيَّة فاضت بهذا الكلام المدقى ، المتناسب الأواخر .. ودليلًا على ذلك نقرأ سورة «النَّجْم» فنجد من آياتها ﴿ وَالنَّجْمٌ إِذَا هَوَى . مَاضِلٌ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنْطَقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى . ثُمَّ دَنَّا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . ٢٢ ﴾ .

وفي سورة المُدَثَّر : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَثَّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبُّكَ فَكَبِرْ . وَثَيَابَكَ فَطَهَرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْكُنْ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ٢٣ ﴾ .

وفي سورة المُزَمَّل : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَمَّلُ . قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوْ أَنْفُصُهُ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زَدْ عَلَيْهِ وَرَأَى الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا . إِنَّ نَاسِيَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطَأً وَأَفْوَمُ قِيلًا . إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبَحا طَوِيلًا ٢٤ ﴾ .

وفي سورة التَّكَوِير : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوَرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ . وَإِذَا الجَبَالُ سُرِّتْ . وَإِذَا العِشَارُ عُطَلَتْ . وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرتْ . وَإِذَا الْبَحَارُ سُجَرَتْ . وَإِذَا الْقُوَسُ زُوَجَتْ . وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلتْ . بَأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ . وَإِذَا الصُّحْفُ نُشِرتْ ، وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ . وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ . وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلَفَتْ . عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ٢٥ ﴾ .

(١) سورة الإنسان ، الآيات ١٥ و ١٦.

(٢) سورة النَّجْم ، الآيات ١ - ١١.

(٣) سورة المُدَثَّر ، الآيات ١ - ٧.

(٤) سورة المُزَمَّل ، الآيات ١ - ٧.

(٥) سورة التَّكَوِير ، الآيات ١ - ١٤.

وفي سورة الفجر: ﴿وَالْفَجْرِ. وَلَيَالٍ عَشْرِ. وَالشَّفْعَ وَالوَثْرِ. وَاللَّيْلِ إِذَا  
يَسِرِ. هَلْ فِي ذَلِكَ قَسْمٌ لِنَوْيِ حِجْرٍ. أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ. إِرْمَ ذَاتِ  
الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُحِلْهُ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّحْرَ بِالْوَادِ.  
وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأُونَادِ﴾ ..

وفي سورة الشمس: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا.  
وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا. وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا  
طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَاهَا. فَاللَّهُمَّ فُجُورُهَا وَتَقْوَاهَا . ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَاهَا.  
وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَاهَا. كَذَبَتْ ثَمُودُ بَطَغْوَاهَا. إِذَا ابْعَثَ أَسْقَاهَا. فَقَالَ لَهُمْ  
رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا. فَكَذَبُوهُ فَعَقَرُوهَا. فَدَمِدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ  
فَسَوَاهَا. وَلَا يَخَافُ عُقَبَاهَا﴾ ..

إن الشواهد كثيرة، وكثيرة جداً من القرآن العظيم، وكلها تؤيد وجود هذه الفاصلة المموضقة، أو هذه السجدة المنغمة، التي تملأ القلب طرباً ورها، والأذن فرحاً وهاماً ..

وكذلك الأمر في الأحاديث النبوية الشريفة، وبخاصة ما كانت أدعية وابتهالات .. منها قوله صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ أَنْتَ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمُوْلَاهَا<sup>(۱)</sup>). وقوله صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ  
نَفْسٍ لَا تُشَبِّعُ، وَمِنْ دُعَوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا<sup>(۲)</sup>) ..

وقوله صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ  
تُوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَبْتَتُ، وَبِكَ خَاصَّتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ  
وَمَا أَخْرَجْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمَقْدَمُ، وَأَنْتَ الْمَؤْخَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا  
أَنْتَ<sup>(۳)</sup>). ومنها دعاؤه صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْرَأُ بِكَ فِي

(۱) سورة الفجر، الآيات ۱ - ۱۰ ..

(۲) سورة الشمس، الآيات ۱ - ۱۵ ..

(۳) الأذكار للنووي ص ۳۳۵ ..

(۴) متفق عليه، الأذكار للنووي ص ۳۳۵ ..

(۵) صحيح البخاري (الباب السابع والعشرون من كتاب الزكاة) صحيح مسلم (الباب السابع =

نحورهم ، وأعوذ بك من شرورهم<sup>(١)</sup> . قوله صلى الله عليه وسلم : (اللهم اقبلْ نوبيِّي ، واغسلْ حُوبيِّي<sup>(٢)</sup> ) . قوله صلى الله عليه وسلم : (اللهم أعطِ منفقاً خلفاً ، وأعطي مُمسكاً تلفاً<sup>(٣)</sup> ) .

وفي خطب الصحابة الكرام من هذا اللون كثير، وفيه من «نهج البلاغة» الذي جمع خطب علي بن أبي طالب بالسجع الجميل ، والفن الرفيع البديع . . من ذلك قوله<sup>(٤)</sup> : (أما بعد، فإن الدنيا قد أدبرت، وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أشرفت باطلاع، ألا وإن اليوم المضمار<sup>(٥)</sup> ) وغداً السباق، والسبقة<sup>(٦)</sup> الجنة ، والغاية النار، أفلأ تائب من خططيته قبل منيته، ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه؟ . . وقوله في خطبة أخرى يحث على الجهاد ويلوم الذين تخلفوا عنه . . (يا أشباء الرجال ولا رجال، حُلُوم الأطفال، وعقول ربات العِجَال، لو ددتْ أني لم أركم، ولم أعرفكم ، معرفة والله جرأت ندماً ، وأعقبت سدماً<sup>(٧)</sup> . . ) .

ولو تابعنا الاستشهاد عبر الزمان لوجدنا شيئاً كثيراً، لا يدخل تحت حصر، ومررنا في طريقنا على أدب المقامات والإخوانيات والرسائل والمواعظ . .

ولعلنا بعد هذا التوسيع في إيراد الشواهد نصل إلى حكم عادل منصف على هذا اللون من الجمال البديع ، خلاصته أن السجع بحد ذاته بما يحمل من نغمة إيقاعية تطرب لها النفس ، وتستسighها الأذن، ليس حراماً ولا

= والخمسون من كتاب الزكاة، مستند أحمد ٢/٣٠٦ و ٣٤٧ / ٥ ، الأذكار للنووي ص ٣٣٦ .

(١) الباب الثلاثون من كتاب الوتر في سنن أبي داود، و ٤١٤ و ٤١٥ من مستند أحمد بن حنبل .

(٢) رواه ابن ماجه في باب الدعاء ، وأبو داود في باب الوتر ، والترمذى في الدعوات .

(٣) رواه أبو داود في باب الوتر ، وأحمد بن حنبل ٤/٤١٤ و ٤١٥ .

(٤) نهج البلاغة ١/٨٨ (طبعة مكتبة الأندلس بشرح محمد عبده ، وإشراف عبد العزيز سيد الأهل)

(٥) المضمار: ميدان الخيل الذي فيه تجري وتضرم لتكون خفيفة اللحم ، قادرة على السبق .

(٦) السبقة: ما يترافق عليه أهل السباق من جوائز . والعبارة تعنى أن جائزة السابقين الجنة . والمتخلفين النار .

(٧) نهج البلاغة ١/٨٧ .

مستكرّهاً.. ولو كان كذلك لما فاض به كثير من السُّور القرآنية والأدعية النبوية . والخطب الرَّاشدية وأقوال الأدباء والصالحين من الناس ..

وكانَ الاعتراض الذي لمحناه في حديث رسول الله صَلَى الله عليه وسَلَّمَ حين قال لذاك السَّجّاغة «أَسْجَعُ كَسْجِعَ الْجَاهِلِيَّةِ؟» ينطوي على رغبته صَلَى الله عليه وسَلَّمَ باستنكار أساليب الكهنة والسَّحرة المضللين ، فقد كانوا يتخدون هذا الأسلوب - وحده - ليُضْلِلُوا النَّاسَ ، ويَطْمَسُوا عَلَى عِيُونِهِمْ وقلوبِهِمْ ، ويحرفوهم عن سواء السَّبيل ، ويوحّوا إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الغَيْبَ ، وَالغَيْبُ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، فلقد روى عَلَى لسان سَطِيعٍ - وهو أحد كهنتهم - قوله : (أَقْسِمُ بِمَا بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ مِنْ حَنَشَ ، لَتَهِطْنَ أَرْضَكُمُ الْجَبَشِ ، فَلَيَمِلِّكَنَّ مَا بَيْنَ أَبْيَنَ إِلَى جَرَشَ . . .) . ولقد كذب سطيع في قسمه السَّخيفِ ، وكذب فيما أقسم عليه فلم تملك الحبش أرضَ العَربَ ، ولم ينزلوا ما بين أَبْيَنَ إِلَى جَرَشَ - رغم سجعه - .

ذلك كذب الكاهن الآخر المسمى (شق) حين أقسم كاذباً فقال : (أَقْسِمُ بِمَا بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ مِنْ إِنْسَانٍ ، لَيَنْزَلِنَّ أَرْضَكُمُ السُّودَانَ ، فَلَيَغْلِبُنَّ عَلَى كُلِّ طَفْلَةِ الْبَنَانِ ، وَلَيَمْلِكُنَّ مَا بَيْنَ أَبْيَنَ إِلَى نَجْرَانَ) .

لقد ادعى شق علم الغيب ، كما ادعاه سطيع ، ولقد كذب شق وكذب سطيع ، فلم يملك الحبش ؛ ولا السُّودانَ أرضَ العَربَ ، ولا غلبوا على أحد.

إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَارَبَ كُلَّ مَعْقَدَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَوَقَفَ فِي وَجْهِ كَهَنَتِهَا وَأَسَاطِيرِهَا وَخَرَافَاتِهَا وَأَسَالِيبِهَا . . .

ولئن كان سطيع وشق وسجاح ومسيلمة وسواهم يكتسبون على الناس ويصوغون أكاذيبهم بلون معين من الصياغة المسجعة .. إنَّه - عليه السلام - حارب الأكاذيب والأسلوب الخاص الذي صيغَتْ به .

ويخيل إلينا أنَّ العلماء رأوا أنَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يحارب السُّجَعَ لِأَنَّهُ سجع فحسب ، أو لأنَّه لون من ألوان الصياغة والجملة ، بل حارب المضمون الفكري الذي كان السُّجَعَ رداءه ومظهِره .

ونحن نميل إلى هذا الاتجاه، ويغلب على ظننا أن المظهر ليس محل اعتراض ولا موطن جدل، وإنما الجوهر والمضمون.. وإذا كان الجوهر طيباً فإن لياسه يكون طيباً.. وإذا كان الجوهر خبيثاً امتد الخبث إلى الظاهر كذلك، كالبُعْرَة إن طُلِيت بالذهب، تَفَهَّمَ الباطن، فانتقلت التفاهة إلى الظاهر.

ذلك منطق العقل واتجاه الحكم السليم.. إذ ليس من المعقول أن **شَنَنَ** الحرب شعوأ على ما تمثل إليه فطرة الكائنات جميعاً، بشراً، وحيواناً، ونباتاً.

**السَّجَعُ** إيقاع محبب إلى النفس.. والقلب.. وكأنه تمهد للشعر، وصورة مصغررة عنه.. يحبه الرجل كبيراً، ويائس إليه صغيراً، بل لا يكاد **الطَّفَلُ** يغفو في حضن أمّه إلا إذا هدَّهَتْهُ بأنشودة مسجوعة، إيقاعية، رتبية النغمات.

والحداء الذي يُنسِّدُهُ الحادي للإبل حتى تسرع وتطير.. وتکاد تتقطّع أوداجها من شدة سرعتها وهي لا تدرى، ما دامت تسمع الحادي يشفّف مسامعها بذبب إيقاعه وصوته الرخيم..

وما بال الطير التي تسقط في أحضان أصحاب الأصوات الرخيمة، والأناشيد البدوية؟

بل لماذا يزداد دُرُّ حليب البقر إذا سمعت الموسيقى الشجّية، والأغام البدوية؟

ولماذا ينمو النبات بسرعة أكبر لو كانت الموسيقى صدّاحة تتموج فوق ذلك النبات؟

إن الفطرة في كل عناصر الحياة مع النغمة الشجّية واللحن الجميل.. وإذا كان في **السَّجَع** شيءٌ من هذا التّنغيّم البديع فمرحباً به وأهلاً.. وأمّا إذا كان نَسَازاً معتلاً فلا مرحباً ولا أهلاً.

وعلى هذه المبادئ اعتمد البلاغيون البيان التالي ليكون **السَّجَع** مقبولاً محوباً:

## شروط السجع

- ١ - أن تكون ألفاظ العبارة المسجوعة صصيحة . . تتصف بكونها حلوة المذاق ، رنانة ، تشتف الآذان ، وتعذب على اللسان ، وتكون واضحة في البيان .
- ٢ - أن تكون الألفاظ تابعة للمعنى ، خادمة له ، لا أن يلتوي المعنى ليكون تابعاً لها أو خادماً .
- ٣ - أن تكون الفقرة الثانية من السجع حاملة معنى جديداً غير الذي حملته الفقرة الأولى ، وإلاً كان الكلام حشوأ وثرة .
- ٤ - ألا تزيد عدد الفقر الممتليء بإيقاع واحد عن سجعتين أو ثلاث ، فإذا توالت الفقر على نغمة واحدة ، ووتيرة مماثلة أدت إلى الممل ، وفاحت منها رواح الكلفة .
- ٥ - أن تكون فقر السجع قليلة ، قصيرة الترکيب . . وخيرها ما تركب من كلمتين ، أو ما زاد عليهما بقليل .
- ٦ - خير السجع ما تساوت فقره ، فإن لم تتساو ، مما زادت التالية على سابقتها بقليل لثلاً تضيع لذة الإيقاع .
- ٧ - أن يوقف على نهاية كل فقرة بالسَّاكن ، وإنما أضعاع الإعراب نغمة الإيقاع .
- ٨ - يسامح السجاع في تغيير لفظة الفاصلة كي تتوافق أختها ، ويعامل صاحبها كما يعامل الشاعر ، إذ يجوز له ما لا يجوز لسواء .

## أقسام السجع

للسجع ثلاثة أقسام .

- ١ - **السجع المتوازي** : وهو ما اتفقت أعيجاز فواصله في عدد الحروف ، والوزن ، والروي ، كقوله تعالى : ﴿ فيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ، وأكوابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ .

(١) سورة الغاشية ، الآياتان ١٣ و ١٤ .

٢ - السَّجْعُ المَطْرَفُ : وهو ما اتفقتْ أَعْجَازُ فواصِلِهِ فِي نَوْعِ الْحُرُوفِ فَقْطُ ، وَأَخْتَلَفَتْ فِي عَدْدِهَا وَوْزُنِهَا . كَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ اللَّهَ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقْتُمْ أَطْوَارًا ﴾<sup>(١)</sup> .

٣ - السَّجْعُ الْمُتَوَازِنُ : وهو ما اتفقتْ أَعْجَازُ فواصِلِهِ فِي عَدْدِ الْحُرُوفِ ، وَوْزُنِهَا ، وَأَخْتَلَفَتْ فِي حِرْفِ الرَّوْيِ . كَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ . إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

---

(١) سورة نوح ، الآيات ١٣ و ١٤ .

(٢) سورة الطارق ، الآيات ٢ - ٤ .

## الترصيع

الترصيع في اللغة: وضع الجواهر والأحجار الكريمة في الذهب.

و معناه في البلاغة: أن يقسم الكاتب أو الشاعر عباراته إلى أقسام منفصلة، ثم يجعل كل لفظ منها في مقابل لفظ آخر، يتافق وإياها في الوزن و حروف الرّوي.

و إذا تحدثنا في التّش فقلنا: «حرّوف الرّوي» فما ذلك إلا من باب التّوسيع، لأنّ حرّوف الرّوي لا تكون في الحقيقة إلا في الشعر.

ومثال التّرصيع في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ  
الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَّاهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

ومثاله من الكلام النّبوي: اللّهم اقبلْتَ توبتي، واغسلْ حوتبي.

ومثاله من نثر الفصحاء: العاقل يفتخر بالهمم العالية، لا بالرمم  
البالية.

(١) سورة الانفطار ، الآيات ١٣ و ١٤ .

(٢) سورة الغاشية ، الآيات ٢٥ و ٢٦ .

ومثاله من الشعر قول أبي فراس :

وأفعاله بالرغبين كريمة وأمواله للطَّالبين نهاب  
وقول ابن الْبَيْهِيْ :

فحريق جمرة سيفه للمعتدي ورحيق خمرة سيف للمعنتي

ومن رسائل أبي حمزة الأهوازي<sup>(١)</sup> المرصعة : «الحمدُ لله الدائم  
بقاوه ، اللازم قضاوه ، الثاقب برهانه ، الغالب سلطانه . الذي أيدَ الدينَ بعدَ ما  
ولَّتْ ولاته ، واستولت عِداته ، وتضعضعت أركانه ، وتصعّصتْ أعوانه ،  
وانقضَّتْ كواكبَه ، وانفضَّتْ كتائِهُ ، وَذَلَّ نصيره ، وَقَلَّ مجده ،  
بغِيثِ الحياة ، ولِيثِ القضاء ، وَكُنْهِ الآمال ، ووجهِ الأبطال ، وقلبِ  
الإِقدام ، وقطبِ الإِسلام ، ولبابِ الْعُلَى ، ونصابِ التَّقَى ، الداعي إِلَيْهِ ،  
وصلواتِه عليه حمدًا لا يُفْنِي مَدَدَه ، ولا يُحصِي عَدَدَه ، وإِلَيْهِ الرغبة في  
الصلَاة على مجلَّي الْعُمَّة ، ومنجيَ الأُمَّة ، محمدٌ وآلُه الطَّاهِرِين ، وأصحابِه  
الزَّاهِدِين . . . . » .

\* \* \*

(١) هو أبو الحسن محمد بن الحسن الأهوازي . كان شاعرًا وأديباً وكاتباً ومن المعاصرين للشعالي  
صاحب «يتيمة الدهر» . (حدائق السحر ص ٩٠) .

## الجنس

ويسميه بعض المؤلفين «التجانس» أو «التجنيس» أو «المجانسة». وسمّاه قدامة بن جعفر «الطباق» ولم يأخذ بتسميته أحد سواه.

### الجنس : في اللغة :

مأخوذه من الكلمة «الجنس» وهي كما شرحها الصحاح ولسان العرب والمُحْكَم : الضرب من كل شيء، وهو أعم من النوع.

وزعم ابن دريد أن الأصمعي كان يدفع قول العامة : هذا مجанс لهذا، إذا كان من شكله، ويقول : إنه مولد، وليس بعربيٌ فصيح.

### والجنس : في البلاغة :

ينطلق من مبدأ التّماثيل. ويرى أرباب هذا الفن أنَّ الجنس الكامل التّام يقوم على أن تصلح اللّفظة لمعنىَيْ مختلفين . فالمعنى الذي تدلّ عليه هذه اللّفظة هي بعينها تدلّ على المعنى الآخر من غير مخالفة بينهما ، فلما كانت اللّفظة الواحدة صالحة لهما جميعاً كان «جنساً».

### الجنس : في رأي العلماء بين القبول والرفض :

ويستحسن فريق من العلماء وجود الجنس في الكلام ويراه كالغُرّة في

وجه الفَرَس<sup>(١)</sup> بينما يرى فريق آخر أنه يؤدي إلى العقاده والتقييد عن إطلاق عِنان الفكر، ولهذا يقول ابن حَجَّةُ : أمّا الجناس فإنه غير مذهبي ومذهب من نسجت على مِنواله من أهل الأدب<sup>(٢)</sup>. وينقل رأي ابن رشيق فيه حيث قال : هو من أنواع الفراغ وقلة الفائدة ، ومما لا يُشكُّ في تكليفه ، وقد كثُر منه هؤلاء السَّاقَةُ المتعقبون حتى بَرَدَ وَرَكَ<sup>(٣)</sup> . ويُعود ابن حَجَّةُ فيقول : ولم يَحْتَجْ إليه بكثرة استعماله إلاّ من قصرت همته عن اختراع المعاني التي هي كالنجوم الظاهرة في أفق الألفاظ ، وإذا خَلَّت بيوت الألفاظ من سُكَان المعاني تنَزَّلت منزلة الأطلال البالية<sup>(٤)</sup> . وقد حمل ابن حَجَّةُ على الصَّفْدي الذي أَلْفَ كتاباً بعنوان «جَنَانُ الْجِنَاسِ» فقال عنه : وكان الشَّيخُ صلاحُ الدِّينِ الصَّفْدي يَسْتَسْمِنُ وَرَمَهُ ، ويظُنُّه شَحْمًا ، فَيُشَبِّهُ أَفْكَارَهُ مِنْهُ ، وَيَمْلأُ بَطْوَنَ دَفَاتِرِه ، وَيَأْتِي فِيهِ بِتَرَاكِيبٍ تَخْفِيْفَ عَنْهَا جَلَامِيدُ الصَّخْورِ<sup>(٥)</sup> .

قال الأمير ابن سنان الخفاجي الحلبي كلمة عَدْلٌ فيه ذكر أنَّ هذا التجنيس إنما يَحْسُنُ في بعض المواقع إذا كان قليلاً غير متكلف ، ولا مقصوداً في نفسه ، وقد استعمله العرب المتقدمون في أشعارهم ، ثم جاء المُحدِّثُون فلهجَ به منهم مُسْلِمُ بن الوليد الأنباري وأكثر منه ، ومن استعمال المطابق والمخالف ، وهذه الفنون المذكورة في صناعة الشعر حتى قيل : إنَّه أول من أفسد الشعر ، وجاء أبو تمام حبيب بن أوس بعده فزاد على مُسْلِمٍ في استعماله والإكثار منه حتى وقع له العَجَيدُ والرَّدِيءُ الذي لا غايةٌ وراءَه في القبح<sup>(٦)</sup> .

ويبدو لنا أنَّ الأمير الخفاجي معتدل الرأي في قوله «إنما يَحْسُنُ إذا كان قليلاً غير متكلف ، ولا مقصوداً في نفسه» قوله هذا يسري على كلَّ ألوان البيان والبديع . فالاعتدا مطلوب في كلِّ شيء ، حتى في المحنة ، فنحن

(١) الطراز ٢ / ٣٥٥.

(٢) خزانة الأدب ص ٣٠.

(٣) خزانة الأدب ص ٣١.

(٤) خزانة الأدب ص ٣١.

(٥) خزانة الأدب ص ٣١.

(٦) سر الفصاحة ص ١٨٣ وتهذيب الإيضاح ١ / ٢٥٥.

مأمورون أن نحب حبيبنا هوناً ما، وأن نبغض بغيضنا هوناً ما .. والصنعة البديعية جزء من هذا الكل، لا تكون مقبولة إلا إذا كانت جارية مع الطبع، وملائمة للمعنى، وبعيدة عن كل تكلف وتعسّف، ولا يشتم منها رواحة الجهد والعرق.

وقد قال ابن الوردي في هذا المعنى :

إذا أحببتَ نَسْمَ الشَّعْرِ فَاخْتُرْ لِنَظِيمَكَ كُلَّ سَهْلٍ ذِي امْتِنَاعٍ  
وَلَا تَقْصِدْ مُجَانَسَةَ وَمَكْنُونَ قَوَافِيهِ، وَكُلْهُ إِلَى الطَّبَاعِ

\* \* \*

## أقسام الجناس

ينقسم الجناس إلى قسمين : جناس تام ، وجناس غير تام .

### ١ - الجناس التام

وهو أن تتفق فيه الكلماتان في نوع الحروف ، وترتيبها ، وعددها ، وحركاتها ؛ ولا تختلفان إلا في المعنى .

ونستطيع أن نشبّه هذا الجناس التام بكفنا اليمنى إذا وضعناها على كفنا اليسرى . . فالإبهام الأيمن يقابل الإبهام الأيسر ، وكل إصبع تقابله مثيلتها في الكف الثانية ، وتنطبق الأولى على الثانية محققتين توازناً وتماثلاً كاملين . . عدد الأصابع متساوٍ ، ترتيب الأصابع واحد ، نوع الأصابع متفق ، لون البشرة واحد .

وليس الجناس التام صورة واحدة ، وشكلاً واحداً ، وإنما هو على صورٍ شتى وأشكال متعددة .

فقد تكون الكلماتان من نوع واحد ، حيث الأولى اسم والثانية مثلها . . أو تكون الأولى فعلًا والثانية فعلًا كذلك . وقد أطلق عليه أرباب هذا العلم اسم «المُمَاثِل» وضرروا عليه مثلاً بالآية الكريمة في قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾<sup>(١)</sup> فـ«الساعة» الأولى هي يوم

(١) سورة الروم . الآية ٥٥ .

القيامة . و «السّاعة» الثانية هي الزّمن المحدود بستّين دقيقة زمنية .  
وليس تعريف الكلمة (السّاعة) الأولى ، وتنكير (ساعة) الثانية بضائور في  
الجنس التّام ، كذلك اختلاف موقع كلّ من الكلمتين في الإعراب غير  
ضائور .

وعلى هذا المقياس ندرج تحت بند «المماثل» في الجنس التّام  
العبارات التّالية : لَوْلَا اليمين لَقَبَتُ مِنْهُ اليمين<sup>(١)</sup> . وما ملأ الرّاحَةَ مِنْ  
استوطنَ الرّاحَة<sup>(٢)</sup> .

وقول أبي تمام :

إذا الخيلُ جاءت قسطلَ الحَربِ صَدَعُوا صُدُورَ العَوَالِيِّ في صُدُورِ الْكَنَائِب<sup>(٣)</sup>

وقول آخر :

يَا إِخْرَتِي مُذْ بَاتَتِ الثُّجُبُ وَجَبَ الْفُؤُادُ، وَكَانَ لَا يَجِبُ  
فَارْفَتُكُمْ، وَبَقِيتُ بَعْدَكُمْ مَا هَكُذا كَانَ الَّذِي يَجِبُ<sup>(٤)</sup>

\* \* \*

وقد تكون الكلمتان مختلفتين ، حيث الأولى اسم والثانية فعل ، أو  
العكس ، وقد سمي العلماء هذا النوع «المُسْتَوْفَى» ومثاله قول شاعر :

إذا رَمَاكَ الدَّهْرُ فِي مَعْشَرِ قد أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى بَغْضِيهِمْ  
فَدَارِهِمْ مَا دَمْتَ فِي دَارِهِمْ وَأَرْضِهِمْ مَا دَمْتَ فِي أَرْضِهِمْ  
ف «دارِهِمْ» و «أَرْضِهِمْ» فعلاً أمر من (دارِي) و (أَرْضِي) . وهما في  
الثانية أسمان مضافان إلى ضمير الغيبة الجماعي .

(١) اليمين الأولى : القسم ، واليمين (الثانية) : اليد .

(٢) الرّاحة (الأولى) : راحة اليد ، والرّاحة (الثانية) عكس الجهد والاجتهد .

(٣) الصَّدُورُ (الأولى) : أعلى الرّماح . و (الثانية) التّحور والرّقاب . (ديوانه ص ٤٢) .

(٤) يَجِبُ (في البيت الأول) بمعنى الخفقان . ويَجِبُ (في البيت الثاني) بمعنى الوجوب .

ومثله كذلك ما نظمه الشاعر المعروف بالمغربي إذا قال<sup>(١)</sup> :

لَوْ زَارَنَا طِيفُ ذَاتِ الْخَالِ أَحْيَانًا وَنَحْنُ فِي حُفَرِ الْأَجَدَاثِ أَحْيَانًا  
 تَقُولُ: أَنْتَ امْرُؤٌ جَافِي، مُعَالِطَةٌ فَقَلْتَ: لَا هَوَّمْتَ أَجْفَانَ أَجْفَانًا  
 لَمْ يَقُلْ غَيْرَكُ إِنْسَانٌ يُلَادُ بِهِ فَلَا بَرْحَتٌ لِعِينِ الدَّهْرِ إِنْسَانًا  
 فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ شَاهِدٌ عَلَى الْجَنَاسِ الْمُسْتَوْفَى، لَأَنَّ «أَحْيَانًا» الْأَوَّلِي  
 اسْمٌ، وَبِمَعْنَى بَعْضِ الْأَوْقَاتِ. وَ«أَحْيَانًا» الثَّانِيَةُ فَعَلَ مَاضٍ.

وفي البيتين الثاني والثالث شاهدان على الجناس المماثل بين «أجفان» وأجفاناً وبين «إنسان وإنساناً»<sup>(٢)</sup> فكلا اللفظين اسم، أما معناهما ف مختلف .

وقد يتتفق في الجناس التَّام أن تكون الكلمة الأولى مفردة، والثانية مركبة من كلمتين .. لكن صورة كتابتهما واحدة ، وجرسهما في الأذن واحد ..

هذا اللون دعاه العلماء بـ «المتشابه». ومثلوا له بقول الشاعر:

عَضْنَا الدَّهْرُ بِنَابَةٍ لَيْتَ مَا حَلَّ بِنَا بِهِ  
 وقول أبي الفتح البستي :

إِذَا مَلِكَ لَمْ يَكُنْ ذَاهِبٌ فَدَعْهُ، فَدَوْلَتُهُ ذَاهِبَةٌ  
 وجاء في ديوان ابن رشيق قوله<sup>(٥)</sup> :

(١) الطراز ٢/٣٥٨، وفي معاهد التصيص تجد الأبيات منسوبة إلى الغزوي ٢/١٧.

(٢) الأجفان (الأولى): أغطية العين من اللحم . وأجفان (الثانية) من الجفاء . وإنسان (الأولى) واحد البشر والناس . وإنسان (الثانية) يؤثر العين .

(٣) بنابة (الأولى) كلمة واحدة ، ولا عبرة للضمير الهاء المضاف إليه . والناب : هو بمقام السن ومعناها ، ويكون للإنسان والحيوان . وبنابة (الثانية) مكونة من كلمتين كل منها جار و مجرور . (بنا) و (به) .

(٤) الشاعر هو علي بن محمد المعروف بأبي الفتح البستي . و قوله «ذاهبة» في الشطر الأول بمعنى : صاحب هيبة وعطاء . و قوله «ذاهبة» في الشطر الثاني بمعنى فانية وهو مفرد ، والأول مركب ، مع انتقامهما في الخطأ وصورة الكتابة . تهذيب الصحاح ١/٢٤٠ ويتيمة الدهر ٤/٢٠٢ .

(٥) نقلًا عن كتاب : زخارف عربية للدكتور نور الدين صمود . نشر الشركة التونسية للتوزيع ص ٥٣ .

رَمَى حَرَّ قَلْبِي بِأَجْفانِهِ  
 وَقَدْ كَانَ قَدْمَ إِحْسَانِهِ  
 وَهَلَّمْ بُيَانَ صَبَرِي بِهِ  
 لَئِنْ كَانَ حَرَّمَ مِنْ أُنْسِهِ  
 وَإِنْ كَانَ أَضْرَمَ نَارَ الْجَوَى  
 فَتَسْلِيمُ أَمْرِي بِهِ لِلْقَضَا

رَشاً مَا دَرَى «قَذَرَ مَا قَدْ رَمَى»  
 وَكَنَّهُ «قَدَ مَا قَدَّمَا»  
 فَمَا أَحَدٌ «هَذَا مَا هَدَّمَا»  
 حَلَالًا فِيَا «حَرَّ مَا حَرَّمَا»  
 فَلَا أَشْتَكِي «ضُرُّ مَا ضَرَّمَا»  
 ذَخَرْتُ بِهِ «أَجْرٌ مَا أَجْرَمَا»

الأبيات بادية التَّكْلُفُ ، ليس فيها من الشَّاعرية والصدق أثر ، ولكنَّ  
 الصنعة البدعية فيها غالبة ، فلقد استطاع النَّاظم أن يُجَانِسَ بين كلمتينِ في  
 نهاية كلَّ بيت ، ويجعل إحداهما مفردة ، والثانية مركبة إلَّا الْبَيْتُ الْأَوَّلُ إِنَّ  
 كلمتي الجناس في شطْره الثَّانِي مركبتان .

وقد تكون الكلمة الأولى مفردة ، والأخرى مركبة ، وجَرْسُهُما في الأذن  
 واحد ، لكنَّ صورة كتابتهما مختلفة ، وهذا اللُّون دعاء العلماء بـ «المفروق»  
 وضرروا عليه أمثلة كثيرة . منها :

قال أحدهم في وصف كاتب :

وَإِنْ أَقْرَرَ عَلَى رِيقَ أَنَامِلِهِ أَقْرَرَ بِالرِّقَّ كِتَابُ الْأَنَامِ لَهُ  
 الجناس المفروق بين «أنامله» و «الأنام له» وهما متتفقان في كلَّ شيء  
 إلَّا في صورة الكتابة .

وقول الحريري في إحدى مقاماته :

سِمْ سِمَةَ تَحْسُنُ آثارُهَا وَاشْكُرْ لِمَنْ أَعْطَى وَلَوْ سِمْسِمةَ  
 الجناس بين قوله «سِمْ سِمَة» وهي مركبة من كلمتينِ وبين قوله  
 «سمسمة» وهي كلمة واحدة . وهذا هو الجناس المفروق .

كذلك نضع في حقل المفروق قول أبي حفص المُطَوَّعي<sup>(١)</sup> :

(١) تهذيب الإيضاح ١/٢٤١ ويتيمة الدهر ٣/٤٣٣ ودمية القصر ١/٢٨٨ وأنوار الربيع ١/١٠٣

لَا تَعْرِضَنَّ عَلَى الرُّوَاةِ قَصِيْدَةَ مَا لَمْ تَكُنْ بِالْغَتَّ فِي تَهْذِيْبِهَا  
فَإِذَا عَرَضْتَ الشَّعْرَ غَيْرَ مَهَذَبٍ عَدُوُّهُ مِنْكَ وَسَاوِسًا تَهْذِيْبُهُ بِهَا

فَكَلْمَةُ «تَهْذِيْبُهَا» فِي الشَّطَرِ الثَّانِي مِنَ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ، بِمَعْنَى  
تَقْيِيفِهَا وَتَحْكِيْكِهَا وَالْعُنَيْةِ بِهَا. وَهِيَ بِمَثَابَةِ الْكَلْمَةِ الْوَاحِدَةِ أَمَّا «تَهْذِيْبُهَا» فِي  
الشَّطَرِ الثَّانِي مِنَ الْبَيْتِ الثَّانِي بِمَعْنَى الْخُلُطِ وَالْهَذِيْانِ، فَمُرْكَبَةٌ مِنْ كَلْمَتَيْنِ . . .  
إِنَّ الْجَنَاسَ حَاصِلٌ بَيْنَ «تَهْذِيْبُهَا» وَ«تَهْذِيْبُهَا». وَلَمَّا كَانَا مُخْتَلِفِينَ فِي  
صُورَةِ الْكِتَابَةِ وَحْدَهَا، عَدُوُّهُ مِنَ الْجَنَاسِ الْمُفْرُوقِ .

وَقَدْ يَحْدُثُ أَنْ يَقْعُدُ الْجَنَاسُ بَيْنَ كَلْمَةِ مَفْرَدةٍ وَآخَرِيْ مُرْكَبَةٍ مِنْ كَلْمَةٍ  
وَجَزْءٍ مِنْ آخَرِيْ، وَهَذَا اللَّوْنُ دُعَاهُ الْعُلَمَاءُ بِ(الْمَرْفُوقِ). وَمِنْهُ قَوْلُ  
الْحَرِيرِيِّ :

وَالْمَكْرُّ مَهْمَا اسْطَعْتَ لَا تَأْتِيهِ لِتَقْتَبِيِّ السُّؤَدَّةِ وَالْمَكْرُومَةِ

فَأَنْتَ تَلَاحِظُ الْجَنَاسَ بَيْنَ «وَالْمَكْرُّ وَجَزْءٌ مِنْ كَلْمَةِ مَهْمَا» وَبَيْنَ لَفْظَةِ  
«وَالْمَكْرُومَةِ» الْوَاقِعَةِ فِي الشَّطَرِ الثَّانِي .

كَذَلِكَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُ آخَرَ :

وَكُمْ لِجَبَاءِ الرَّاغِبِينَ لِدِيْهِ مِنْ مَجَالِ سُجُودِ فِي مَجَالِسِ جُودِ  
كَلْمَةِ (سُجُود) فِي مَطْلِعِ الشَّطَرِ الثَّانِي مَفْرَدةٌ، وَفِي نَهَايَةِ الشَّطَرِ تَجَدُّ هَذِهِ  
الْكَلْمَةِ مَقْسُومَةٌ بَيْنَ لَفْظَةِ «جُودَ وَالسَّيْنَ» فِي لَفْظَةِ مَجَالِسٍ<sup>(۱)</sup> .

لَقَدْ حَمَلَ عَدْدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى هَذَا «الْمَرْفُوقِ» وَنَعْتُوهُ بِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ  
جَهَدٍ وَتَعْبٍ وَبُعْدٍ عَنِ الطَّبِيعَ وَالسَّلِيقَةِ. حَتَّى لَقَدْ قَالَ عَنْهُ شِيخُنَا الْمَرْحُومُ عَزَّ  
الدِّينُ التَّنْوُخِيُّ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ - : «وَحَسِبْكَ أَنَّهُ لَا يُرَفَّأُ مِنَ الثَّيَابِ إِلَّا الْخَلْقُ  
الْبَالِيُّ الَّذِي يَتَكَلَّفُ الرَّفَاءُ لِإِعَادَةِ تَمَاسِكِهِ بِالرَّفْوِ وَالتَّرْقِيْعِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ  
مُتِينٍ وَلَا بَدِيعٍ»<sup>(۲)</sup> . . .

\* \* \*

(۱) وَيُمْكِنُ احْتِسَابُ هَذَا الشَّاهِدِ نَوْعَ مِنْ «الْمَلْفَقِ».

(۲) تَهْذِيْبُ الْإِيْضَاحِ / ۱ ۲۵۶.

وأخيراً، قد يتركب الجناس التام من لفظين، كلّ واحد منها مكون من كلمتين، وهذا ما سماه العلماء بـ«المُلْفَق». ومثاله: قول القاضي عبد الباقي ابن أبي حصين:

فَلَمْ تَضَعِ الأَعْادِيْ قَدْرَ شَانِيْ      وَلَا قَالُوا: فُلانْ      قَدْ رَشَانِيْ

إنك لتلاحظ في الشطر الأول قوله «قدر شاني» ومعناه مقداري وقيمي، وهي مكونة من كلمتين: «قدر وشاني». كما تلاحظ في الشطر الثاني قوله «قدر رشاني» ومعناه قد دفع لي الرشوة. وهي مكونة من حرف التحقيق (قد) والفعل الماضي (رشا) والمفعول به.

ومثله قول الآخر<sup>(١)</sup>:

إِلَى حَتَّيفِي سَعَى قَدَمِي أَرَى قَدَمِي أَرَاقَ دَمِي  
أَرَأَيْتَ الْجِنَاسَ الْمُلْفَقَ بَيْنَ «أَرَى قَدَمِي» و «أَرَاقَ دَمِي»؟

### ب - الجناس غير التام

وهو أن تختلف الكلمتان في أنواع الحروف، أو أعدادها، أو حركاتها، أو ترتيبها.

وبعبارة أخرى: كل طارئ يطرأ على إحدى كلمتي الجناس يخرجه من نطاق الجناس التام إلى نطاق الجناس غير التام.

\* \* \*

مثال ما اختلفت الكلمتان فيه في أنواع الحروف قول الحريري<sup>(٢)</sup>:  
بني وبين كي ليل دامس، وطريق طامس». وقول آخر<sup>(٣)</sup>: «ما خصّستني ولكن خسستني» وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup>: الخير معقود بنواصي الخيل.

(١) الشاعر هو البستي. انظر أنوار الربيع ١٢٩ / ١.

(٢) المقامة المغربية ص ١٢٠. و «كي» بمعنى: بيتي. و (طامس) بمعنى مندرس.

(٣) انظر نهاية الإيجاز ص ١٢٩.

(٤) الجامع الصغير ٢/٢٠، وانظر حدائق السحر للوطواط ص ٩٩.

فَأَنْتَ تَلَاحِظُ اخْتِلَافَ (دَامِسْ وَطَامِسْ) بِحَرْفٍ وَاحِدٍ فِي أَوَّلِ الْكَلْمَةِ، وَ (خَصْصَتِي وَخَسْسَتِي) بِحَرْفٍ وَاحِدٍ فِي وَسْطِهَا مَرَّتَيْنِ، وَ (الْخَيْرُ وَالْخَيْلُ) بِحَرْفٍ فِي آخِرِهِمَا.

كَذَلِكَ تَلَاحِظُ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ الْمُخْتَلِفَةَ مُتَقَارِبَةَ الْمُخْارِجِ.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى<sup>(١)</sup>: ﴿ وَهُمْ يَنْهَا عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ ﴾ . وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ «الْبَرَاءَا أَهْدَافُ الْبَلَاءِ»، وَقَوْلُ الْحَرِيرِي: «لَا أُعْطِي زِمَامِي لِمَنْ يَخْفِرُ ذِمَامِي».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى<sup>(٢)</sup>: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى<sup>(٣)</sup>: ﴿ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى<sup>(٤)</sup>: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْآمِنِ . . . ﴾ .

وَهَذِهِ الشَّوَاهِدُ جَمِيعاً مِنَ الْلَّوْنِ الَّذِي تَقَارَبَتْ فِيهِ مُخَارِجُ الْحُرُوفِ الْمُخْتَلِفَةِ بَيْنَ كَلْمَتَيِ الْجَنَاسِ يَدْعُى «الْمُضَارِعُ».

أَمَّا إِذَا كَانَ الْحِرْفَانَ مُتَبَاعِدِيَ الْمُخَارِجِ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى<sup>(٥)</sup>: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لَمَزَةٍ ﴾ أَوْ قَوْلِهِ تَعَالَى<sup>(٦)</sup>: ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ، وَإِنَّهُ لِحُبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ، أَوْ قَوْلُ الْحَرِيرِي: «لَا أَغْرِسُ الْأَيَادِي فِي أَرْضِ الْأَعَادِي»، أَوْ قَوْلُ آخِرٍ: «الْمُكَارِمُ بِالْمُكَارَهِ»، فَأَنْتَ تَلَاحِظُ الْفَرْقَ الْبَعِيدَ بَيْنَ (هُمَزَةٍ وَلَمَزَةٍ) وَ (شَهِيدٍ وَشَدِيدٍ) وَ (الْأَيَادِي وَالْأَعَادِي) وَ (الْمُكَارِمُ وَالْمُكَارَهِ). فَالْمُخَارِجُ مُتَبَاعِدَةٌ، وَلَذِلِكَ خَصْصَهَا الْبَلَاغِيُّونَ بِحَدِيثِ مُسْتَقْلٍ وَتَسْمِيَّةٍ خَاصَّةٍ هِيَ «الْجَنَاسُ الْلَّاَحِقُ».

\* \* \*

وَقَدْ تَخْتَلَفُ فِيهِ الْكَلْمَتَانِ فِي أَعْدَادِ الْحُرُوفِ، وَالْخِتَالَفُ قدْ يَكُونُ

(١) سورة الأنعام، الآية ٢٦.

(٢) سورة القيمة، الآية ٢٢.

(٣) سورة غافر، الآية ٧٥.

(٤) سورة النساء، الآية ٨٣.

(٥) سورة الهمزة، الآية ١.

(٦) سورة العاديات، الآيات ٧ و ٨.

بزيادة حرف أو أكثر وهذه الزيادة قد تقع في أول الكلمة، وقد تقع في وسطها، أو في آخرها ..

ويمثلون على هذا الاختلاف بشهاد كثيرة منها: «دَوَامُ الْحَالِ مِنَ الْمُحَالِ»، و «الهَوَى مَطْيَّةُ الْهَوَانِ»، و «فَلَانٌ سَالٌ مِنْ أَحْزَانِهِ، سَالِمٌ مِنْ زَمَانِهِ، حَامٌ لِعِرْضِهِ، حَامِلٌ لِغَرَبِهِ».

فأنت تلاحظ الكلمتين (الحال والمحال) زادت الثانية على الأولى بحرف الميم واتفاق معها في بقية الحروف. وكذلك تقول في (الهوى والهوان) و(سال وسالم) و (حام وحامل) ..

ومن هذا القبيل قوله تعالى<sup>(١)</sup>: ﴿وَالْتَّفَتَ السَّاقُ بِالسَّاقِ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ . وقول أبي تمام<sup>(٢)</sup>:

يَمْدُونَ مِنْ أَيْدِيهِ عَوَاصِمٍ قَوَاصِبٍ  
وَقُولُ البحْرِي<sup>(٣)</sup> :

لَئِنْ صَدَفْتَ عَنَّا فَرَبَّتْ أَنْفُسَ  
صَوَادِمَ إِلَى تِلْكَ النُّفُوسِ الصَّوَادِفِ  
ومَا أَنْشَدَهُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرجَانِيُّ<sup>(٤)</sup> :

وَكَمْ سَبَقَتْ مِنْهُ إِلَيَّ عَوَارِفَ  
ثَنَائِيَّ مِنْ تِلْكَ الْعَوَارِفِ وَارِفُ  
وَكَمْ عَرَرَ مِنْ بِرَّهُ وَلَطَائِفِ فَشْكُرِيَّ عَلَى تِلْكَ الْلَّطَائِفِ طَائِفُ

هَذِهِ الْزِيَادَةُ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ أَطْلَقَ عَلَيْهَا الْبَلَاغِيُّونَ اسْمَ «الْجَنَاسُ الْمَطَرَّفُ».

(١) سورة التيامة، الآيات ٢٩ - ٣٠.

(٢) ديوانه ٤٣ / ١، وأسرار البلاغة ص ٢٣ . والشاهد في (عواصم وعواصم) و (قواضي وقواضب) بزيادة الميم والباء أخيراً، ولا عبرة بالتنوين الذي يزول بالوقف، والإضافة. والعواصي جمع عاصية، من عصاه: إذا ضربه بالعصا. والقواضي: جمع قاضية أي قاتلة، من قضى عليه أي قتله.

(٣) ديوانه ٢٤١ / ١ . والشاهد في (صواد وصوادف) وصواد جمع صادية من الصَّدَى وهو: الظَّمَاء . والصَّوَادِف جمع: صادفة من فعل صدف أي انصرف.

(٤) الطراز ٢٦٣ والبيتان لعمر بن علي المطوعي، أسرار البلاغة ص ٢٤ .

أَمَا مِثْلَةِ الزِّيَادَةِ بِحُرْفَيْنِ فَكَقُولُ الْبُحْتَرِيِّ<sup>(١)</sup> :

فِيَالْكَ حَرْمٌ وَعَزَّ طَوَاهُمَا جَدِيدُ الرَّدَى بَيْنَ الصَّفَّا وَالصَّفَّا

أَوْ كَقُولُ الْخَنْسَاءِ<sup>(٢)</sup> :

إِنَّ الْبَكَاءَ هُوَ الشَّفَا مِنَ الْجَحْوَى بَيْنَ الْجَوَانِحِ

وَكَقُولُ حَسَانَ بْنِ بْنِ ثَابَتِ<sup>(٣)</sup> - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :

وَكَبَاءٌ مَتَّعٌ يَعْزُزُ التَّبَيِّنَ قَبْلَهُ نَصِيلٌ حَافِتَهُ بِالْقَنَابِلِ

وَقَدْ سَمِيَ الْبَلَاغِيُونَ هَذَا اللَّوْنُ بِ(الْجَنَاسِ الْمَذَيَّلِ).

\* \* \*

وَقَدْ تَخْتَلَّفَ فِيهِ الْكَلْمَاتَانِ فِي هِيَةِ الْحُرُوفِ أَوْ فِي حُرْكَاتِهَا كَقُولِ

بعْضِهِمْ : (الْبِدْعَةُ شَرَكُ الشَّرَكِ) وَ (جُبَّةُ الْبَرْدُ جُنَّةُ الْبَرْدُ)، وَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ<sup>(٤)</sup> «اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خَلْقِي» وَقَوْلُ الْوَطَوَاطِ<sup>(٥)</sup> :

لِمَوْلَانَا كَمَالِ الدِّينِ مَاجِدٌ أَشَمُّ وَمَنْصِبٌ عَالٌ وَعَزَّةٌ

يُحِبُّ جِوارَهُ زُهْرَ الْمَعَالِيِّ كَحْبٌ كُثِيرٌ أَطْلَالٌ عَزَّةٌ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى<sup>(٦)</sup> : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ .

فَأَنْتَ تَجِدُ الاختِلافَ بَيْنَ لَفْظِي الْجَنَاسِ قَامَ عَلَى تَغْيِيرِ الْحَرْكَةِ فِي (شَرَكٍ

وَشَرَكٍ) وَ (الْبَرْدُ وَالْبَرْدُ) وَ (خَلْقِي وَخَلْقِي) وَ (عَزَّةٌ وَعَزَّةٌ) وَ (مُنْذِرِينَ

وَالْمُنْذِرِينَ) .

وَهَذَا الاختِلافُ غَيْرُ الْمَعْنَى، وَشَكَّلَ لَوْنًا جَدِيدًا مِنَ الْجَنَاسِ، أَطْلَقَ

(١) أَنْوَارُ الرَّبِيعِ / ١٣٩.

(٢) لَمْ نَجِدُ الْبَيْتَ فِي دِيَوَانِ الْخَنْسَاءِ وَأَوْرَدَهُ ابْنُ حَمَّةَ فِي صِ ٣٦ غَيْرُ مَنْسُوبٍ لِأَحَدٍ.

(٣) دِيَوَانَهُ صِ ٣١٥ وَالْقَنَا جَمْعُ قَنَا وَهِيَ الرَّبِيعُ. وَالْقَنَابِلُ جَمْعُ قَبْلَهُ وَهِيَ الطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ، وَالشَّاهِدُ هُوَ زِيَادَةُ حَرْفَيْنِ فِي (الْقَنَابِلِ) عَلَى كَلْمَةِ: الْقَنَا.

(٤) مَسْنَدُ أَحْمَدَ / ٤٠٢.

(٥) حَدَائِقُ السُّحْرِ / ٩٥.

(٦) سُورَةُ الصَّافَاتِ، الْآيَاتَانِ ٧٢ وَ ٧٣.

عليه البديعيون اسم «الجناش المُحرَّف».

\* \* \*

وقد يكون الاختلاف بين الكلمتين في الحروف المعجمة (المُنقطة) وهذا هو الذي دَعَوه «التَّصْحِيف».

وقد أخذ (التَّصْحِيف) من علماء البديع شرحاً كثيراً، وهم محققون ومصيرون بذلك، فالتصحيف - وهو تماثل لفظين خطأً واحتلافهم نطقاً - يقع من كتاب لا يتقيدون بوضع النقاط في الحروف المعجمة في أماكنها الصحيحة، وإنما يرمونها كيما اتفق، ف يأتي قارئٌ فيخطئ في قراءة الكلمة وينطقها على شكل آخر، فتأخذ معنى جديداً، وكثيراً ما يكون هذا المعنى طريفاً .. أو بعيداً عن المقصود، بل قد يكون عكس المراد.

ومعظم الحروف يدخلها التَّصْحِيف .. والمهارة تبدو عند من يستطيع إعادة كل شيء إلى مكانه الطبيعي، وعلى هذه المهارة يقوم جزء كبير من تحقيق المخطوطات، ولا سيما التي خلت من النقاط، أو كُتِّبت بخط سَيِّء.

ومن أمثلة هذا اللون ما روي عنه صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup>: «ارفع إزارك فإنه أبقى وأنقى»، فالاختلاف بين الكلمتين كان في وضع النقطة، وتغيير المعنى تبعاً لذلك.

وقولهم: «خُلِفَ الْوَعْدُ خُلُقُ الْوَعْدِ»، وفي الحديث الشريف<sup>(٢)</sup>: «عَلَيْكُم بِالْأَبْكَارِ فَإِنَّهُنَّ أَشَدُ حِبَاً، وَأَقْلَ خِبَاً». قوله البكري يمدح المعتز بالله<sup>(٣)</sup>:

وَلَمْ يَكُنْ الْمُغْتَرِّ بِاللَّهِ إِذْ شَرِّى لِيُعْجِزَ، وَالْمُعْتَزُ بِاللَّهِ طَالِهُ  
وَكَتُولُ أَبِي فَرَاس<sup>(٤)</sup>:

مِنْ بَحْرِ شِعْرِكَ أَعْتَرَفْ وَبِفَضْلِ عِلْمِكَ أَعْتَرَفْ

\* \* \*

(١) مسند أحمد / ٥ ٢٦٤ وفي رواية ( وأنقى).

(٢) سنن ابن ماجه، الباب السابع من كتاب النكاح.

(٣) الطراز ٣٦٦ / ٢.

(٤) أنوار الربيع ١٨٢ / ١.

وقد تختلف الكلمتان في ترتيب الحروف . وهذا لون من ألوان (القلب)، إذ تُقْدَمُ الحروف، أو تُؤخَرُ، ويكون ذلك في حرف واحد، أو في بعض حروف الكلمة، أو فيها جميعاً.

ولعلماء البديع وقوف طويلة أمام هذا النوع، فلقد تحدثوا فيه وأسهبوا ودققوا في كل تغيير في الكلمة، وقلب بطرأ عليها.. وقد وجدوا أنَّ القلب ربما يشمل الكلمة كله، كقول الوطواط<sup>(١)</sup>:

حُسْنُكَ فِيهِ لِلأَحْبَابِ فَتْحٌ وَرُمْحُكَ فِيهِ لِلأَعْدَاءِ حَتْفٌ  
فكلمة (فتح) قُلبت إلى (حتف). وهذا هو «قلب الكل».

وكقول آخر<sup>(٢)</sup>:

أَهَدَيْتُ شَيْئًا يَقِلُّ لَوْلَا أَحْدُوشَةً الفَالِ والَّتِيرُكُ  
(كُرْسِيًّا) تَفَاءَلَتْ فِيهِ لَمَّا رَأَيْتَ مَقْلُوبَهُ (يَسْرُكُ)  
وكذلك قول آخر:

كِيفَ السُّرُورُ بِـ (إِقْبَالٍ) وَآخِرَهُ  
وَأَرَادَ أَنَّ مَقْلُوبَ (إِقْبَالٍ) هُوَ (لَا بَقاءَ)

ومن هذا ما قاله بعضهم :

جَاذِبُهَا وَالرَّيْحَ تَجَذِّبُ عَقْرَبًا  
وَطَفِيقَتُ أَشْمَمُ ثَغَرَهَا فَتَمَعَّتْ  
من فوق خَدِيلٍ مثل (قلب العقرب)

فـ (قلب العقرب) الأول هو عبارة عن الكوكب الأحمر، وقلب (العقرب) الثاني هو عبارة عن (البرق).

وقد يكون القلب في بعض الحروف كقوله صلى الله عليه وسلم :  
«اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَامْنَ رَوْعَاتِنَا».

(١) حدائق السحر ص ١٠٨.

(٢) الطراز ٢/٣٧١، وأنوار الربيع ١/٢٠٥ . وقد أشار بأن أكثر علماء البديع لم يدعوا هذا الشاهد وما يشبهه في جناس القلب ، ونصوا على أنَّ القلب يكون بحرف أو حرفين .

وقولٍ بلِيغٍ : «مَنْ يُحِرِّمُ يُرَحِّمُ، وَمَنْ يُجْرِمُ يُرْجَمُ»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وفي مجال القلب والعكس نورد لوناً من الجناس له حلاوة ، ويفيد الكلامَ رونقاً وطلاوة ، سماه العلماء (المعكوس) وسماه قدامة بالتبديل ، وكلَّ من التسميتين تصدق عليه ، لأنَّ صاحبه يقدم المؤخرَ من الكلام ، ويؤخرُ المقدمَ منه ، فلهذا القب بالعكس .

ومن أمثلة هذا النوع قول بعضهم : «عادات السادات ، سادات العادات» ، وكقول آخر : «شيم الأحرار أحرار الشيم» . ومنه قول الأضيبي<sup>(٢)</sup> :

قد يَجْمَعُ الْمَالَ غَيْرُ آكِلِهِ  
وَيَقْطَعُ التَّوْبَ غَيْرُ لَابْسِهِ  
وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّرِيفِ الرَّاضِيِّ :

أَسْفًا بِمَنْ يَطِيرُ إِلَى الدَّنَابَا  
وَطَارَ بِمَنْ يَسِفُ إِلَى الْمَعَالِي  
وَكَوْلُ آخِرَ :

إِنَّ اللَّيَالِي لِلأَنَامِ مَنَاهِلُ  
فِقَارَهُنَّ مَعَ الْهَمُومِ طَوِيلَةٌ  
وَطَوَالَهُنَّ مَعَ السَّرُورِ قَصَارُ  
وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى<sup>(٣)</sup> : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ

(١) ذكر علماء البديع أنَّ القلب أربعة صور : (قلب كُلٌّ) مثل : (فتح وحتف) ، و (قلب بعض) مثل (رحيق وحريق) . و (قلب مُجَنَّح) وهو قلب كامل لأول كلمة وأخر كلمة من البيت الشعري مثل :

(ساق) يربني قلبه قسوة وكلَّ ساق قلبه (قاس) (مستوى) أو (ما لا يستحيل بالانعكاس) وهو قلب الجملة كاملة ، فتقرا على صورتها الأولى نحو (رِيك فكري) و (سِرْ فَلَا كِي بِكَ الفَرْسُ) و (دَامَ عَلَا الْعَمَادُ) . ونعتقد أن الثالث (ساق وقاس) يمكن أن يندرج في الأول ، وأما الرابع فلا علاقة له بالجناس لأنَّه لم يتغير المعنى بعد القلب .

(٢) شرح شواهد المعنى ص ٤٥٣ والشعر والشعراء ص ٢٩٩ والأغاني ١٨ / ١٦ وأنوار الربيع ٣٤١ / ٣

(٣) سورة الروم ، الآية ١٩ .

منَ الْحَيِّ<sup>(١)</sup>، وقوله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup>: «جار الدار أحق بدار الجار»، ومن ذلك قول علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - من كتاب كتبه إلى عبد الله ابن عباس: «أما بعد، فإنَّ الإنسان يسره درُكُ ما لم يكن ليفوتَه، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه، فلا تكن ممَّن يرجو الآخرة بغير عملٍ، و يؤخِّر التوبة بطول أمل».

وحكى عن أبي تمام أنه لما قصد عبد الله بن طاهر بخراسان وامتدحه، أنكر عليه أبو سعيد الضَّرير وأبو العميشل، وقالا له: مالكَ تقول ما لا يفهم؟ فأجابهما على الفور: لمَ لا تفهمانِ ما يُقال؟<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

وأخيراً فإنَّ العلماء أضافوا إلى الجناس لوناً سُمِّوه «المزدوج» أو المردَّ، أو المكرَّر. وهو يقوم على ترديد كلمتين متجلانستين، إحداهما مضمة إلى الأخرى لغاية التتمة والتكميل معناها.

ومن أمثلة هذا اللُّون قولهم: مَنْ جَدَ وَجَدْ، وَمَنْ لَجَ وَلَجْ. وكقول أبي الفتح البُّستي<sup>(٤)</sup>:

أبا العباس لا تحسب لشبيهِ فلي طبع كسلسالِ معينِ إذا ما أكبَتِ الأدوارِ زندَا	بائي من حلاً الأشعار عارِ زلالِ من ذرى الأحجار جارِ فلي زند على الأدوارِ زندَا
--	--

وكقول الحريري<sup>(٤)</sup>

بني استقِمْ فالعود تنمِي عروفة  
إذا تهبت أحشاؤه بالطوى طوى  
ولأطْبَعَ الحِرصَ المُذِلَّ وكُنْ فتى  
وعاصِ الهوى المُرْدِي فكم من محلقِ

وكقوله تعالى<sup>(٥)</sup>: «وَجَئْتَكَ مِنْ سَبَّا بَنْيَا يَقِينٍ».

(١) مستند أحمد ٤/٢٨٨ و ٥/٢٨٨ ، ١٣ ، ١٢ ، ٨.

(٢) الطراز ط / ٣٧٠.

(٣) الطراز ٢ / ٣٧٠.

(٤) الطراز ٢ / ٣٦٤. ومقامات الحريري (المقامة السابعة والأربعون: الحجرية) ص ٥٤٧

(٥) سورة النمل، الآية ٢٢.

وفي آخر مطاف الجناس نورد هذه الأبيات المفعمة بالتجنيس للطرافة،  
والتفكهة عساها تزيل السامة والضجر .

قال أحدهم يلغز ويجنّس :

طرقت الباب حتى (كلّ متّي) فلما كلَّ متّي .. (كلّ متّي)  
فقالت لي : أيا (اسماعيل) صبرا فقلت لها : أيا (اسماء) عيلٌ صبرى  
في المقامة السادسة والأربعين المعروفة بالحلبية للحريري وجدنا  
الأبيات التالية :

رُبِّتْ زَيْنَبْ بِقَدْ يَقْدُ  
وَلَاهَ وَلَاهَ نَهْدُ يَهْدُ  
جُنْدُهَا جِيدُهَا وَظَرْفُ وَطَرْفُ  
نَاعِسُ تَاعِسُ بِحَدْ يَحْدُ  
فَارِقْتَنِي فَارِقْتَنِي وَشَطَّتْ  
وَسَطَّتْ ثُمَّ تَمَّ وَجَدْ وَجَدْ  
فَدَنْتْ فُدَيْتْ وَحَنَّتْ وَحَيْتْ  
مُعْضَبَاً مُغْضِبَاً يَوْدُ يُودُ

ولقد نجح سلطان العاشقين في تجنيسه أيّما نجاح ، وبدا شعره  
كالعمل المصفى ، بل صار أغنية يتربّع بها العاشقون :

غَيْرِي عَلَى السُّلْوانِ قَادِرْ  
وَسِوَائِي فِي الْعُشَاقِ غَادِرْ  
لِي فِي الغَرَامِ سَرِيرَةٌ  
وَاللهُ أَعْلَمُ بِالسَّرَّائِرِ  
وَمُشْبِهٌ بِالغَصْنِ قَدْ  
بَيْ لَا يَزَالُ عَلَيْهِ طَائِرْ  
أَشْكُو وَأَشْكُرُ فِعلَه  
لَا تُتَكِّرُوا حَفَقَانَ قَدْ  
فَاعِجَبْ لِشَائِي مِنْهُ شَائِرْ  
مَا الْقَلْبُ إِلَّا دَارَةٌ  
بَيْ ، وَالْحَيْبُ لِلَّهِ حَاضِرْ  
صَرِبَتْ لَهُ فِيهَا البَشَائِرُ  
مَثَلًا مِنَ الْأَمْثَالِ سَائِرْ  
بَا تَارِكِي فِي حَبَّهِ  
بَا لَيْلُ ، مَالِكَ آخِرُ  
طَرْفِي وَطَرْفُ التَّجَمِ فِي  
يَهِينِكَ بَدْرُكَ حَاضِرْ  
حَتَّى يَبْيَنَ لِنَاطِرِي  
بَدْرِي كَانَ حَاضِرْ  
مَنْ مِنْهُمَا زَاهِرْ وَزَاهِرْ  
أَرْقُ مَحَاسِنَا وَالْفَرْقُ مُشَلُّ الصَّبَحِ ظَاهِرْ

\* \* \*

## ما لا يستحيل بالانعكاس

هذه التسمية من ابن حَجَّةِ الْحَمْوَيِّ في كتابه «خزانة الأدب» وذكر أنَّ جماعة سُمُّوه «المقلوب» أو «المُسْتَوِي»، ودعاهم السَّكَاكِي «مقلوب الكل»<sup>(١)</sup>. يقصد العلماء بهذا اللُّون أن يُقْرَأُ الكلام، شعراً كان أو نثراً، من الأول إلى الآخر، ويكون كقراءته من الآخر إلى الأول بطريقة مقلوبة.. بعبارة أخرى أن يكون عكسه كطريقه.. مثل كلمة «باب» فلو قرئت طرداً أو عكساً كانت على صورة واحدة..

ويشترطون في هذا اللُّون أن يكون رقيق الألفاظ، سهل التركيب، منسجماً في حالتي النَّثر والنَّظم.

ويبدو أنَّ الحريري أُولع بهذا اللُّون، فنظم فيه الشَّيءُ الكثير.. ومن ذلك<sup>(٢)</sup>:

أَنْ	أَرْمَلَ	إِذَا	عَرَا	وَارَعَ	إِذَا	الْمَرْءُ	أَسَأَ
أَسِنْدُ	أَخَا	نَبَاهَةٌ	أَبِنْ	إِنْخَاءٌ			دَسَّا
أَسْلُ	جَنَابٌ	غَاشِمٌ	مُشَاغِبٌ	إِنْ			جَلَسا
أَسْرُ	هَبٌ	مِرَا	وَارِمٌ	بِهِ	إِذَا		رَسَا
اسْكُنْ	تَقْوَ	فَعَسَى	يُسْعِفُ	وَقْتٌ			نَكْسَا

(١) خزانة الأدب ص ٢٣٧.

(٢) المقامات السادسة عشرة (المغربية).

ويقال : إنَّ صفيَّ الدِّين الحَلَّي اطْلَعَ عَلَى هَذِهِ الْأَبْيَاتِ ، فَأَخَذَ الْحَرِيرِي لِأَنَّهُ التَّجَأَ إِلَى بَحْرٍ قَصِيرٍ ، وَهُوَ مَجْزُوءُ الرَّجْزِ ، فَكَتَبَ مَقْطُوْعَةً ذَاتَ سَبْعَةِ أَبْيَاتٍ عَلَى بَحْرِ الطَّوْلِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَقْتَلَ عَلَى نَفْسِهِ أَكْثَرَ ، فَكَتَبَ الْأَبْيَاتِ فِي مَوْضِعٍ خَاصٍ أَرَادَ عِرْضَهُ بِهَذِهِ الْمَنْاسِبَةِ عَلَى الْمَلِكِ الَّذِي اقْتَرَحَ عَلَيْهِ الْكِتَابَةَ عَلَى مَنْوَلِ الْحَرِيرِي فَقَالَ فِي مَطْلُعِهِ :

أَئْتُ شَاءَ نَاضِرًا لَكَ إِنَّهُ هَنَا كُلُّ أَرْضٍ أَنْ أَئْتُ شَاءَ

وَهِيَ مَقْطُوْعَةٌ عَسِيرَةُ الْهَضْمِ ، بَادِيَةُ الْكَلْفَةِ ، ثَقِيلَةُ الْقَلْبِ .

كَذَلِكَ أَولَعَ الشَّيْخَ نَاصِيفَ الْيَازِجيَّ فِي بَعْضِ مَقَامَاتِهِ فِي «مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ» بِهَذَا اللَّوْنِ ، فَكَتَبَ فِي إِحْدَاهَا قُصْدِيَّةً نَفَتَّطَفَ مِنْهَا هَذِهِ الْأَبْيَاتِ<sup>(١)</sup> :

قَمَرُ يُفَرِّطُ عَمَدًا مُشْرِقُ  
رَشَّ مَاءَ دَمَعَ طَرْفِ يَرْمَقُ  
قِلْقُ يَلْشِمُ نَادِي عَبْلَةَ  
لِيَعِدَ إِنَّ مِثْلِي قَلْقُ  
قَدْ حَمَّا رَكْبُ لَيلٍ حَافِظَ  
فَاحَ لَيلٍ يَكْرَاهَا مُحَدِّقُ  
قَرَّ فِي إِلْفِ نَدَاهَا قَلْبُهُ  
بِلْقَاهَا دَيْفُ لَا يَفْرَقُ  
قَطَنَتْ هَيْفَاءُ فِيْهِ آمِنًا  
إِنَّمَا هَيْفَاءُ فِيْهِ تَنْطِقُ  
قِفْ أَلَا قَاضِ فَإِلَيْي ضَاقَ بِي  
رَيْبُ قَاضِينَا فَضَاقَ الْأَفْقُ  
قَدْ حَلَّ كَاذِبٌ وَعَدَ تَابَعُ  
لَعِيَا تَدْعُو بِذَاكَ الْحَدَقُ  
قَبَسُ يَدْعُو سَنَاءً إِنْ جَهَا فَجَاهَ أَنْسُ وَعَدَ يَسْبِقُ

### الطرد مدح والعكس هجاء

وَفِي إِحْدَى الْحَكَايَا أَنَّ بَطْلَ مَقَامَاتِ الْيَازِجيَّ نَظَمَ لَوْجِيَّهِ بِيَتِينَ ،  
ظَاهِرُهُمَا مَدْحَعٌ ، وَعَكْسُهُمَا هَجَاءٌ .. وَهُمَا<sup>(٢)</sup> :

بَاهِيَ الْمَرَاجِمِ لَابِسٌ كَرَمًا قَدِيرٌ مُسِيدٌ  
بَابٌ لِكُلِّ مَؤْمَلٍ غُنْمٌ لَعَمْرُكَ مُرْفَدٌ

(١) مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ : الْمَقَامَةُ الْعَشْرُونُ (الْبَصَرِيَّةُ) ص ١٢١ .

(٢) مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ : الْمَقَامَةُ الْعَشْرُونُ (الْبَصَرِيَّةُ) ص ١٢٣ . بَاهِيَ الْمَرَاجِمِ : حَسَنُ الْمَرَاجِمِ .  
وَالْمَرِيدُ : الْعَاتِيُّ الْمُتَجَبِّرُ . وَالْقَامُرُ : الَّذِي يَلْعَبُ بِالنَّمَارِ . وَالْدَّفَرُ : الْتَّنَنُ . وَالْمَكْرُ : مِنَ الْكَرِيرِ .  
وَهُوَ صَوْتُ الْمَخْنَقِ . وَالْمَعْلُمُ : مِنْ وَسْمِ نَفْسِهِ بِعَلَمَةِ الْحَرْبِ . وَالْتَّغْلِ : الْفَاسِدُ الْأَسْبَبُ .

أما قلبهما فهو:

دَنْسٌ، مَرِيدٌ، قَامِرٌ كَسْبُ الْمَحَارِمِ لَا يَهابُ  
دَفِرٌ، مُكَرٌّ مُعْلَمٌ نَغْلٌ، مُؤْمَلٌ كُلُّ بَابٍ

وفي مقامة ثانية يروي الياذجي على لسان بطله أنَّ بعض الأعيان دفعوا  
إلى بطل مقاماته هبةً لم تُرضيه ، «فتناول الشَّيخ ميسورهم وقال: إني قد قبلت  
برِّكم بالجَنَانِ، لا بالبَنَانِ، وحقَّ عَلَيَّ مَدْحُوكٌ (بالقلب) لَا بِاللُّسَانِ . ثم دنا  
فتَدَلَّى، وأنشَدَ وَهُوَ قَدْ وَلَى»<sup>(١)</sup>:

حَلَمُوا فَمَا سَاءَتْ لَهُمْ شَيْءٌ سَمْحُوا، فَمَا شَحَّتْ لَهُمْ مِنْ  
سَلَمُوا، فَلَا زَلَّتْ لَهُمْ قَدْ رَشَدُوا، فَلَا ضَلَّتْ لَهُمْ سُنْ

قال : وكان في الموقف فتى شديد الحُنْزُونَةِ (أي الكبراء)، قد  
انتصب كالأسطوانة ، فلمَّا أدرَّ الشَّيخَ قال: إني لَا عُرِفُ هَذَا الْخِبِيثَ، وَقَدْ  
رَأَبْنِي ذَكْرَهُ (الْقَلْبَ) فِي الْحَدِيثِ، فاقْلِبُوا الْبَيْتَنِ لَعَلَّ بِهِمَا شَيْئًا مِنَ الشَّيْنِ .  
فَابتدرَ رَجُلٌ إِلَى قلْبِهِمَا، بَعْدَ كَتْبِهِمَا، وَإِذَا هُوَ يَقُولُ بِهِمَا:

مِنْ لَهُمْ شَحَّتْ، فَمَا سَمْحُوا شَيْءٌ لَهُمْ سَاءَتْ، فَمَا حَلَمُوا  
سُنْ لَهُمْ ضَلَّتْ، فَلَا رَشَدُوا قَدْ لَهُمْ زَلَّتْ، فَلَا سَلَمُوا

ومن الطَّرَائِفِ الَّتِي تُرُوِيُّ فِي هَذَا الصَّدَدِ أَنَّ الْعَمَادَ الْأَصْفَهَانِيَّ الْكَاتِبُ  
مِرَّ عَلَى الْقَاضِيِّ الْفَاضِلِ رَاكِبًا، فَقَالَ لَهُ الْعَمَادُ: «سِرْ فَلَا كَبَا بِكَ الْفَرَسُ» فَفَهِمَ  
الْقَاضِيُّ الْفَاضِلُ أَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ تَقْرَأُ طَرْدًا وَعَكْسًا، فَأَجَابَهُ: «دَامَ عُلَامَ  
الْعَمَادِ» .

والقصائد المكتوبة بهذه الطَّرِيقَةِ كثيرة ، وفي أكثرها تكَلُّفٌ كثير ،  
وأرباب هذه الصناعة مُجتمعون على أنَّ أحسن ما قيل في باب «ما لا يستحيل  
بالانعكاس» بيت القاضي الأرجاني :

مَوْدَتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوْلٍ وَهَلْ كُلُّ مَوْدَتُهُ تَدُومُ؟  
وَمِمَّا يُرُوِيُّ مِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُمْ: «أَرْضُ خَضْرَا» وَ«سُورُ حَمَاهُ بِرَبِّهَا

(١) مجمع البحرين : المقامة الثامنة عشرة (الرجيبة) ص ١١٣ .

محروس» «هزم حمزه» و «حمار رامع» و «حُوتٌ فمه مفتوح» و «كلٌ في فلكِ» و «ربك فكر» و «لُدُّ بِكَ مُؤمل إِذَا لَمَّا وَمَلِكَ بَذَلَ» و «كَبَرْ رجاً أَجْرَ ربك».

### طرفة لطيفة

ويحكى في هذا الصدد أنَّ أحدَ الملوك عزم على غزو عدو له ، فأرسل قبل ذلك جاسوساً ليتعرفُ أحوال هذا العدو ، ومدى استعداده للحرب ، فتبته العدو للجاسوس وقبضوا عليه ، وأرغموه على كتابة رسالة لمن أرسله يقول له فيها : «إنَّ العدو ضعيف فأقدم على غزوه بسرعة» فكتب إليه ما يلي :

«أَمَّا بعد ، فقط أحاطت علمًا بالقوم ، و «أَصْبَحَتْ مُسْتَرِيحاً من السعي» في تعرُّف أحوالهم ، وإنِّي (قد استضعفتهم) بالنسبة إليكم ، وقد كنت أueblo من أخلاق الملك المهلة في الأمور (والنظر في العاقبة) ، ولكن ليس هذا وقت النَّظر في العاقبة ، فقد تحققت (أنَّكم الفئة الغالبة بإذن الله) . وقد رأيتُ من أحوال القوم ما يطيب به (قلب) الملك : (نصحتُ فدع رَبِيك ودع مَهْلَك والسلام) .

فلما انتهى الكتاب إلى الملك قرأه على رجاله ، فقويت قلوبهم ، وصَحَّتْ عزائمهم على الخروج ، ثم إنَّ الملك خلا بخاصَّته من الكباء وأهل الرأي ، وقال : أريد أن تتأملوا هذا الكتاب ، فإني شعرت منه بأمر ، وإنِّي غير سائر حتى أنظر في أمره.

قال بعضهم : ما الذي لحظ الملك من الكتاب ، قال : إنَّ فلاناً من الرجال ذوي الحصافة والرأي ، وقد أنكرتُ ظاهر لفظه ، فتأملت فحواه ، فوجدت في باطنها خلاف ما يوهم الظاهر من ذلك في قوله : «أَصْبَحَتْ مُسْتَرِيحاً من السعي» في يريد أنه محبوس . وقوله : «استضعفتم بالنسبة إليكم» يريد أنهم ضعفنا لكثتهم . وقوله «إنَّكم الفئة الغالبة بإذن الله» يشير إلى قوله تعالى : «كُمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلٌ غَلَبْتُمْ فِئَةً كَثِيرًا بِإِذْنِ الله»<sup>(١)</sup> . وقوله : «رأيت من أحوال القوم ما يطيب به (قلب) الملك» فإني تأملت ما بعده فوجدت أنه يريد بالقلب : العكس ، لأنَّ الجملة الآتية مما يوهم ذلك ، فقلبت الجملة وهي

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٤٩

قوله : « نصحت فَدَعْ رَيْبَكَ وَدَعْ مَهْلَكَ » فإذا مقلوبها « كَلَّهُمْ عَدُوٌّ كَبِيرٌ ، عُدْ فَتَحَصَّنٌ ». .

10

## الإهمال والإعجم

تشتمل الأبجدية العربية على تسعه وعشرين حرفًا. منها خمسة عشر حرفاً منقوطاً، وأربعة عشر غير منقوط.

وقد اصطلح العلماء على تسمية الحرف المنقوط بالمعجم أو بالحالى تشبيهاً له بالمرأة الحالى المزدانت بالحلى. والحروف المعجمة (الحالى) هي: الباء ، والتاء ، والثاء ، والجيم ، والخاء ، والذال ، والزاي ، والشين ، والضاد ، والظاء ، والغين ، والفاء ، والقاف ، والنون ، والياء .

أما غير المنقوطة فقد اصطلحوا على تسميتها بالمهملة أو العاطلة ، تشبيهاً لها بالمرأة العاطلة من الزينة والحلى. والحروف المهملة هي: الهمزة ، والحااء ، والدال ، والراء ، والسین ، والصاد ، والطاء ، والعين ، والكاف ، واللام ، والميم ، والهاء ، والواو ، والألف .

ويبدو أنَّ كثيراً من المفتين بصناعة القول قد استغلوا هذين الإهمال والإعجم فراحوا يستخدمون الحروف على صورة بديعة ، فنظم بعضهم قصيدة طويلة ، كلُّ حروفها مهملة ، أو قصيدة كلُّ حروفها معجمة ، أو تكون من كلمة كلُّ حروفها مهملة ، وأخرى كلُّ حروفها معجمة .. أو تكون حروف الشطر الأول جميعاً مهملة ، وحروف الشطر الثاني جميعاً معجمة .. أكثر من هذا قد ينظم مبدع صناع أبياتاً معجمة الحروف ، وكلُّ نقاطها من أعلى فقط ، أو من أسفل فقط .. أو ينظم أبياتاً من حروف مهملة ، وأسماؤها كذلك لا

يدخل فيها إعجام مثل حرف الجاء ، فإن حروف اسمها لا نقط فيها ، بخلاف حرف السين ، فإن حروف اسمها مهملة ومعجمة . السين مهملة ، والياء واللون معجمتان .

\* \* \*

هذه الزينة لون من ألوان الفن الكتابي ، فيه مهارة فائقة ، وقدرة كبيرة على اختيار الكلمات المناسبة ، ثم جعلها في قالب شعريًّا مقبول .

من أمثلة القصيدة المهمَّلة :

الحمدُ لِلَّهِ	الصَّمْدُ	حَالٌ	السُّرُورِ	وَالْكَمْدُ
الله لا إِلَهَ إِلَّا الله	مولاك	الأحد		
أَوَّلُ كُلُّ أَوَّلٍ	الأصول	والعَمَدُ		
الواسع الْأَلَاءُ	آراء علماً	وَالْمَدَدُ		
كُلُّ سِوَاهُ هَالِكُ	لا عَدَدُ ولا عَدَدٌ	(١)		

ومن أمثلة القصيدة المعجمَة :

شَغَفُ شَفْنِي بِذِي ثَمَةِ  
قِضَتْ جَفْنِي بِقَظَةِ ثَبَّتْ  
بِي شَقِيقُ يَغِيبُ غَيَّبَةَ ذِي  
ضَغْنِ بَيْنِ تَجَبَّنِي (٢)

ومن أمثلة الشطر المهمَّل والشطر المعجم (المُلْمَعَة)

أَسْمَرُ كَالْرَّمْحُ لَهُ عَامِلٌ يُغْضِي فَيَقْضِي تَخْبُ شَيْقُ  
مِسْكُ لَمَاهُ عَاطِرُ سَاطِعُ فِي جَنَّةِ شَفِيفِي شَجَ يَنْشَقُ  
أَكْحَلُ ما مَارِسَ كُحْلًا لَهُ جَفَنُ غَضِيبُ غَيْجُ ضَيْقُ (٣)

(١) مجمع البحرين : المقامات الخامسة عشرة (الرمليَّة) ص ٨٧ . وانظر المقامات السادسة والأربعين (الحلبيَّة) للحريري .

(٢) مجمع البحرين : المقامات الخامسة عشرة (الرمليَّة) ص ٨٧ . والشَّغَفُ : شدة الحب . وشَفْنِي انحلاني . والنَّجْبُ : الكريم . وذُو يَزَنْ : ملك من ملوك اليمن . وقضَتْ : من المقايسة بمعنى المبادلة . والنَّثْبُ : البعد . والنَّبِيُّ : الفراق . وانظر السادسة والأربعين (الحلبيَّة) للحريري .

(٣) مجمع البحرين : المقامات الخامسة عشرة (الرمليَّة) ص ٨٧ . المُلْمَعَةُ : التي شطر منها مهمل وشطر معجم . العامل : السنان ، أراد به عينه الشبيهة بالسنان هيئة ومضاء . ويغضي : يكسر

ومن أمثلة الكلمة المهملة والكلمة المعجمة (**الخَيْفَاء**):

ظبيَّةُ أَدَمَاءُ ثَقِينِي الْأَمْلَا  
لَا تَقِيَ الْعَهْدَ فَتَشَفِينِي وَلَا  
غَصَّةُ الْعُودَ تَسْتَهِنِي مَرَحَا  
تَقْتَضِي أَحْكَامَ بَغِيٍ طَالِمَا

ومن أمثلة الحرف المهمل والحرف المعجم (**الرَّقَطَاء**)

وَنَدِيمٌ بَاتٌ لِيلَةٌ عَنْدِي غَلِيلٌ  
خَافَ مِنْ صُنْعٍ جَمِيلٌ قَلْتُ: لَيْ صَبَرْ جَمِيلٌ  
قَرَّةٌ لَيْ مَيْلٌ قَلْبٌ مِنْكَ يَا غُصْنًا يَمِيلٌ  
سَيْدِي رِقَّ لِذَلِيلٍ سَيِّدِي عَبْدُ ذَلِيلٍ<sup>(۱)</sup>

ومن أمثلة الحروف المهملة حين نطق أسمائها: (**عاطل العاطل**)

حَوْلَ دُرَّ حَلَّ وَرَدَ هَلَ لَهُ لَلْحُرَّ وِرَدُّ  
لِحَصُورٍ حَلُو وَصَلٌّ وِرَدُّ لَلصَّحُورٍ طَرَدُّ  
وَلَهُ صَوْلٌ وَطَولٌ وَرَدُّ وَلَهُ صَدُّ  
دَهْرَةٌ حَرُّ صَدُورٍ هَلَ لَهُ اللَّهُ حَدُّ<sup>(۲)</sup>

= جفنه . والنخب: الرجل لا قلب له . واللمى: سمرة مستحسنة في الشفة يشبهونها بالمسك .  
والساطع: الفائع الرائحة . والجنة: كنایة عن وجهه . والشجاع: أراد به المحب المشتعل  
القلب .

(۱) مجمع البحرين: المقامة الخامسة عشرة (**الرمليّة**) ص ۸۷. الخيفاء: التي كلمة منها منقطة وكلمة بلا نقط. وانظر المقامة السادسة (**المراوغية**) للحريري.

(۲) مجمع البحرين: المقامة الخامسة عشرة (**الرمليّة**) ص ۸۷. الرقطاء: التي حرف منها مهمل وحرف معجم . الغليل: حرارة العطش . وانظر المقامة السادسة والعشرين (**الرقطاء**) للحريري .

(۳) مجمع البحرين: المقامة الخامسة عشرة (**الرمليّة**) ص ۸۷. عاطل العاطل: الذي لا نقطة في اسمه ولا سماه كالدال والواو . الدر: عبارة عن الأستان . والورد: عبارة عن الخد . وهل للحر ورد: هل للكريم وصول إليه . والحصور: البخيل الضيق الخلق . والصَّوْل: السطوة . والطَّول: الغلة .

## الشعر الهندسي

### معنى التسمية

هذه التسمية جديدة، أول من أطلقها الدكتور أسامة عانوتى<sup>(١)</sup> في كتابه المعون بـ «الحركة الأدبية في بلاد الشام في القرن الثامن عشر»<sup>(٢)</sup> ولم نجد أحداً من القدماء أو المعاصرین قال بها، مع أننا نراها - مع الدكتور عانوتى - متفقة وشكل الشعر الذي نسعى لعرضه.

ولقد حداانا إلى تبني هذه التسمية ما وجدناه من أشكال هندسية مختلفة كالدائرة، والمثلث ، والمرربع ، والمخمس ، والمعين ، والتّجوم ، وهذه الأشكال حملت مقطوعاتٍ شعريةً أو قصائد.. ويُخيّل إلينا أنَّ هذه التسمية خير من تسمية الدكتور نور الدين صمود التونسي بـ «الشعر الدائري»<sup>(٣)</sup>، لأنَّ الرسوم الهندسية المتضمنة شعراً لم تقتصر على الدائرة وحدها، وإنما انداحت إلى أشكال هندسية أخرى كثيرة .

بواكيه

ولو حاولنا أن نستقصي بواكيه الشعر الهندسيّ، ونحدّد العصر

(١) أحد الأساتذة الأجلاء في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية في بيروت .

(٢) طبع الكتاب في سلسلة منشورات الجامعة اللبنانية - قسم الدراسات الأدبية - رقم ٦ - سنة ١٩٧١ - بيروت .

(٣) زخارف عربية ص ٣٩ .

والشخص اللذين تميّزا بأول ظهوره ونظمه لعُدنا بالإخفاق المبين، ذلك لأنَّ كتب الأدب والتاريخ ضَنَت علينا بذكر هذه الأوَّلية، وكلَّ ما عثروا عليه لا يتعلَّق مقالة صغيرة كتبها الأب اليسوعي لويس شيخو في مجلة «المشرق» عام ١٨٩٩ م في المجلد الثاني والعدد العاشر أدعى فيها أنَّ ابن الأفرينجيَّة الحلبيَّ<sup>(١)</sup> كان مبتدع هذا اللُّون، لكن شيخو لم يدعم قوله بدلائل وأدلة قاطعة.

### الشعر الهندسي أو الشعر المحبوب

ومهما يكن مبتدع هذا الشَّكْل، والزَّمن الذي طُلِع فيه، فإنَّه صورة من صور الشَّعر المحبوب، المعروض منذ زمن طويلاً. فالبيت الشَّعري فيه يبدأ ويتهي بحرف واحد، والكلمة التي تُقرأ طرداً في أول البيت نجدها في آخر بيت ثان معكوسة، فلو بدأَ البيت الأول - مثلاً - بكلمة (دمَر) انتهى بيت آخر بعكسها وهي (رمَد)، ولو بدأَ بيت بكلمة (дум) انتهى آخر بكلمة (عمد) وهكذا...

### الأشكال الهندسية

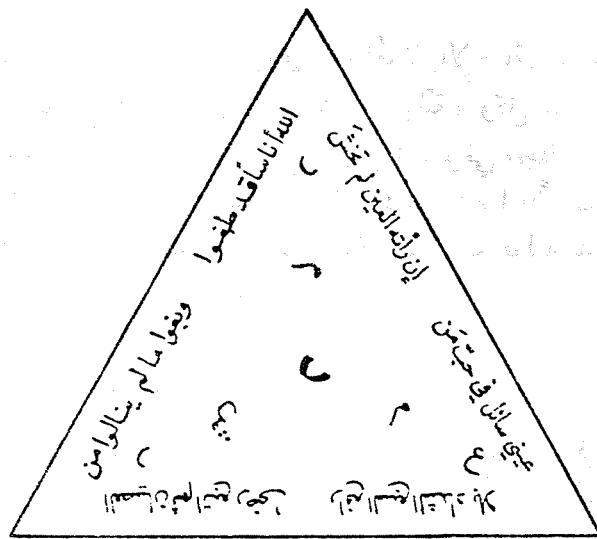
والأشكال الهندسية أنواع. منها البسيطة كالثلث، والمرربع، والمعين والدائرة البسيطة، ومنها المركبة كالدائرة المكونة من دائرة كبيرة ودوائر أخرى صغيرة متداخلة ومتقاطعة معها. وإليك نماذج لكل هذه الأنواع:

#### ١ - شكل المثلث

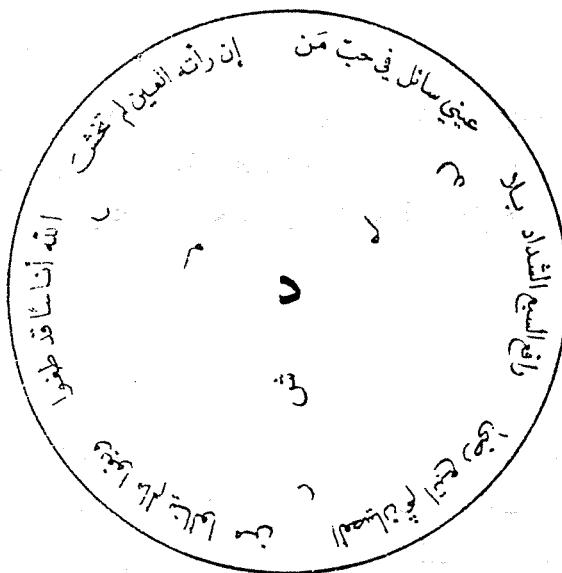
وهذه أبياته:

إنْ رأَتِه العَيْنُ لم تخش رَمَد وبَغَوا مَا لَم يَنالُوا مِنْ رَشَد رافِعُ السَّبْع الشَّدَادِ بلا عَمَد	دَمَعُ عَيْنِي سَائِلٌ فِي حَبَّ مَنْ دَمَرَ اللهُ أَنَاساً قَدْ طَغَوا دَشَرُ العَصِيَانَ ثُمَّ اتَّبعَ رِضَى
---	--

(١) يسميه الأب شيخو «ديله كور» ويُعرف نسبة إلى الصليبيين.



ويمكن إظهار هذه الأبيات على صورة دائرة بسيطة كما يلي :

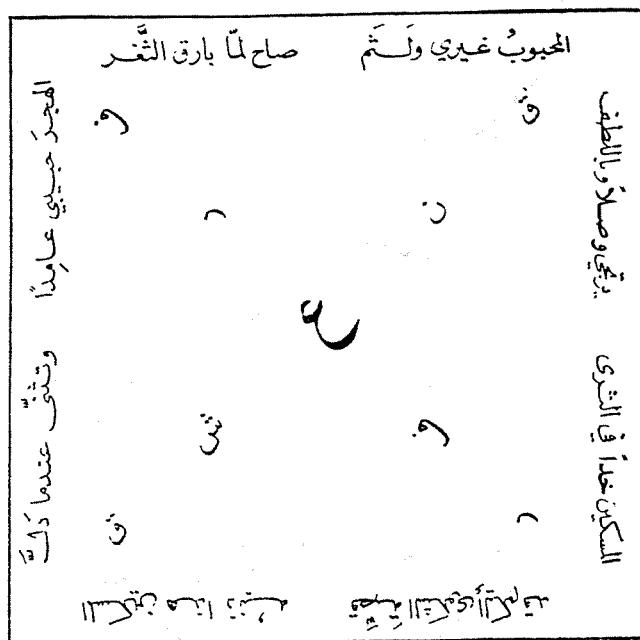


## ٢ - شكل المربع

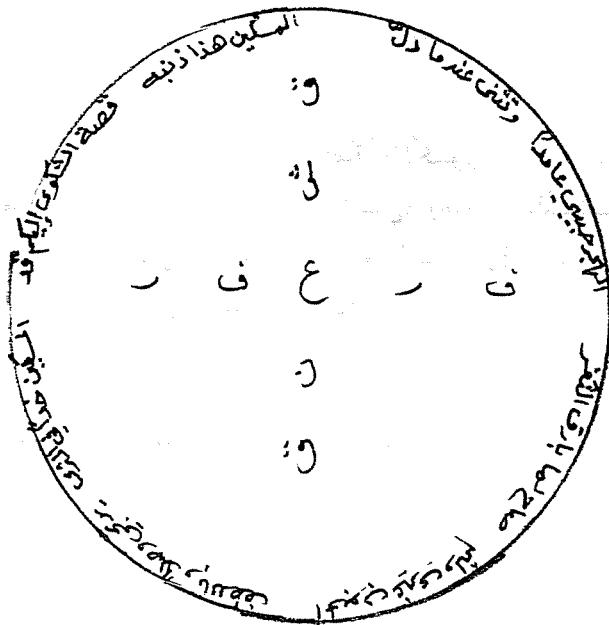
وهذه أبياته :

قصة الشكوى إليكم قد رفع  
يرتجي وصلاً وباللطف قطع  
صاحب لما بارق الشفر فرع  
وتثنى عندما دلّ قشع

عشيق المiskin هذا ذنبه  
عفّر المiskin خدّا في الثرى  
عنق المحبوب غيري ولثم  
عرف الهجر حبيبي عامداً

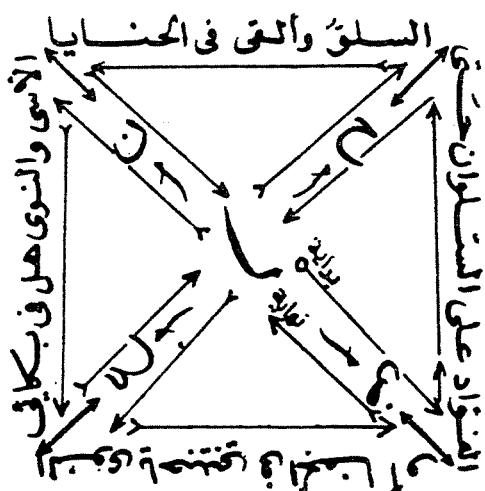


٣ - ويمكن رسم الأبيات السابقة في دائرة بسيطة كالتالي :

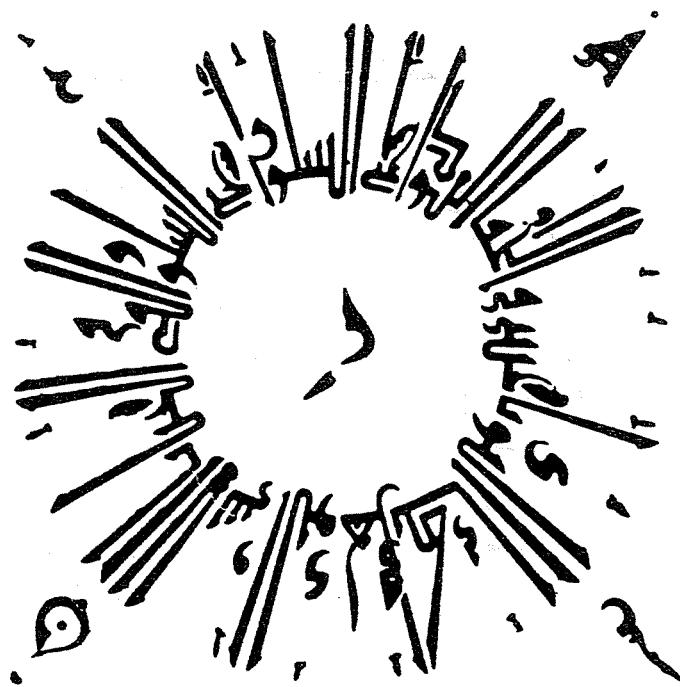


وهذا نموذج آخر لمربع ودائرة للأبيات التالية :

- |        |                                     |
|--------|-------------------------------------|
| (حرار) | الفؤاد على السُّلُوان حتى           |
| (نار)  | السُّلُوْ وَالقُسْ في الحنایا       |
| (عار)  | الأَسَى وَالنَّوْى هُلْ في بِكَائِي |
| (صار)  | النَّوْى يَا حَبِيْيِ في الجفَا أو  |



والأبيات ذاتها ضمن دائرة بسيطة وهذه صورتها:



- الدائرة المركبة
- الدائرة النجمية :

وهو أن تكون أول كلمة من قصيدة أو الأبيات مقلوب أول كلمة من البيت الذي يليه إلى نهاية الأبيات، فتنظم دائرة على هيئة نجمية، وهو أن يجعل حرف الرُّوِيَّ وسط الدائرة، فينوب ذلك الحرف مثاب أول كل حرف من بداية الشطرات الأولى من القصيدة، ثم يجعل الحرف الذي قبل الرُّوِيَّ في بيت الدائرة الثانية، ثم الحرف الذي قبله في بيت من الدوائر التي تليها، وتكون الدوائر الحرفية على عدد أحرف كلمات الرُّوِيَّ؛ فإن كانت ثلاثة الحروف فتكون الدوائر ثلاثة، وإن كانت رباعية أو أكثر فتجعل الدوائر على عددها، وتجعل بيوت الدائرة على عدد أبيات النظم، ثم يجعل بعد الدوائر الحرفية لكل بيت دائرة، وينزل بقية البيت في ضممتها، فيكون ابتداء البيت

من الأحرف التي وسط الدوائر، وختامه بهذه الأحرف أيضاً، وختامها يكون  
ابتداء البيت الذي يليه وهكذا . . .<sup>(١)</sup>.

ويخرج من بيت (الدائرة التجمية) للأدهمي الوارد في الصورة تسعه

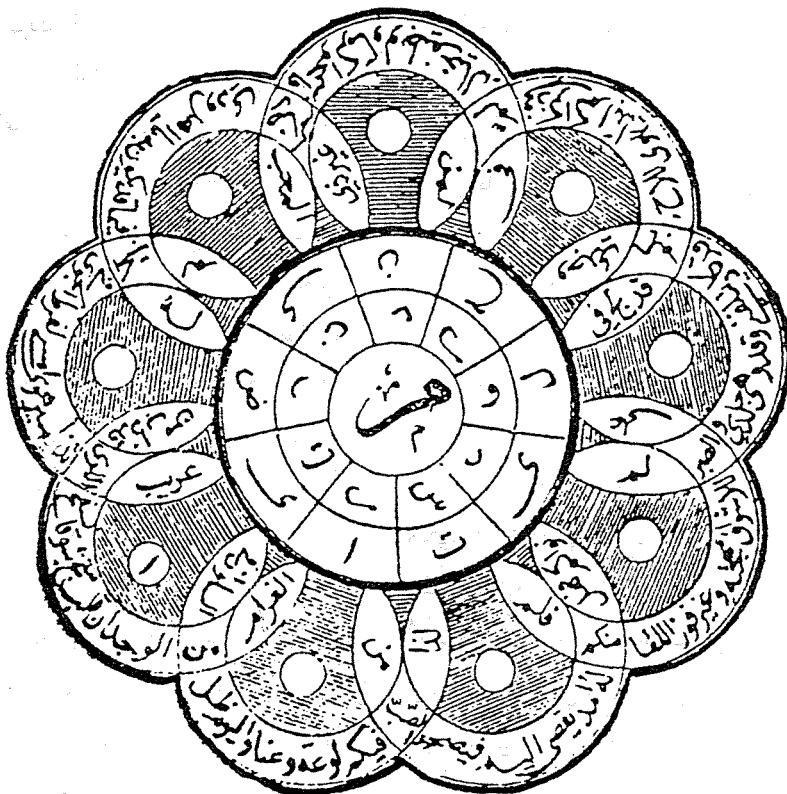
أبيات هي :

شوقا لسفح اللوى قد ذاب من ضرم  
أمسى لفروط الجوى في الحب لم يتم  
يا أهل ودى رضاكم غير ذي ندم  
ولو بطيف خيال لم في حلم  
يهوى للاح بكم قد لج في لوم  
وقد وهى جلدي والصبر لم يتم  
وغير فوز اللقا منكم فلم تسم  
يُقصى إليه فيصحوا الصب من أيام  
واليوم ظل من السلوان في يتم

ملا الغرام من الوجدان قلب شج  
متى عَرِيبُ اللّوْيِ تَذَنِي أَسِيرَهُو  
مُرضٍ له الحب فيما قد يكون به  
مُنْيَ المُحِبِّ رضاكم فاسمحوا كرما  
مُدْنٍ لمن لم في ذكراكم أبدا  
مُلِحٌ وجدي بكم قد كاد يتلفني  
مول على الصبر للأسواق مهجته  
مَدَى نَوَّاكم فهل منكم له أَمَد  
مَسَّتِ لِدَا الصَّبِّ فيكم لوعة وعنة

(١) بدیع التّحیر ٤٥ - ٤٦.

وهذه صورة القصيدة في الدائرة التجمبة :



### ب - الدوائر المركبة

وهاتان دائرتان مركبتان ، أكثر تعقيداً من الدائرة المركبة السابقة ، يقال  
إن ابن الأفرنجية نظمها في المديح .

وطريقة قراءة كلٌّ منها على الشكل التالي :

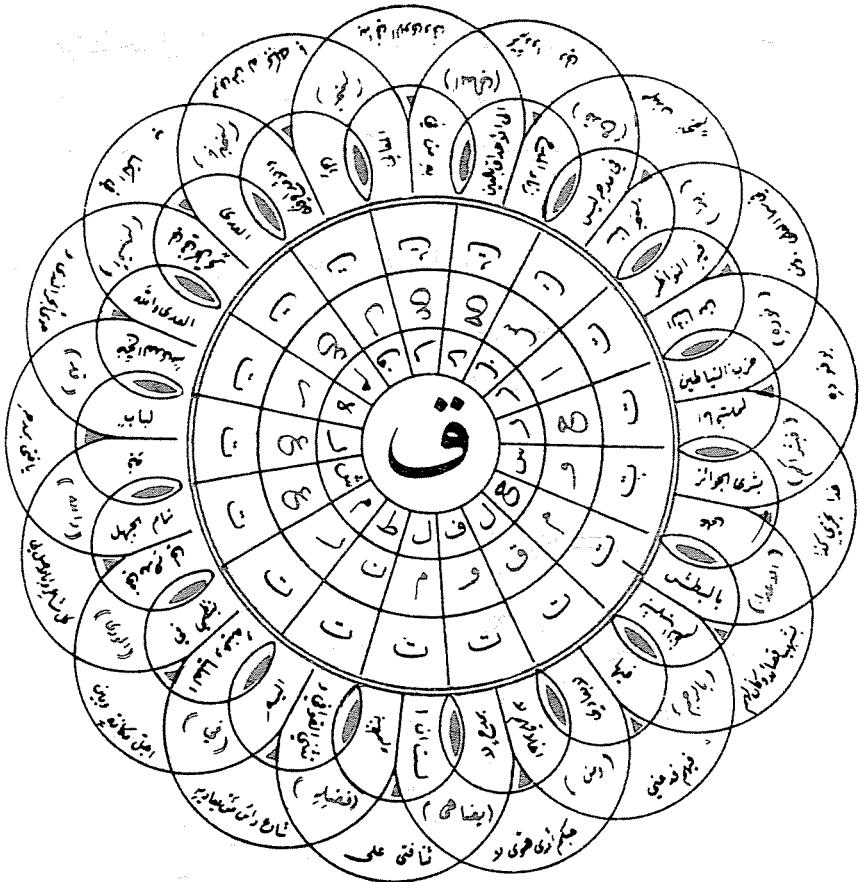
كلَّ بيت دويرة صغيرة يبتدىء من مركز الدائرة الكبيرة ، وينتهي شطره  
الأول في قوس دُورِيَّة ، ثم يتَّجه صُعداً إلى مركز الدائرة ، حيث يُختم البيت  
هناك كما بدئ ، وتقرأ الألفاظ التي طُبعت باللون الأحمر مررتين لأنَّها مررت  
في دُورِتين صغيرتين .

أما نص القصيدة الأولى فهو الآتي (ولا تخلو الأبيات من اختلال في

الوزن وتهافت في المعنى):

وأقسم لي في كل بحر تعمق  
ب بالنجم والأمداح فيك تلق  
يحبك يا نجم المعالي تعرق  
معالي إلى الأحداق بالغين تحذر  
  
ولي قلح في مدحه ليس ثيبق  
لينجم بدا فيه الناظر تارق  
ومن ثوره حزب الشياطين تحرق  
فبشراسكم بشرى الجوائز توسرق  
تجزى كذا الأعداء بالبطش تمحق  
وكان لهم بالرجم فيها تلق  
فلدعني ومن أخلاقهم لا توقق  
هوى لا يضاهى لست إن أتملّق  
على فضله تشي القوافي وتنطق  
يعاديء في العلية وعينه ترمق  
وبين الورى في مدحه لي تعشق  
وبالأصل لي والله فيه تعرق  
بمدحه قد ضيَّع العدى منه ترهق

فَرَعَتْ لِيَابٍ قَدْ حَوَى أَبْحَرَ النَّدَى  
قَهْرَتْ الْعَدِي وَاللَّهُ أَقْسَمَ فِي الْكِتَابِ  
قَمَعَتْ الْعَدِي بِالنَّجْمِ طَوْبِي لِمَنْ لَهُ  
قَفَلَتْ إِلَى نَجْمٍ بِدَا فِي الْهَوَى وَفِي الْأَرْضِ  
قَرَعَتْ بِهِ مَنْ فِي الْمَعَالِسِ تَمَرَّدَوا  
قَدْحَتْ زِيَادَ الْمَدْحِ قَدْحَ مَهْدَبَ  
فَبَقَسَتْ سَنَانِجْمٍ بِدَا فِي سَمَا الْعُلَى  
قَرَأَتْ الثَّنَاءِ مِنْ نُورِهِ بُوْفُودِهِ  
فَرَحَتْ أَمَاقِيْهِمْ فَبَشَارَكُمْ عَدَا  
قَسَوَتْ عَلَى الْأَعْدَادِ بِشَهَبِ قَصَائِدِهِ  
قَحَّمَتْ بِشَهْبِ النَّظَمِ بِالرَّجْمِ فِيهِمْ  
فَلَقَتْ لِإِبْعَادِي وَمِنْ حِكْمَ أَرَى  
فَقَقَوْتْ بِمَدْحِ لَا يُضَاهِي ثَنَاءَ فَتَى  
قَلَمَتْ، بِنَظَمِ، فَضَلَهُ شَاعِرٌ، دَاسَ مِنْ  
قَطَنَتْ إِلَيْهِ فِي أَجَلِّ مَكَانَةٍ  
قَمَرَتْ بِنَظَمِي فِي السَّوَرِي كُلَّ شَاعِرٍ  
فَشَنَعَتْ تَمَامَ الْجَهْلِ وَاللَّهُ يَا فَتَى



وأما أبيات الدائرة المركبة الثانية فهي:

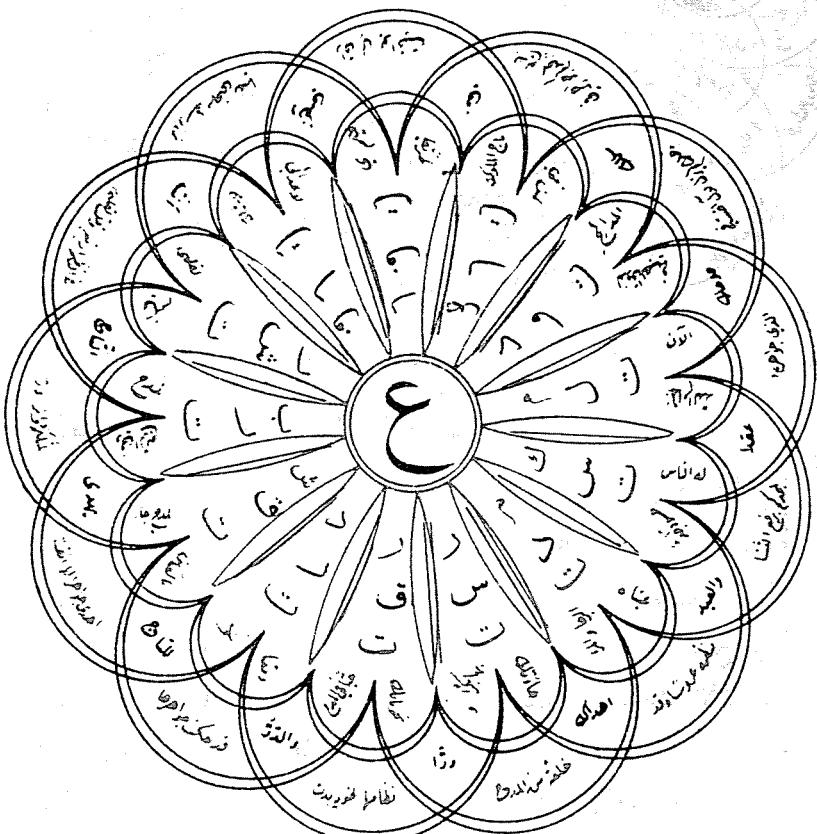
وقلت لقلبي أنت لا شك ترفع  
مقيمًا ونظمي فيكم يتضاعف  
يوأقيت في تاج الملوك ترصنع  
جواهر في سلك المدائخ تودع  
لآل أصبت في مدحك الآن تلمع  
جواهره عقدا له النّاس تسّكع  
برفع الثنا والعبد عيناه تندمع  
عروسا وقد أهداك جاءتك تسرع  
من المدح دُرّا نحو بابك تقرع  
لِخَوْد بَدَت والدَرْ دمعاً ترددُ

عَبَرْتُ لِمَدْحِ النَّاجِ فِي الظَّمَنِ أَرْتَعَ  
عَرَشَتُ لِقَلْبِي أَنْتَ فِي وَسْطِ مَهْجِتِي  
عَفَرْتُ لِأَعْدَائِي وَنَظِيمِي رَاقِ لَي  
عَرَفْتُ طَرِيقًا فِي بَدِيعِ لِمَجْدِكُمْ  
عَصَرْتُ لَمْ فِي سِلْكِ مَدْحِكَ لَمْ يَزَلَّ  
عَدَوْتُ لِذُوقِ الصَّبِّ فِي مَدْحَكِ الَّذِي  
عَمِلْتُ نَظَامَ الدُّرُّ عَقْدًا لِمَجْدِكِمْ  
عَكَسْتُ حَسُودًا جَدًّا وَالْعَبْدُ نَظِيمُه  
عَمَدَتُ الرَّجَا وَالْمَرْءُ أَهْدَاكَ خَلْقَةً  
عَرَسْتُ بَهَا بَكْرًا وَدُرًّا نِظَامُهَا

جواهرها للنَّاجِ بالعينِ تُقْشِعُ لها نفسٌ يُهْدِي وَفِي الرَّبِيعِ ثُرَيْعُ دوائِرَ دُرَّ النَّاجِ فِيكُمْ شَرَعُ	عَرِقَتْ حَيَاً فِي الْمَدْحِ وَالدُّرُّ قَدْ حَكَتْ عَدَرَتْ بِهَالِ لِلنَّاجِ أَهْدِي جَوَاهِرًا عَشَقَتْ لِمَدْحِ جَاءِ يُهْدِي لِمُثْلِكُمْ عَبَرَتْ . . . . . .
--	---

أما البيتان المركبان من الألفاظ الحمر فهما:

النتائج أنت ونظمي في سلوك مدخلك عقداً  
والعبد أهداك دراً والدر للنتائج يهدى



## المشجر والمطرّز

**التَّشْجِير**: لغة ، ضرب من ضروب التَّصْنِيف ، يقوم على تفريع الكلمة من معنى الكلمة أخرى ، وهكذا دَوَالِيْك في استطراد وتسلاسل .

وقد حدَّثنا السُّيوطِي في «المُزَهْر» عن المشجر ، وذكر أنَّ أئمَّةَ اللُّغَة سَمَّوه بـشجر الدُّرّ . كما أورد بهذا الاسم لأبي الطَّيْب كتاباً<sup>(١)</sup> .

ونقل السُّيوطِي عن أبي الطَّيْب تعريف المشجر فقال : (هذا كتاب مُداخلة الكلام للمعاني المختلفة سمِّيَناه (كتاب شجر الدُّر) لأنَّا ترجمنا كلَّ باب منه بشجرة ، وجعلنا لها فروعاً ، وكلَّ شجرة مئةَ كلمة ، أصلها كلمة واحدة ، وكلَّ فرع عشرَ كلمات .. إلخ .. ثمَّ مثلَ على ذلك بشجرة لفظ «عين» فقال :

شجرة العين :

العَيْن : عَيْن الوجه ، والوَجْه : القصد . والقصد : الْكَسْر . والْكَسْر : جانب الخباء . والخباء : مصدر خبائِت الرَّجُل أي خبأت له خبأ ، والخباء : السَّحَاب . والسَّحَاب : اسم عمامة كانت للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . والنَّبِي : التَّلَّ العالِي<sup>(٢)</sup> .. إلخ ..

(١) طبع بدار المعارف في القاهرة سنة ١٩٥٧ م.

(٢) المزهـر ٤٥٤ / ١ . تحقيق جاد المولى والبجاوي وأبي الفضل إبراهيم .

أما الشّجير في الأدب فهو نوع من النّظم يُجعل في تفرّعه على أمثال الشّجرة، وسُمي مشجّراً لاشتجار بعض كلماته ببعض، أي تداخلها، وكلّ ما تداخل بعض أجزائه في بعض فقد تشاخر، وذلك أن يُنظم البيت الذي هو جذع القصيدة، ثم يفرّع منه على كلّ كلمة تَمَّة له من نفس القافية التي نظم بها، وهكذا تكون من جهتيه اليمني واليسري، حتى يخرج منه مثل الشّجرة، وإنّما يشترط فيه أن تكون القطع مكملة كلّها من بحر البيت الذي هو جذع القصيدة، وأن تكون القوافي على روّي قافيه أيضاً<sup>(١)</sup>.

وعرفه محمّد بدر الدين الرّافعي في كتابه : «بديع التّحبير شرح ترجمان الضّمير» بقوله : «نوع المشجّر. وهو أن ينظم الشّاعر بيّتاً، يتمّ بالكلمة الأولى منه بيّتاً يرقّمه إلى الجهة العليا، ثم يقرأ البيت بتمامه ثم يبدل الكلمة الأخيرة، ثم الكلمتين الأخيرتين، ثم يقهر على عكس منوال ما تقدّم حتى يصل إلى أول الكلمة من البيت ، فيتّمها بيّتاً، كلّ ذلك مع اتحاد البحر والرويّ وعدم التّكّلف<sup>(٢)</sup> .

ويبدو أن القدماء لم يعرفوا المشجّر، بهذا الشّكل الفني، وإنّما عرفه رجال القرن العادي عشر الهجري - السابع عشر للميلاد - .

ويعلّل مصطفى صادق الرافعي سبب تسميته بالمشجّر فيقول : «ولعلّ أخذ هذه التّسمية مما يسمونه بشجرة النّسب ، إذ هما متشابهان في الوضع ، متّفقان على الجملة في التّرتيب ، وهذه الكلمة (شجرة النّسب) كانت مستعملة في القرن الرابع وما بعده ، بدليل وجود بعض كتب في الأنساب مسمّاة بهذا الاسم<sup>(٣)</sup> .

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ٤٤٥ / ٣.

(٢) بديع التّحبير ص ٨٣ نقلأً عن البديعيات في الأدب العربي ص ٣٠٠ .

(٣) الرافعي ٤٤٥ / ٣.



كفر حزناً أني بار منزلة

لأنك بالغه سفراً فلبيه  
كذا أقام من اللذين  
فليلاً قليله صيامه  
لأنك بالغه سفراً فلبيه

عن الباب تكون العضا امرأته  
ابن عاليه في باب عنك أنت  
وطار عذيب في باب عنك بينه  
ومني ما ملوكك عن بيك أنت

أنت صارعه في سفراً فلبيه  
كذا أقام في سفراً فلبيه  
أنت صارعه في سفراً فلبيه  
أنت صارعه في سفراً فلبيه

أنت صارعه في سفراً فلبيه  
أنت صارعه في سفراً فلبيه  
أنت صارعه في سفراً فلبيه  
أنت صارعه في سفراً فلبيه

بقي أن نقول : إن شعرا العصور المتأخرة ابتدعوا لوناً من النظم دعواه تارة بالتشجير ، وأخرى بالتطريز .

ويعتمد هذا النظم على جعل أوائل الحروف في الأبيات تشكل اسماء معيناً . فلو أراد أحدهم أن يطرز اسم (أحمد) فإنه ينظم أربعة أبيات ، ويجعل الأول يبدأ بالألف المهموزة ، والثاني بالحاء ، والثالث بالميم ، والرابع بالدال . . . قوله أحد هم مطرزاً أو مشجراً بأحمد<sup>(١)</sup> .

سلامه كان لي في الحال توديعا  
قد رصعته لالي الثغر ترصيعا  
على الوداد له ما زال مطبوعا  
فانتاج الفكر تصيلاً وتفريعا

استودع الله ظيماً في مدینتكم  
حلى المراشيف إلا أن مبسمه  
مهفهف القدد إلا أن عاشقه  
دنوت منه فحاباني بمنطقه  
وقال آخر مطرزاً باسم (خديجة)<sup>(٢)</sup> :

نقطة العنبر في جمر الغضا  
مقلتى صبح محياناً قد أضنا  
وبهذا الحظ للعين رضا  
حظر الوصل وأولاني النضا  
حسن وجهه حين كننا بالأضنا

خللت حال الخد في وجنته  
دامست الأفراح لي مذ أبصرت  
يتمئنني القلب منه لفتة  
جاهر رام سلوا عنه إذ  
هامست العين به لما رأت  
وقال آخر مطرزاً باسم (غريبة)<sup>(٣)</sup> :

غادرني الحب لها كالغلام  
رمى بقلبي طرفها من سهام  
بالمرشق الألعس كم من مدام  
يَخْفِي إذا لاحَت له بالظلام  
هام بها قلبي بوادي الغرام

غيداء كالبدر بليل التمام  
رشيقه الأعطاف كالغضن كم  
بخدهما روض وهي ثغرهما  
يكاد بدر التّسم من فرعها  
هي التي من بين كل المها

(١) سلافة العصر ص ٤٩ والناظم عبد القادر الطبرى المكى .

(٢) سلافة العصر ص ٢٠ . والناظم عبد العزيز بن محمد الزمرمى الشافعى المكى .

(٣) سلافة العصر ص ٦١ والناظم علي بن عبد القادر الطبرى المكى .

ثم جعل النّاظم ذاته اسم (غربيّة) مطّرزاً في أبيات ولكن بطريقة معكوسة حيث يكون الحرف الأول وهو الغين في البيت الأخير.. والحرف الأخير وهو الهاء في البيت الأول . وهذه هي الأبيات<sup>(١)</sup>:

هباء كالشّمس ولكتها  
يفتر منها التّغز عن لؤلؤ  
بالله يا عذال عنى فذا  
رفقاً فما في العذل لي طاقة  
يمكن منها لعذولي الطّروق  
هزل وجدة لذوات الفروق

ثم جاء ناظم آخر فجعل اسم (غربيّة) مطّرزاً في الحروف الأولى من أوائل الشّطرين الأول والثاني . وهذه هي الأبيات<sup>(٢)</sup> :

غادة لحظها سبى القلب لما  
راميات بأسهم مصوّبات  
بهرت شمس مشرق الأفق لما  
يُخجل الغصن هيكل القد منها  
غازلتني بأعين نابيله  
ريشها الهدب والقلوب ربيه  
برأزت شمس حسنه غربه  
يوم تبدو بالقامة السّمهريه  
هل على من يهيم فيه خطيه؟

\*\*\*

(١) سلافة العصر ص ٦١ والناظم علي عبد القادر الطبرى المنكى (نفسه).

(٢) سلافة العصر ص ١٩٢ والناظم فخر الدين الخاتونى .

التُّشْرِيع  
أَو  
ذُوَاتُ الْقَوْافِي

لهذا اللون من الشّعر مسمّيات مختلفة . فابن حَجَّةُ الْحَمْوَى في خزانة الأدب<sup>(١)</sup> سماه (التُّشْرِيع) وشاعر السُّيُوطِي في عقود الجُمَان<sup>(٢)</sup> ، وابن معصوم في أنوار الرَّبِيع<sup>(٣)</sup> . وسماه ابن أبي الإصبع في تحرير التَّحْبِير<sup>(٤)</sup> : (الْتَّوَأْمَ)، وسماه الوطواط في حدائق السُّحْر<sup>(٥)</sup> (المتلون) ، وسماه الرافعي في تاريخ آداب العرب (ذوات القوافي<sup>(٦)</sup>) . وسماه نور الدِّين صَمَود في زخارف عربية<sup>(٧)</sup> (قصائد في قصيد) .

الإسقاط

هذه المسمّيات جميـعاً تعني شيئاً واحداً هو: أن يبني الشاعر بيته على وزئـن عروضـين وقاـفيـتين مختلفـتين ، فإذا أـسـقط جـزـءاً أو جـزـائـين صـار ذلك الـبـيـت من وزـن آخـر ، وعـلـى قـافـية آخـرى . . فيـظـهـر للـنـاظـر أـنـ الشـاعـر قد جاء بشـعـر جـديـد ، وـهـو فيـ الحـقـيقـة عـلـى خـلـاف ذـلـك .

(١) ص ١١٩.

(٢) ١٩٠ / ٢.

(٣) ٣٤٣ / ٣.

(٤) خزانة الأدب ص ١١٩ .

(٥) ص ١٥٤ .

(٦) ٣٣٨ / ٣ .

(٧) ص ٧٢ .

والإسقاط على نوعين :

الأول : يكون من آخر الشطر الثاني من البيت فقط.

الثاني : يكون من آخر الشطر الأول وآخر الشطر الثاني .

مثال النوع الأول : (الإسقاط من آخر الشطر الثاني فقط) .

ورد في إحدى قصائد الأخطل الأموي التي يمدح فيها قومه ، ويهجو جريراً ، ومطلعها :

كذبتك عينك ، ألم رأيت بواسطه غلس الظلام ، من الرباب ، خيالا

قوله :

وإذا الرياح مع العشي تناوحت هوج الرمال ، يكتفيهن شمالة الفيتا نكري العبيط لضيقنا قبل العيال ، ونقشل الأبطالا

فهذا البيتان من بحر الكامل التام ، ورؤيه اللام مفتوحة ، فإذا أسقطت الجزء الأخير من الشطر الثاني من كل بيت وجدت :

وإذا الرياح مع العشي ..... تناوحت هوج الرمال  
الفيتا نكري العبيط ..... ط لضيقنا قبل العيال

وهما من مجزوء الكامل المرفل ، ورؤيهما اللام المكسورة .

وبالأن نتجاوز هذا الشاهد لنعرض النوع الثاني من الإسقاط نود أن نقول : إن الأخطل لم يقصد إلى صنع (تشريع) بديعي أو (توأم) كما ظن مؤلفو علم البديع ، وإنما وقع هذان البيتان في أيديهم على سبيل الصدفة ليس أكثر ، ويفيد ذلك أن الأخطل لم يُوال بين البيتين الشاهدين ، وإنما فصل بينهما بيت آخر لا علاقة له بما قرروا . وقد جاءت الآيات في ديوان الشاعر المحقق <sup>(١)</sup> على النمط التالي :

(١) حنفه الدكتور فخر الدين قباوة . وضعه في دار الآفاق الجديدة في بيروت سنة ١٩٧٩ م .

هَدْجَ الرَّئَالِ، تَكُبَّهُنَّ شِمَالًا<sup>(١)</sup>  
 حَتَّى يَبْيَسَ عَلَى الْعِضَاءِ جُفَالًا<sup>(٢)</sup>  
 قَبْلَ الْعِيَالِ، وَنَقْشُلُ الْأَطْبَالَ<sup>(٣)</sup>

ونظم الحريري قصيدة طويلة على هذه الشاكلة أوردها في المقامة الثالثة والعشرين (الشعرية)<sup>(٤)</sup> وبنى على الأبيات قصة لطيفة . والأبيات هي :

وَقْرَارَةُ الْأَكْدَارِ	شَرَكُ الرَّدَى	يَا خَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنَيَّةِ إِنَّهَا
بَتَّا لَهَا مِنْ دَارِ	أَبْكَتْ غَدَا	دَارُ مَتِّي مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمَهَا
لِجَاهَمَةِ الْغَرَارِ	مِنْهُ صَدَى	وَإِذَا أَظْلَلَ سَحَابُهَا لَمْ يَتَقْنَعْ
بِجَلَائِلِ الْأَخْطَارِ	لَا يُفْتَنَى	غَارَاتُهَا مَا تَنْهَى وَأَسِيرُهَا
مَتَجاوزَ الْمِنَادِارِ	مُتَمَرِّدًا	كَمْ [مَزْدَهِي] بَعْرُورِهَا حَتَّى بَدَا
وَنَزَّتْ لِأَخْزِنِ الثَّارِ	فِيهِ الْمَدَى	قَلَبَتْ لَهُ ظَهَرُ الْمَجْنَنَّ وَأَوْلَعَتْ
مِنْ غَيْرِ مَا اسْتَظْهَارِ	فِيهَا سُدَى	فَارِبًا يُعْمَرُكَ أَنْ يَمْرَرُ مُضِيًّا
وَرَفَاهَةُ الْأَسْرَارِ	تَلْقَ الْهُدَى	وَاقْطَعَ عَلَائِقَ حَبَّهَا وَطَلَابُهَا
وَتَوْثِبُ الْعَدَارِ	حَرْبُ الْعِدَى	وَارْقَبَ إِذَا مَا سَالَمَتْ مِنْ كَيْدِهَا
وَوَنَّتْ سُرُّ الْأَقْدَارِ	طَالَ الْمَدَى	وَاعْلَمَ بَأْنَ خَطُوبَهَا تَفْجَأَا وَلَوْ

وتصير القصيدة بعد إسقاط الجزأين الأخيرين من كل عجز :

يَا خَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنَيَّةِ إِنَّهَا شَرَكُ الرَّدَى	دَارُ مَتِّي مَا أَضْحَكَتْ	يَا خَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنَيَّةِ إِنَّهَا شَرَكُ الرَّدَى
فِي يَوْمَهَا أَبْكَتْ غَدَا	لَمْ يَتَقْنَعْ مِنْهُ صَدَى	وَإِذَا أَظْلَلَ سَحَابُهَا
غَارَاتُهَا مَا تَنْهَى وَأَسِيرُهَا	وَأَسِيرُهَا لَا يُفْتَنَى	غَارَاتُهَا مَا تَنْهَى
كَمْ [مَزْدَهِي]	بَعْرُورِهَا حَتَّى بَدَا	كَمْ [مَزْدَهِي]

(١) العشار: جمع عشراء وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر . وترَوَّحت: رجعت في العشي . والرئال: جمع رآل هو ولد العام . وتكتب: ترمي . والهدج: العلو المقارب من مرض أو كبر .

(٢) العضاء: شجر ذو شوك . الحاصب: الريح الحاملة لبلفار الثلج . والجفال: ما تراكم وترافق .

(٣) العبيط: ما تُحرِّر من غير هرم ولا عدلة ، أو هو الطري .

(٤) انظر ص ٩٩-١٠٦ شرح متصورة ابن دريد ، طبع حلب ١٩٧٨ م تجد قصيدة لابن دريد على هذه الشاكلة .

قَبَّلتْ لَهْ ظَهَرَ الْمَجَنْ وَأَوْلَغَتْ فِيهِ الْمُدَى  
 فَارْبَأْ بُعْرَكَ أَنْ يَمْرُ مُضِيًّا فِيهَا سُدَى  
 وَاقْطَعَ عَلَائِقَ حُبَّهَا وَطَلَابَهَا تَلَقَ الْهَدَى  
 وَارْقَبَ إِذَا مَا سَالَمَتْ مِنْ كِيدَهَا حَرَبَ الْعَدَى  
 وَاعْلَمَ بَأْنَ خَطُوبَهَا تَفَجَّا وَلَوْ طَالَ الْمَدَى

\* \* \*

**مثال النوع الثاني : (إسقاط من آخر الشطرين الأول والثاني)**

قال صفي الدين الحلي في إحدى قصائده :

فَلَوْ رَأَيْتَ مُصَابِيْ عِنْدَمَا رَحَلُوا رَثَيْتَ لَيْ مِنْ عَذَابِيْ يَوْمَ بَيْنِهِمْ  
 وَهُوْ مِنْ الْبَحْرِ الْبَسِطِ، وَيَصِيْعُ بَعْدَ إِسْقَاطِ جَزَاهِهِ مِنْ مَجْزُوهِ الْمُجْتَثِ  
 عَلَى الصُّورَةِ التَّالِيَةِ :

فَلَوْ رَأَيْتَ مُصَابِيْ رَثَيْتَ لَيْ مِنْ عَذَابِيْ

وَيَعْلَقُ ابْنُ حَجَّةَ الْحَمْوَى عَلَى هَذَا اللَّوْنِ الْبَدِيعِيِّ بِنَوْعِهِ بِقُولِهِ : ( . . . )  
 وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا النَّوْعُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِتَكْلِفِ زَائِدٍ وَتَعْسُفٍ، فَإِنَّهُ راجِعٌ إِلَى  
 الصَّنَاعَةِ، لَا إِلَى الْبَلَاغَةِ وَالْبِرَاءَةِ، إِذْ وَقْوَعُ مُثْلُ هَذَا النَّوْعِ فِي الشِّعْرِ مِنْ غَيْرِ  
 قَصْدِهِ نَادِرٌ، وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ فِي التَّشْرِ، فَإِنَّهُ مَا يَقْعُدُ فِيهِ إِلَّا تَرَصِيْعًا، وَلَا  
 يَظْهَرُ حُسْنُهِ إِلَّا فِي النَّظَمِ، لَأَنَّ فِيهِ الْاِنْتِقَالُ مِنْ وَزْنِ إِلَى وَزْنِ آخَرَ، فَيَحْصُلُ  
 بِذَلِكَ مِنَ الْاسْتِحْسَانِ مَا لَا يَحْسُنُ فِي التَّشْرِ، لَأَنَّ التَّشْرَ عَلَى كُلِّ حَالٍ كَلَامٌ  
 مَسْجُوعٌ، لَيْسَ فِيهِ اِنْتِقَالٌ مِنْ وَزْنٍ إِلَى وَزْنٍ. وَأَوْسَعُ الْبَحُورِ فِي هَذَا النَّوْعِ :  
 الرَّجَزُ، فَإِنَّهُ قَدْ وَقَعَ مُسْتَعْمَلًا تَامًا، وَمَجْزُوهًا، وَمَشْطُورًا، وَمَنْهُوكًا، فَيُمْكِنُ  
 أَنْ يُعَمَّلَ لِلْبَيْتِ مِنْهُ أَرْبَعَ قَوَافِ .

فَإِذَا أَسْقَطَتْ مَا بَعْدَ الْقَافِيَةِ الْأُولَى بَقِيَ الْبَيْتُ مَنْهُوكًا .

وَإِذَا أَسْقَطَتْ مَا بَعْدَ الْثَّانِيَةِ بَقِيَ الْبَيْتُ مَشْطُورًا .

وَإِذَا أَسْقَطَتْ مَا بَعْدَ الْثَّالِثَةِ بَقِيَ مَجْزُوهًا .

وَإِذَا لَمْ تُسْقِطْ شَيْئًا كَانَ تَامًا .

ولابن جابر الأندلسي - صاحب البدعية - الآيات التالية:

يرنو بطرف فاتر	مهما رنا	لا أنهى عن حبه
يهفو بغضن ناضر	حلو الجن	لا صبر لي عن قربه
لو كان يوما زائري	زال العنا	في الحب أن تسمى به
أنزله في خاطري	قد دنا	إذ لم يخل عن صبيه

وهذه الآيات من الرَّجَز التَّام، وهو الضَّربُ الأول منه. فإن تركتها كانت على حالها من التَّام، وإذا أسقطتَ من البيت الأول (لا أنهى عن حبه) ومن الثاني (لا صبر لي عن قربه) ومن الثالث (في الحب أن تسمى به) ومن الرابع (إذ لم يخل عن صبيه) صارت من الرَّجَز المجزوء.

وإن أسقطتَ من البيت الأول ( فهو المنى ) إلى آخره، ومن الثاني (يسْفِي الضَّنى) إلى آخره، ومن الثالث (يحلو لنا) إلى آخره، ومن الرابع (قد سرنا) إلى آخره، صارت من الرَّجَز المشطور.

وإن أسقطتَ من الأول (مهما رنا) ومن الثاني (حلو الجن) ومن الثالث (زال العنا) ومن الرابع (لما دنا) إلى آخره صار من الرَّجَز المنهوك.

وكأنَّ هذا اللُّون أعجب كثيراً من الشَّعراء فراحوا ينظمون على منواله، ويتفشون في معانيه.

\* \* \*

هذا أبو جعفر الغرناطي ينظم على صورة النوع الأول فيقول<sup>(١)</sup>:

يا راحلأ يغلي زيارة طيبة	نزلت المُنى	بزيارة الأخيار
حي العقيق إذا وصلت وصف لنا	وادي مُنى	يا طيب الأخبار
إذا وقفت لدى المعرف داعيا	زال العنا	وظفرت بالأوطار

(١) ولد بعد سنة ٧٠٠ للهجرة، ورافق ابن جابر الأندلسي الأعمى ورحل معه إلى المشرق، وقام بحلب نحو ٣٠ سنة، توفي سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٨ م (الأعلام ١ / ٢٧٤).

وهذا ابن معتوق ينظم مدحه على صورة النوع الثاني فيقول فيها<sup>(١)</sup>:

فخر الورى	حيدري عم نائله	فجر الهدى	ذو المعالي الباهرات على
نجم السهى	فلكليات مراتبه	بادي السنّا	تير يزهو على زحل
ليث الشرى	قبس تهمي أنامه	غيث الندى	مورد أشهى من العسل
بدر البها	افق تبدو كواكبه	شمس الدّنـا	صبح ليل الحادث الجللـ
سامي الذرى	حتف العـدا صامـد تحسـى نوازله	ضاربـ الـهـامـاتـ والـقلـلـ	زـينـةـ الأـجيـادـ والـدـولـ
طويـ النـوى	سيـسطـ الثـناـ	عـندـ بـيتـ المـالـ صـاحـبـهـ	

الطَّرِيفُ فِي هَذِهِ الْقَصَائِدِ أَنَّهَا تَوَلَّ وَهِي تَامَّةٌ لَوْنَاهُ مِنَ النَّظَمِ، وَإِذَا حُذِفَ مِنْهَا جُزْءٌ صَارَتْ قَصِيدةً جَدِيدَةً، وَإِذَا حُذِفَ جُزْءٌ مِنْهَا صَارَتْ قَصِيدةً أُخْرَى . . وَهَكُذا يَتَوَلَّ مِنَ القَصِيدةِ الْوَاحِدَةِ قَصَائِدَ عِدَّةً .

أَكْثَرُ مِنْ هَذَا، فَإِنَّا نُسْتَطِيعُ أَنْ نَبْدِلَ أَجْزَاءَهَا تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا، فَيَحْصُلُ عَنْدَنَا مِنَ القَصِيدةِ الْوَاحِدَةِ مِئَاتُ الْقَصَائِدِ. وَإِلَيْكَ نَمُوذْجًا مَمَّا نَقُولُ :

نظم الوزير لسان الدين محمد بن عبد الله السليماني الأندلسي قصيدة مكونة من اثنين عشر بيتاً . . وبطريقة التقديم والتأخير يمكن أن تقرأ على وجهها ، والقصيدة هي :

داء توى	بغدادي شفه السقم	لهب تذكو شرارته	بأصلعي
يوم النوى	حل في قلبي له ألم	من جوى شبّت حرارته	توجعى
جل الهوى	ملبسى وجداً به عدم	مع العنا	بتبعى
مصلى جوى	وجهه من تزهو نضارته	لمحنتى	ما حيلتي
بمصرعى	مولع بال مجر منقم	إذا اثنى	إذا اثنى
هد القوى	معتد تحلو مراته	قد كوى قلبي مع الكبد	يا قومنا
مرروعى	حسنـهـ كالـبـدرـ مـبـتـسـمـ	آخـذاـ نحوـ الرـدـىـ بيـديـ	لـفتـتـىـ
	قـمـرـ تـسـبـيـ إـشـارـتـهـ	مـوـهـنـ عـنـدـ النـوىـ جـلـديـ	إـذاـ رـنـاـ

(١) توفي سنة ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ مـ . وله ديوان شعر مطبوع في دار صادر في بيروت .

فَلْقَبِيْ كُوْيِ | مَلِكِ فِي الْحَسْنِ مَحْكُومِ | لَقْصَتِيْ | وَهُوَ سُؤْلِيْ وَهُوَ مَعْتَمِدِيْ  
مَوْدَعِيْ | سَارَ لَا شَطَّتَ زِيَارَتِهِ | لَمَّا جَنِيْ | مُورَثِيْ وَجْدًا مَعَ الْأَبْدِ

١٤ شوى	بـ ضـ عـ	بغـارـي شـنـهـ السـنـمـ	في محلـ الروـقـ منـ جـسـديـ
بـ حـمـيـ	بـ حـمـيـ	لـهـبـ تـذـكـرـ مـوـشـارـةـ	منـ دـوـاعـيـ الـحـلـمـ وـالـكـلـ
بـ حـمـيـ	بـ حـمـيـ	حـلـ فيـ قـلـبيـ لـ الـهـ	وـبـلـائـيـ فـيـ بـالـدـصـ
بـ حـمـيـ	بـ حـمـيـ	مـنـ جـوـيـ شـبـتـ حـارـدـةـ	فـرـقـلـيـ فـنـهـ ذـلـكـ
بـ حـمـيـ	بـ حـمـيـ	مـلـبـيـ وـجـادـبـ عـلـمـ	مـنـ ثـلـاـ باـخـسـ مـنـ فـتـهـ
بـ حـمـيـ	بـ حـمـيـ	وـجـدـ مـنـ تـرـزـهـ فـضـارـةـ	فـاتـلـيـ عـدـدـ أـبـلـاقـودـ
بـ حـمـيـ	بـ حـمـيـ	مـولـعـ بـالـجـدـ مـنـ فـتـهـ	فـدـ كـوـيـ فـلـيـ مـعـ الـكـبـ
بـ حـمـيـ	بـ حـمـيـ	مـعـتـدـلـ غـلـوـ مـلـارـدـةـ	أـخـذـاـ نـحـوـ الرـدـ بـرـدـيـ
بـ حـمـيـ	بـ حـمـيـ	حـسـنـ كـلـبـاسـ بـثـيـمـ	مـعـ مـنـعـنـدـ النـعـيـ جـلـيـ
بـ حـمـيـ	بـ حـمـيـ	قـسـرـ سـبـيـ إـشـارـةـ	سـاطـعـ الـأـنـوـارـ فـيـ الـبـلـدـ
بـ حـمـيـ	بـ حـمـيـ	مـلـكـ فـيـ أـسـنـ مـعـتـكـامـ	وـمـوسـيـ وـمـوـعـدـيـ
بـ حـمـيـ	بـ حـمـيـ	سـلـ لـاشـتـ زـيـارـةـ	مـورـقـ وـجـادـبـ الـأـيـدـيـ

ولصفي الدين الحيلي أبيات قريبة الشكل هذا النوع وهي :

يا شقائي	من سَقَامِي	لَكَ عِلْم	لَيْتْ شِعْرِي
وضنائي	ونحولي	من زَفِيري	لَكَ عِلْم
أنت دائى	داونى إذ	ونحولي	من سَقَامِي
ودوائى	أنت دائى	وضنائي	يا شقائي

لو قرأنا الأبيات طولاً وعرضًا ، عمودياً وعكسياً فإننا نجدها ذاتها لم تغير ولم تتبدل .

\* \* \*

وأخيراً ، فإن هناك لوناً من الشعر لو بذلنا فيه كلمة مكان كلمة ، تقديمياً أو تأخيراً ، لتنظيم من البيت الواحد آلاف الأبيات ، من ذلك مثلاً :

لِقْلُبِيِّ ، حَبِيبٌ ، مَلِيعٌ ، بَدِيعٌ ، جَمِيلٌ ، رَشِيقٌ ، لَطِيفٌ

هذا البيت يقرأ على أربعين ألفاً وثلاثمائة وعشرين صورة (٤٠، ٣٢٠) .  
وذلك أن أجزاءه ثمانية ، يمكن أن ينطق بكل جزء من أجزاءه مع الجزء الآخر ، فتنقل كل الكلمة ثمانية انتقالات .

فالجزءان الأولان (لقلبي حبيب) يتصور منهما صورتان بالتقديم والتأخير .

ثم نأخذ الجزء الثالث (مليع) فيحدث منه مع الأولين ست صور وهي :

- ١ - لقلبي حبيب مليح
- ٢ - لقلبي مليح حبيب
- ٣ - حبيب لقلبي مليح
- ٤ - حبيب مليح لقلبي
- ٥ - مليح لقلبي حبيب
- ٦ - مليح حبيب لقلبي

والذي لاحظناه أن له ثلاثة أحوال: حالة تقديم، وحالة تأخير، وحالة توسيط لكل كلمة. فإذا ضربنا أحواله في الحالين يكون ستة.

ثم نأخذ الجزء الرابع. وله أربعة أحوال، فنضربها في الصور المتقدمة، وهي <sup>الستة</sup>، فيكون الناتج أربعة وعشرين.

ثم نأخذ الجزء الخامس. وله خمسة أحوال. فنضربها في الصور المتقدمة، وهي أربعة وعشرين، فيكون الناتج : مائة وعشرين.

ثم نأخذ الجزء السادس. وله ستة أحوال. فنضربها في الصور المتقدمة، وهي مائة وعشرون، فيكون الناتج : سبعمائة وعشرين.

ثم نأخذ الجزء السابع، وله سبعة أحوال، فنضربها في الصور المتقدمة، وهي سبعمائة وعشرون، فيكون الناتج : خمسة آلاف وأربعين.

ثم نأخذ الجزء الثامن، وله ثمانية أحوال، فنضربها في الصور المتقدمة، وهي خمسة آلاف وأربعون، فيكون الناتج أربعين ألفاً وثلاثمائة وعشرين بيتاً.

\* \* \*

## التّارِيخُ الشَّعْرِيُّ حسَابُ الْجُمْلِ

نشأته

اختلف مؤرخو الأدب العربي في توقيت العصر الذي ابتدأ فيه التاريخ بالشعر اختلافاً كبيراً. فالأمير حيد الشهابي<sup>(١)</sup> أدعى أنَّ عبد الرحمن النحلاوي<sup>(٢)</sup> أول من ابتدأه حيث قال: «وهو الذي اخترع فنَّ التّاريخ على حساب الجُملِ، لأنَّا لم نجد تارِيحاً على هذا الحساب قبل عهده»<sup>(٢)</sup>.

ومن المؤكَّد أنَّ أولَ من أدخله في نطاق فنون البديع الشَّيخ عبد الغني النَّابُلُسِي<sup>(٤)</sup> وقد قال: «إنَّ هذا التّارِيخُ اخترعه المتأخرون، ولهم فيه العَجَابُ . . . وقد أدرجته في فنون البديع لعلُّه مراتبه، وسمُّ مناقبه، ولطافة مسلكيه، وطلوع شمس البلاغة في أوج فلکه»<sup>(٥)</sup>.

على أنَّ عدداً من الباحثين يردُّ هذا اللُّونَ من التّارِيخ إلى العصر

(١) لبنياني، انتُخب للولاية ثلاثة مرات ألف كتاباً عنوانه «الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان» في ثلاثة مجلدات. نشر في بيروت سنة ١٩٣٣ م.

(٢) شاعر دمشقي توفي سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٤٩ م. سلك المدرر للمرادي ٢ / ٣١٧.

(٣) الغرر الحسان ٢ / ٧٦٥.

(٤) شاعر دمشقي، عالم بالدين والأدب، مُؤثر من التصنيف، له بديعية اسمها: نفحات الأزهار على نسمات الأحس哈尔. مشهور بتصوفه. توفي بدمشق سنة ١١٤٣ هـ / ١٧٣١ م. الأعلام ٤ / ٣٢.

(٥) نفحات الأزهار ص ٣٣٦.

الجاهليَّ. ويرى أنَّ العرب عرفوه واستخدموه<sup>(١)</sup>، ومنهم مَن رأى أنَّ أقدمَ ما وصل إلينا منه قول ابن الشَّيْبَيْب<sup>(٢)</sup> في الإمام المستنجد باللهِ، وهو الخليفة الثاني والثلاثون في سلسلة الخلفاء العَبَّاسِيْنَ. والبيت هو:

أَصْبَحَتْ لُبَّ بْنِي الْعَبَّارِ كُلُّهُمْ إِنْ عُدَّتْ بِحُرُوفِ الْجُمَلِ الْخُلْفَا  
أَرَادَ ابْنَ الشَّيْبَيْبَ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الْمُسْتَنْجِدَ بِاللهِ هُوَ الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ مِنَ  
الْخُلْفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ، وَإِنَّ هَذَا الْعَدْدَ مُتَضَمِّنٌ فِي جُمَلَ لُبَّ، ثُمَّ انتَشَرَ هَذَا  
الْفَنُ بَيْنَ الشَّعَرَاءِ وَلَا سِيمَّا فِي الْقُرُونِ الْمُتَأَخَّرَةِ، وَتَقَرَّرَتْ شَرْوَطُهُ، وَتَعَيَّنَتْ  
أَنْوَاعُهُ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَجُرِ فِي الْأَزْمَنَةِ الْمُتَأَخَّرَةِ أَمْرُذُو بَالْدُونَ أَنْ يَنْظُمَ لَهُ بَعْضُ  
الْشَّعَرَاءِ تَأْرِيْخًا<sup>(٣)</sup>.

وَسَوَاءً أَعْرَفْهُ، الْعَربُ فِي الْعَصُورِ الْأُولَى أَمْ لَمْ يَعْرُفُوهُ، فَإِنَّا فَتَحْنَا أَعْيُنَنَا  
وَهُدَى الْمَلُونَ شَائِعٌ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ، مَتَّقْوَشٌ عَلَى بَعْضِ أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ، أَوْ  
مَنْظُومٌ بِهِ تَأْرِيْخٌ مِيَلَادٌ بَعْضِ أَبْنَاءِ السَّادَةِ مِنَ النَّاسِ، أَوْ عَرْسٌ بَعْضِ الْبَلَاءِ،  
أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَاسِبَاتِ الَّتِي تَهِمُّ النَّاسَ، أَوْ تَسْتَدِعُ اهْتِمَامَهُمْ.

هَذَا التَّأْرِيْخُ الشَّعَرَيِّيُّ لِهِ تَسْمِيَّةٌ أُخْرَى هِيَ (حِسَابُ الْجُمَلِ) - بِضمِّ الْجِيمِ،  
وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ مَعْ فَتْحِهَا - وَهِيَ أَشْيَعُ وَأَعْرَفُ.

أَمَّا طَرِيقَةُ حِسَابِ الْجُمَلِ فَتَعْتَمِدُ عَلَى تَرْتِيبِ حُرُوفِ الْهَجَاءِ التَّرْتِيبُ  
الْأَبْجَدِيُّ لَا التَّرْتِيبُ الْأَلْفَبِيَّ الَّذِي نَسْتَخْدِمُهُ فِي مَعَاجِمِنَا. وَهُوَ كَمَا يَلِيْ:  
أَبْجَدُ. هَوَزُ. حُطَّيُ. كَلْمُنُ. سَعْفَصُ. قَرَشَتُ. ثَخِدُ. ضَطْغُ.

وَكُلُّ حَرْفٍ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ لَهُ قِيمَةٌ نَعْدِديَّةٌ، وَهِيَ كَالتَّالِيِّ :

(١) انظر مجلَّةُ (المشرق) السنة السادسة (١٩٠٣) العدد ٢١، شهر تشرين الثاني ص ٩٨٦.

(٢) هو الحسين بن علي ، المعروف بابن الشَّيْبَيْبَ التَّصِيْبِيِّ . كاتب من النَّدَماءِ والشَّعَرَاءِ الْأَعْيَانِ مِنْ  
هَلَّ بَغْدَادَ . اخْتَصَرَ بِالْمُسْتَنْجِدِ بِاللهِ وَمَنَادِمَتِهِ . وَهُوَ حَدَّ الذِّيْنَ تَرَجَّمَ لَهُمُ الْعَمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ  
فِي خَرِيدَتِهِ - قَسْمُ شَعَرَاءِ الْعَرَاقِ - تَوْفِيَ سَنَةُ ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ مـ . الْأَعْلَامُ ٢/٢٤٦ .

(٣) تاريخ ادب العرب للرافعي ٣/٣٩٦ .

آحاد	عشرات	مئات
١ = أ	٢٠ = ك	١٠٠ = ق
٢ = ب	٣٠ = ل	٢٠٠ = ر
٣ = ج	٤٠ = م	٣٠٠ = ش
٤ = د	٥٠ = ن	٤٠٠ = ت
٥ = هـ	٦٠ = س	٥٠٠ = ثـ
٦ = وـ	٧٠ = عـ	٦٠٠ = خـ
٧ = زـ	٨٠ = فـ	٧٠٠ = ذـ
٨ = حـ	٩٠ = صـ	٨٠٠ = ضـ
٩ = طـ		٩٠٠ = ظـ
١٠ = يـ		١٠٠٠ = غـ

ولقد اشترط أصحاب هذا الفن عدّة شروط لضبطه وحسن استخدامه. منها: أن يتقدم على الفاظة كلمة «أرّخ» أو «أرّخوا» أو ما يدلّ على التاريخ، وإذا تصرف الشاعر في تقديمِ أو تأخيرِ أو زيادةِ بعد لفظة (التاريخ) أشار إلى ذلك لثلاً يستغلق على القارئ، كقول بعضهم في تاريخ نزهة في بستان، وكانت سنة ١٦٠٠:

يَهْنِيكَ تَارِيخُ أَتَى ضَبْطَهُ «بُسْتَانٌ بَسْطَ بَاهِرٌ زَاهِرٌ»

فلم يُحسب في التاريخ قوله «أتى ضبطه». ومثله قول آخر:

«فَتَحْنَا الْعِرَاقَ» وذا اللفظ من رشاقته جاء تاريخه

والتأريخ المقصود في قوله «فَتَحْنَا الْعِرَاقَ» وهو يعدل سنة ٩٤١.

ومن شروطه ألا يكون التاريخ في بيتهن، بل في بيت واحد، ويستحسن أن يكون في عجزِ البيت لافي صدرِه.

ومن شروطه أن تُحسب الحروف على صورتها الكتائية لا حسب لفظها، فألف «فتى» تُحسب ياءً، وتاء التأنيث المنقطة تُحسب تاءً، وغير المنقطة هاءً، والحرف المُشدّد يُحسب واحداً، والهمزة الواقعة على السطر

لا تُحسب شيئاً، كما أنَّ ألفاً الإطلاق تُعدُّ ألفاً.. وَهُلْمَ جَرَّاً.

ومن شروطه أن تكون في الأبيات الشعريَّة نكتة أدبية، أو فكاهة، أو حكمة، وأن تكون الألفاظ منسجمة، والمعاني مُؤتلفة، وأن تخلو من كل هُجنة، مثل ذلك قول ابن المبلط<sup>(١)</sup> يؤرخ جلوس السلطان سليم الثاني سنة ٩٧٤ هـ / ١٥٦٦ مـ.

تولى ملِيكُ العصِيرِ وابنُ ملِيكِهِ بُعْزٌ وتأييِدٌ ونصِيرٌ وسلطانٌ  
ودولةٌ ملِكٌ قلتُ فيها مؤرخاً «سليم تولى الملك بعد سليمان»  
ولو حسبنا جُملَ قوله «سليم تولى الملك بعد سليمان» لوجدنَاه يساوي  
٩٧٤ وهو تاريخ جلوسه على العرش.

ويبدو أنَّ أبناء القرن الثاني عشر الهجري استطابوا هذا اللون من  
البديع، فأكثروا منه إكثاراً عجيباً، وتفنَّنوا فيه تفناً غريباً، وأتوا بما يشبه  
المعجزات، وهذا نحن أولاء نورد بعضَها من هذه الشواهد:

أ - نظم أحد الشعراء أبياتاً يؤرخ فيها عرساً جرى بحلب، فجعل جُملَ  
الحراف المهمَلة في البيت الأخير تاريخ العرس وهو سنة ١١٣٠  
للهجرة، وجُملَ الحروف المعجمة في البيت ذاته التاريخ نفسه،  
وأضاف إلى ذلك ذكر التاريخ صراحةً. والأبيات هي:

أيها الكاملُ، يا منْ أخبرتَ  
عن عُلَاهِ فِئَةٍ بعد فِئَةٍ  
خُذْ تواريحاً ثلاثاً جُمعتْ  
لَكَ في مُفرِدٍ بَيْتٍ مُنْيَةً  
بِصَرِيحٍ وحُرُوفٍ أَعْجَمَتْ  
وَحْرُوفٍ أَهْمَلتْ مُختَبِهَ  
عَمَّ حَوْلَ وَسُرُورُ الْمَرْسِ وَهُنَّ

ب - نظم عبد الرحمن النَّحْلَوِي المعروف بالبهلول<sup>(٢)</sup> بيتين من الشعْر،  
جعل التَّارِيخَ في كُلِّ شطر، بل جعل التَّارِيخَ مكرراً في الشَّطر  
الواحد، حتَّى إنَّه كَرَّ التَّارِيخَ ذاته ثمانِي مَرَاتٍ في البيتين وهما:

(١) إبراهيم بن المبلط. شاعر مصرى تربَّم له مؤلف الكواكب السائرة ٣/٩٢.

(٢) من رجال القرن الثاني عشر الهجرى، توفي سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٤٩ مـ. انظر سعود المطالع للأبازى ٢/٢٦٤.

أهديك مدحًا يليغا يا سني غدا	١١٣٦	بحر الفتوحات باهي الفضل والمن	١١٣٦
الفاظه كنجوم فهني تشرق ما	١١٣٦	بدا سنا بدرها أرخه عبد غني	١١٣٦
	١١٣٦		١١٣٦

فِجْمَلٌ : أهديك مدحًا يليغا هو ١١٣٦

وِجْمَلٌ : يا سني غدا هو ١١٣٦ .

وِجْمَلٌ : بحر الفتوحات هو ١١٣٦

وِجْمَلٌ : باهي الفضل والمن هو ١١٣٦

وِجْمَلٌ : الفاظه كنجوم هو ١١٣٦

وِجْمَلٌ : فهني تشرق ما هو ١١٣٦

وِجْمَلٌ : بدا سنا بدرها أرخه هو ١١٣٦ .

وِجْمَلٌ : عبد غني هو: ١١٣٦ .

## ج - لوحة عالمية

أورد ابن معصوم في كتابه «سلافة العصر» قصيدة في التّاريخ الشّعري نسبها إلى شاعر اسمه «شهاب الدين أحمد بن الفضل بن محمد باكثير المكي» وقال ابن معصوم في التعليق عليها: «... ومن مشهور قصائد البديعة التي أظهر في الفاظها ومعانيها بيانه وبديعه، ميميته التي استخرج دُرَّها من بحر البسيط، وقسَطْ تفاعيلها أحسن تقسيط، وأودعها ثمانية أبيات من المهرج، يؤرَخ كلَّ بيت منها عامًّا نظمها الذي صرف فيه البلاغة وما مزاج، مادحًا بها السيد علي بن بركات بن أبي نمي، ممدوحه الذي اشتهر به اشتهر غيلان بيمي. ومني بعد نظمها لشدة الفكر بعلة، بقي مرئها بها أربعة أهلة. وهذا أنا أنصها عليك بجملتها نصًّا العروس في حجلتها. وبيان استخراج التواريخ منها: أنَّ أجزاء بحراً ثمانية تفاعيل، فإذا أخذَ الجزء الأول من رأس القصيدة إلى آخرها، وألْفَ ، ترَكَ منه البيت الأول من التواريخ، وإذا أخذَ أول الجزء الثاني كذلك، ترَكَ منه البيت الثاني، وهكذا البيت الثالث والرابع إلى الثامن. ويخرج من أول كلمة من أعجزها بيت تاسع، وهو تاريخ أيضًا، فخذ صدره من الصدور، وعَجَزَه من الأعجاز<sup>(١)</sup> .

(١) سلافة العصر ص ٢٠٤ .

رُوحِي لِمَنْ كَانَ لِلأَمَالِ مُلْتَزِمٍ  
 حِيَاةً مَلَّ طُولاً مِنْ نُفُورِهِمْ  
 يَا حَبَّذا يَوْمُ رَؤْيَا مُلْقَى أَدَمِي  
 بِمُرْرَ ما أَلْفَوهُ طُولَ صَرَبِهِمْ  
 أَسَائِهِ لَمْ أَبْحَجْ يَوْمًا بِشَأْنِهِمْ  
 لِمُقْلَتِي كَانَ يَحْلُو مِنْهُ سَفَكْ دَمِي  
 سُؤَالَةُ رَحْمَةٌ بِالوَصْلِ عَنْ أَمْمٍ  
 وَكُفَّ عنْ فِرْطِ صَدَ زَادَ فِي تُهْبِي  
 حَوْدَتُ غَيْبِي بِمِنْ أَهْدِي الضَّنَا وَحُمَّي  
 فَبَعْدِهِ أَبْدَا لَمْ أَشَكُّ مِنْ أَلْمٍ  
 يَوْمًا لَعْلَكَ ثُبَّدِي سَرَّ خَلِّهِمْ  
 سَرِّي وَدَعْهُمْ فَمَا أَخْشَى وَلَمْ أَلْمِ  
 لَهُ الْمَخَالِيلُ فِي عَزْمٍ وَفِي هَمٍ  
 مُمْتَنَعُ الْجَارِ مَنْ يَلْحَظُهُ لَمْ يُضْمَنْ  
 كَثِيرَةُ الْأَمْنِ أَعْفَاهَا مِنْ النَّفَمْ  
 رَوْيَ عَلَاهُمْ عَلَيَّ الْمَجْدُ فِي الْأَمْمِ  
 يُرَى عَزِيزُ تَسَامِي نَحْوَ مَجْدِهِمْ  
 مِنْ فَخْرِهِمْ بَعْضُ مَا سَادُوا بِهِدِيهِمْ  
 زَادُوا بِفَخْرِ عَلَيَّ فِي عَلُوِّهِمْ  
 إِلَى مَرَاقِيهِ يَهُوِي بَلْ وَعْنِهِ حُمَّي  
 تَرَى الْعِدَادُ طِرِحُوا هَبْرًا عَلَى وَضْمَنِ  
 بَدَتْ لَنَا مِنْهُ فِي وَقْعِ الْقَنَا بِهِمْ  
 أَحْيَتْ ذَا أَمْلَ مَيْتٍ وَذَا أَطْمَنْ  
 لِعَزَّ عَلَيَّكَ مَنْسُوبًا بِكُلِّ فِمْ  
 لِتَهْنِكُمْ قَدْ حَوَيْتُمْ صَفْرَ كَتْرِهِمْ  
 طَرَازُ عَطْفِ الْذَّاكَرِ ارْجَنْ بِهِ حِكْمَي  
 فَسُدُّ أَيَّا وَبِالْفَوزِ الْلَّطِيفِ دُمْ

عَلَيَّ إِنْ بَتْ أَجْنِي نُورَ قُرَيْبِهِمْ  
 لَا يَحْسَبُ الْجَاهِلُ الصَّبَّ الَّذِي دَرَسَتْ  
 يَسْتَعْذِبُ الدَّاءِ إِنْ وَفَوا بِرَوْيِتِهِمْ  
 أَحْلَى لَدَى مِنْ الْحَلْوَى وَلُوعُهُمْ  
 لَوْ أَنَّ مِنْ هَجْرِهِمْ أَمْسَى لِقَى أَيْسَتْ  
 حَتَّى وَلَوْ سَارَ سَهْمٌ مِنْ نِيَالَ نَوَى  
 مَنْتَوَا عَلَى مُغَرِّمٍ حَانَ التَّلَافُ لَهُ  
 دَعْ عَنْكَ يَا أَيَّهَا السَّاعِي أَتَبَاعَهُوِي  
 فَلَوْ يَلْسُونُ لَذِي نَهَيَ جَمَالُهُمْ  
 يَطِيبُ مَوْتِي إِنْ أَسْعَدْ بِطْفِهِمْ  
 أَيَا صَفِيَا إِذَا يَمْمَتْ حَيَّهُمْ  
 لَيَرْحِمُوا حَالَتِي جُودًا فَإِنْ وَجَمُوا  
 وَمِخْلِصِي وَاعْتِمَادِي مَدْحُ مِنْ صَدَقَتْ  
 صَعْبُ الْعَزَائِمِ لَا يَرْتَاعُ مِنْ فَرْعَ  
 فَتَاكَ شَفْقَةَ بِالْعَزْمِ صَرِّهَا  
 عَزِيزُ حِيَ غَطَارِيفُ ذُوي هَمِّ  
 لِعَزِيزِهِمْ إِذَا عَنَتْ أَهْلَ الْفَخَامِ فَمَا  
 يَوَدُ كُلَّ مَبَاوِ لوْ يَكُونُ لَهُ  
 مِنْ ذَا يَقاومُهُمْ أَوْ مِنْ يُسَاهِمُهُمْ  
 سَمَا وَخُصَّ بِفَضْلِ مَنْ يُطَاوِلُهُ  
 عَلَيَّ وَصَفُّ وَفَعْلُ فِي الطَّعَانِ إِذَا  
 درَايَةً مِنْ أَبِيهِ الْمُرْتَضَى وَرِثَتْ  
 أَمَتْ يَا أَيَّهَا الْلَّيْثُ الْهُمَّامُ وَمَنْ  
 لَقَدْ غَدَا يَتَعَالَى الْمَجْدُ حِينَ رَوَى  
 صَاهِرَتْ يَا كَامِلَ الْعَلِيَا وَمُسَعِّدُهَا  
 نَظَمَتْ وَصَفَكَ دَرَا ضَمَنْ تَهْنِئَةً  
 فِيمَنْ عَلَيَّ بَدَا فِيكَ الْهَدِي فَرَهَا

هذه القصيدة لو نظرت إلى معانيها ساءتك المعاني، وساءك النظم والأسلوب، وحكمت عليها الحكم القاتل... ولكنَّ هذه القصيدة من وجهة نظر أخرى هي لوحة فنية، قلَّ نظيرها في الشعر العربي، إنها تشفُّ عن صنعة رجلٍ فنانٍ (مفتَنٌ) ندرَ مثيله... وإليك بيان ذلك.

القصيدة من البحر البسيط التام، في الشَّطر الأول أربع تفعيلات، وفي الثاني كذلك، ولو أخذت الحرف الأول من التفعيلة الأولى في البيت الأول، وأخذت الحرف الأول من التفعيلة الأولى في البيت الثاني، وهكذا فعلت في الثالث، والرابع إلى آخرها، لرأيت أنَّه تجمَّع عندك بيت شعر من بحر الرِّجز وهو:

عَلَيَّ الْحَمْدُ فِي الْوَصْفِ عَلَيَّ مُسَعِّدُ الصَّنْفِ  
ولو حسبت حروفه بحساب الجُملَ لرأيت أنَّه يشير إلى الرقم ١٠٢٥ وهو  
تارِيخ نظم القصيدة.

والآن، خذ الحرف الأول من التفعيلة الثانية في البيت الأول، وافعل كذلك في البيت الثاني، إلى آخر الأبيات... وستجد أنَّه تجمَّع عندك بيت ثان من بحر الهَرَج، هو:

بِجَدِيهِ سَمَا حَتَّى حَوَى فِي الْوَصْفِ مَا يَكْفِي

ثم خذ الحرف الأول من التفعيلة الثالثة في البيت الأول، وتتابع أخذ الحرف الأول من التفعيلة الثالثة من الأبيات الأخرى فسترى أنَّه تجمَّع عندك بيت جديد من الهَرَج، وهكذا إلى آخر التفعيلات، وستجد الأبيات التالية، وكلَّها بحساب الجُملَ تشير إلى الرقم (١٠٢٥).

عَلَيَّ الْحَمْدُ فِي الْوَصْفِ عَلَيَّ مُسَعِّدُ الصَّنْفِ  
بِجَدِيهِ سَمَا حَتَّى حَوَى فِي الْوَصْفِ مَا يَكْفِي  
نَصْوَاهُ مَحْسَنًا يُجْدِي بَرَاهُ اللَّهُ لِلْعُرُوفِ  
بَدِيعُ الْفَعْلِ فِي وَصْفِهِ مِنْ هُونَ وَمِنْ عَنْفِ  
رَحِيبِ السَّوْحِ فِي سِيلِ كَرِيمٍ زَانَ بِاللَّطْفِ  
كَمِيَّ الْكَرَّ فِي الْهَمْجَانِ هَزِيرٌ قَطَّ مَا يَقْفِي

إِلَيْهِ يَلْبُدُ الدَّاعِي فِيمَسِي وَهُوَ مَسْكُفٌ  
تَرَى مِنْ كَانَ وَالَّاهُ يُنَادِي وَهُوَ بِالزَّحْفِ  
وَالآنَ، خذ الكلمة الأولى من البيت الأول «الهزّ» وهي كلمة «عليّ»  
ثم خذ الحرف الأول من البيت الثاني، والأول من الثالث، إلى الأخير،  
وأفعل مثل هذا في الشطر الثاني فستجده أنه تجمع عندك بيت جديد وهو:  
عَلِيٌّ بْنُ بَرَكَاتٍ عَلِيٌّ حَبْهُ كَهْفِي  
احسبه بحساب الجمل، فسترى أنّه أشار إلى الرقم (١٠٢٥).

#### د - لوحة عالمية ثانية

ومن هذا اللون العجيب والطريف وقفتنا على قصيدة أخرى نظمها عبد العزيز الزّمزمي المكي، ومدح بها الشّريف مسعود بن حسن، وأوردها ابن معصوم في سلافة العصر<sup>(١)</sup> وقد ضمنها ثلاثة أبيات، الثاني والثالث منها تاريخ. وتستخرج الأبيات الثلاثة من الحرف الأول في الشطر الأول من كلّ بيت، والثاني من الحرف الأخير من الشطر الأول من كلّ بيت، والثالث من الحرف الأول من الشطر الثاني من كلّ بيت. والقصيدة هي:

يَا ظِيَّةَ الْبَانِ مَا تَرْثِي لَذِي كَبِدَ  
أَمْسَى مِنَ الصَّدَّ وَالْهَجْرَانَ فِي الْأَمْ  
نُويحَلًا هائِمًا حِيرَانَ ذَا اسْفَ  
جَفَا الْمَنَامُ جَفَوْنَ الْعَيْنِ مِنْذُ هُوَ  
لَعَلَّ يَا مَنْ حَكَاهَا الغَصْنُ فِي مَيَسِ  
أَوْ عَلَى ثَغْرِهَا كَمْ فِيهِ مِنْ دُرَرِ  
رَشِيقَةَ لِيْسَ يَسْلُوهَا الْفَؤَادُ وَلَوْ  
أَبْهَى رَدَاحَ تَجَلَّتْ فِي سَنَاءِ قَمَرِ  
فَارِقَتْهَا وَفَوَادِي الْيَوْمِ فِي وَلَهُ  
قَالَ الْعَذُولُ: أَمَا تَسْلُو فَقْلَتْ بِمَنْ  
يَا غَادَةَ طَابَ لِي فِي عَشْقَهَا عَذَلَيِ

(١) ص ١٨٧.

نَزَّهْت نَظَمِي عَنِ الْغَرَلَانِ وَالْغَرَلَ  
 يَمْمَت مَكْحُولَةِ الْعَيْنَيْنِ بِالْكَحْلِ  
 مَنْضَدٌ يُبَرِّئُ الْمُضْنَى مِنِ الْعَلَلِ  
 جَمِيلَةُ مَالِهَا فِي الْحُسْنِ مِنْ مُثْلِ  
 دَائِي بِمَدْحِي لِنْجَلِ الْمُصْطَفَى وَعَلَى  
 لَهُ فَضَائِلُ أَهْلِ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ  
 لَكُفَّهُ مِنْ رَقَابِ النَّاسِ وَالْوَدُولِ  
 مَسْعُودٌ جَدَّ كَرِيمٍ سَيِّدُ بَطْلِ  
 لَعْزَمِهِ فَعَلَاتُ الْبَيْضِ وَالْأَسْلِ  
 كَائِنَهُ الْلَّيْثُ فِي بَطْشٍ وَفِي غَلِّ  
 دَامَتْ لَهُ نَعْمَةُ الْمَوْلَى إِلَى الْأَزَلِ  
 الْمُصْطَفَى الْطَّهَرُ هَادِي أَشْرَفِ السُّلُّ  
 رَؤُوفٌ قَلْبُهُ عَلَى الْخَلَانِ وَالْخَوْلِ  
 أَسْدِي وَبَلَغَ مَا يَرْجُوهُ مِنْ أَمْلِ

لَوْلَكُ يَا مَنْ لَهَا فِي الْقَلْبِ مَرْتَعَ  
 وَاللَّهُ لَوْلَا الظَّبَاءُ النَّازِحُونَ لِمَا  
 أَسْلَلَ طِفْلَةٌ تَسْبِي بِمَبْشِيمِ  
 فَاقَتْ عَلَى الشَّمْسِ وَالْأَقْمَارِ طَلْعُهَا  
 الْآنَ أَشْفَى مِنِ التَّشْبِيبِ وَالْغَرَلَ  
 كَهْفُ الْأَرَامِلِ وَالْأَيْتَامِ ذِي حِكْمَ  
 عَالِيِ الْذَّرَى شَامِخُ الْمَقْدَارِ كُمْ مِنْ  
 إِمامٍ أَهْلِ التَّقْوَى مَوْلَى حَوْيٍ شَرْفًا  
 مَؤَيدٌ مَاجِدٌ حَاوِي الْعَلَى مَلْكٍ  
 مَظْفَرٌ قَلْبٌ مِنْ عَادَاهُ فِي وَجْهِ  
 بَكْلَ مَاضٍ صَبَيلٌ نَالَ بَغْيَتَهُ  
 ابْنَ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ الْمَرْتَجَى لِغَدِ  
 رَفِيعٌ قَدْرُهُ عَلَى حَازَ كُلَّ وَفَا  
 كَافَاهُ ذُو الْعَرْشِ بِالْإِحْسَانِ عَنْ كَرِمِ

أَمَّا الأَبْيَاتُ الْمُسْتَخْرَجَةُ مِنْهَا فَهِيَ :

وَافِكَ	عَامِ	مَبَارِكَ	يَا نَجْلَ أَرَافَ قَبْلَ
عَامِ	الْمُنْسِى	كَلَهُ دَامَ	دَمَ فِي سَرْوَرِ هَنِي
مَسْعُودَ	أَنْشَأَ	بَانِي مَجْدُ الْمَلْكِ دَارَا	

وَإِذَا حَسِبْنَا الْبَيْتَ الثَّانِي وَجَدْنَاهُ يُشَيرُ إِلَى تَارِيخِ (٩٩٨) وَكَذَلِكَ يُشَيرُ  
 الْبَيْتُ الثَّالِثُ إِلَى تَارِيخِ ذَاتِهِ (٩٩٨).

\* \* \*

وَيَخْيَلُ إِلَيْنَا أَنَّ هَذِهِ الْبِرَاعَةَ الْفَنِيَّةَ تَذَكَّرُنَا بِالْأَعْمَالِ الْفَنِيَّةِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي  
 يَسْمُونُهَا مَرَّةً بِالْتَّشْكِيلِيَّةِ وَمَرَّةً بِالْتَّكْعِيَّةِ، وَمَرَّةً بِالسُّرْيَالِيَّةِ، وَمَرَّةً بِأَسْمَاءِ  
 أَخْرَى . . وَكَثِيرًا مَا نَخْطُلُ فِي تَفْسِيرِهَا وَلَا نَفْهَمُ مِنْهَا شَيْئًا، وَلَا نَرَى فِيهَا إِلَّا  
 خَطْوَطًا وَدَوَائِرَ وَشَطَبَا دونَ مَعْنَى . . وَيَفْرَضُونَ عَلَيْنَا أَنْ نَصْفُهَا بِالْفَنِّ، وَأَنْ  
 نَكْلِ لَهَا الاحْتِرَامَ وَالْإِجْلَالَ وَأَنْ نُضْفِي عَلَيْهَا التَّقْدِيرَ وَالتَّعْظِيمَ، وَإِلَّا وَصَفَوْنَا  
 بِالْغَبَاءِ وَالْجَهْلِ وَالْتَّأْخَرِ وَالرَّجْعِيَّةِ وَبِكُلِّ نَعْوَتِ الْقِبَاحَةِ . . وَلَا سِيمَّا إِذَا كَانَ

راسمها بيكاسو أو سواه من الأعلام الغربية . أمّا ما خرج به شاعرنا المسلم المكي .. فأقلّ ما يمكن أن يقولوا عنه : إنّه انحطاط وإسفاف . . .  
 إنّ ذنب الشاعر المكي كونه عربياً ومسلمًا وابن الدار ، وميزة ذاك كونه غريباً أو أبعد من ذلك بكثير . . .

### حساب أيقش

وبعد ، فلقد أرّخ المسلمين بالتاريخ الهجريّ ، وأرّخ الشعراء النّصارى بالتّاريخ الميلاديّ ، كما أنّ شعراء المغرب العربي لم يعتمدوا التّرتيب الأبجديّ السائد في المشرق ، وإنّما اعتمدوا «حساب أيقش» والحرروف عندهم مرتبة على الصورة التالية :

«أيقش ، بكر ، جلس ، دمت ، هنث ، وصح ، زعّد ، حفظ ، طضغ»

وحسابها كما يلي :

ط = ٩	ه = ٥	أ = ١
ضر = ٩٠	ن = ٥٠	ي = ١٠
غ = ٩٠٠	ث = ٥٠٠	ق = ١٠٠
		ش = ١٠٠٠
	و = ٦	ب = ٢
	ص = ٦٠	ك = ٢٠
	خ = ٦٠٠	ر = ٢٠٠
	ز = ٧	ح = ٣
	ع = ٧٠	ل = ٣٠
	ذ = ٧٠٠	س = ٣٠٠
	ح = ٨	د = ٤
	ف = ٨٠	م = ٤٠
	ظ = ٨٠٠	ت = ٤٠٠

والخلاف البسيط في قيم بعض الحروف بين «حساب الجمل» و «حساب أيقش». فالشين في حساب الجمل تساوي (٦٠) وفي حساب أيقش (٣٠٠). والصاد في الجمل (٩٠) وفي أيقش (٦٠). والشين في الجمل (٣٠٠) وفي أيقش (١٠٠٠) والصاد في الجمل (٨٠٠) وفي أيقش (٩٠) والظاء في الجمل (٩٠٠) وفي أيقش (٨٠٠) والغين في الجمل (١٠٠٠) وفي أيقش (٩٠٠) - وتتفق الحروف الباقية في قيمها.

من أمثلة ذلك : توفي المطرب التونسي على الرياحي سنة ١٣٩٠ للهجرة ، فنظم جلال الدين النقاش مقطوعة في رثائه ، وضمن تاريخ وفاته في البيت الأخير فقال :

في عالم الخلد أرخ (يشدو علي الرياحي)<sup>(١)</sup>

فالباء في حساب أيقش ١٠ ، والشين ١٠٠ ، والدال ٤ ، والواو ٦ ، والعين ٧٠ ، واللام ٣٠ ، والياء ١٠ ، والألف ١ ، واللام ٣٠ ، والراء ٢٠٠ ، والياء ١٠ ، والألف ١ ، والباء ٨ ، والياء ١٠ ، والمجموع ١٣٩٠ . وهو تاريخ الوفاة بالتقويم الهجري .

\* \* \*

---

(١) زخارف عربية ص ٦٤

## المشاكلة

المشاكلة في اللغة تعني المماثلة والموافقة. تقول: هذا على شكل كذا أو على مشاكلته بمعنى أنه نظيره ومثيله.

والمشاكلة في البلاغة تشرب بعض المعنى اللغوي ، وقد عرّفها العلماء بقولهم : هي ذكر الشيء بغير لفظه لوقوعه في، صحبته . وضربوا على ذلك الأمثلة الكثيرة منها : قوله تعالى : ﴿وَحَرَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا﴾<sup>(١)</sup> . و قوله تعالى : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> .

إن الملاحظ في هاتين الآيتين الكريمتين ورود لفظ (سيئة) مكررا، وللفظ (اعتدى) مكررا على صورة (فاعتدوا). وتساءل : هل المراد في الآية الأولى أن ترد الإساءة بالإساءة، والسيئة بالسيئة ، وفي الثانية تقابل الاعتداء بالاعتداء؟ أو أن المراد شيء آخر، وأن اللفظ الذي تكرر لا يحمل المعنى ذاته الذي هو للفظ الأول؟

لقد وقف العلماء أمام هذه الآيات الكريمة وقالوا: إن المراد بقوله تعالى : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ هو المماثلة في القصاص . فمن قتل بحديدة قُتِلَ بها ، ومن قُتِلَ بحجر قُتِلَ به .

(١) سورة الشورى ، الآية ٤٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٤ .

فقد روى الشیخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنَّ يهوديًّا قُتل  
جاریة على أوضاح<sup>(١)</sup> لها، فرَضَخَ رأسها بالحجارة، فاعترف بذلك، فقتله  
رسول الله صلَّى الله عليه وسلم بين حجرين، رضَّ رأسه بهما<sup>(٢)</sup>. وقد أطلق  
جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة اسم (العقوبة) على الجناية الأولى في قوله :  
﴿ بمثل ما عوقبتم به ﴾ والجناية الأولى ليست عقوبة ، لأنَّ القرآن بلسان  
عربيٍّ مبين ، وما هذه الكلمة إلاًّ أسلوب من أساليب العربية ، وهي  
(المشاكلة) بين الألفاظ ، فيذكر لفظ بغير معناه الموضوع له مشاكلة للفظ آخر  
مقترن به الكلام ، كقول الشاعر أبي الرقْعَمَ :

قالوا اقتَرِحْ شيئاً تُجْدِلَكَ طبخه قلتُ: اطْبُخُوا لي جَبَّةً وَقِيمَصَا  
أَيْ خَيْطَوْا لي . وقال بعض العلماء : ومنه قول جرير:  
هذِي الْأَرَاملُ قَدْ قَضَيْتَ حاجَتَهَا فَمَنْ لِحَاجَةٍ هَذِي الْأَرَاملُ الذَّكَرِ  
بناءً على القول : إنَّ (الأرامل) لا تُطلق في اللغة إلاًّ على الإناث .  
وهذه الآية الكريمة فيها مشاكلة لفظية ، حيث أطلق لفظ (فاقتدوا)  
مشاكلة للفظ (اعتنى) الأول .

وعلى هذا الأساس يمكن تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً  
مُثُلُّهَا ﴾ مع أنَّ القصاص ليس بسيئة ، فالحكم الذي يَحْكُمُ به الحاكم على  
قاتل ، أو مجرم ، أو سارق ، أو قاطع طريق ، أو مفسد في الأرض ، أو معتدي  
على أموال الناس أو أعراضهم .. كالقتل ، أو السجن ، أو القطع ، أو سواها  
من العقوبات ليس عملاً سيئاً ، وإنما هو تطبيق وتنفيذ لشرع الله ، وترسيخ  
للأمن والأمان للناس ، وبثُّ لِلطمأنينة في حياة الناس .. وقد قال تعالى :  
﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَيَاةٌ ﴾<sup>(٣)</sup> . وما كلمة (سيئة) الثانية إلاً مشاكلة  
للكلمة الأولى .. وأسلوب من أساليب البيان العربي .

وبمثل هذا الأسلوب نفسَر قوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ

(١) الأوضاح : جمع وَضَحَّ وهي الحليَّ من المَرَاهِم الصَّاحِحَ .

(٢) أصوات البيان في تفسير القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنطي<sup>٤٥٩ / ٣</sup> .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٧٩ .

ما في نفسك<sup>(١)</sup> أي تعلم ما في نفسي ، ولا أعلم ما عندك ، لأنَّ الحقَّ جلَّ وعلا لا يُستعمل في حقه لفظ (النفس) إلا أنها استعملت هنا على سبيل المشاكلة لما تقدم من لفظ (النفس) .

وكذلك نقول في الحديث الشريف الذي رواه الشیخان «عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل عليها وعندها امرأة . قال : «من هذه؟» قالت : هذه فلانة تذكر من صلاتها . قال : «مَهْ . عليكم بما تطقون ، فوالله لا يمْلِأُ الله حتى تملؤوا» وكان أحبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَارَ مَصَاحِبَه عليه<sup>(٢)</sup> . فالمعنى أنَّ الله لا يقطع عنكم فضله حتى تملوا من مسأله . فاستعمل كلمة (لا يمْلِأ) موضع (لا يقطع الثواب) على جهة المشاكلة اللفظية .

ومثله قول أبي تمام<sup>(٣)</sup> :

من مبلغ أبناء يعرُب كلها أني بنيت الجار قبل المترِّ  
وبهذه المناسبة نورد هذه الطُّرفة : دخل دمشق أعرابيًّا كان جاءنا ، فرأى حانوتاً فيه حلوي ، وجفنة أرز متوج باللحم والشَّحْم والأفاوه واللوز والفتق وغير ذلك من المقربات والمشهيات ، فظنَّه داراً للضيافة شارعة ، فدخله مسلماً ، وعرف الطباخ الذكيَّ قصده ، وأراد مداعبته فقال له : ألا أُسقيك ماءً مثلجاً؟ فردَّ عليه الأعرابيُّ : بل أُسقني رزًّا متوجاً ، وكُفَافَةً وكُربُجاً . ثم قال بعد أن رجع إلى أهله يقص عليهم خبره :

مررت بطَّاخٍ يُحلق عارفٌ	بأسرار طهي الرَّزِّ واللحم والشَّحْم
فقالتُ : هل منك ما يُمسك الحشا	وقد كاد مني الجوع يفتثك بالجسم
فقال : لا أُسقني الرَّزِّ المتوج باللحم	فقتلت : أستيقني ماءً مثلجاً؟
ولَا تستيقني ما ليس يُنسى به عظمي	ولَا أستيقني كُربُجاً وكُفَافَةً

وعلى هذا الأسلوب قال ابن جابر الأندلسي :

وقالوا : أَنْجِذْ ذُهْنَاهَا لِتُلْبِكَ يَشْفُو  
قلت : ادْهُوْهُ بِخَدْوَ المُتَوَرِّ

(١) سورة المائدة ، الآية ١١٦ .

(٢) عن رياض الصالحين ص ٥١ (باب الاقتصاد في الطاعة) .

(٣) أنوار الربيع ٤ / ٢٨٥ .

## التخيير

وهذا لون آخر من ذوات القوافي، سُمِّاه علماء البلاغة «التَّخَيِّر» وهو أنْ يأْتِي الشَّاعِر ببيت يسُوغ فيه أنْ يأْتِي بقوافِ شَتَّى، فيتَخَيِّرُ منها قافية يرجحها على سائرها يستدلُّ بتخييرها على حسن اختياره، كقول الشَّاعِر:

إنَّ الغريب الطَّويل الذِّيل ممتهنٌ فكيف حالُ غريبٍ مالهُ قُوتُ  
فإنه يسُوغ فيه أنْ يقال : «مالهُ مالٌ» و «مالهُ سببٌ» و «مالهُ أحدٌ» فإذا  
تأملتْ «ماله قوت» وجدتها أبلغُ الجميع ، وأدَلَّ على القافية ، وأنمسَ بذكر  
الحاجة ، وأبَينَ للضرورة ، وأشجى للقلوب ، وأدعى للاستعطاف ، فلذلك  
رجحت على ما ذكرناه<sup>(١)</sup>.

وإذا تأملنا الشَّعر العربي في مختلف عصوره لم نعدم وجود أبيات من  
هذا القبيل ، مما يمكن أن تقلب قوافيها وتتعدد ، ولقد اشتهر بين الناس أبيات  
ديك الجنِّ الحِمْصي عبد السلام بن رغبان الكلبي :

قُولِي لطيفك يُشْتِي عن مضجعي عند المنام  
فعسى أنَّم فتنطفئي نارُ تأجُّج في العِظام  
جسد ثُلْبُه الأكْ فُ على فراشِي من سقام  
اما أنا فَكَمَا عِلْمَتِ فهل لوصلكِ من دوام

(١) خزانة الأدب ص ٧٨ ، وعتنود الجمان ٢/١٩٣.

فالقوافي التي يمكن أن ينشد بها هذا الشعر هي :

عند الوسن	عند الهجوع	عند الرقاد	عند المنام
في الْبَدَن	في الْضُّلُوع	في الْفُؤَاد	في العظام
من حَزَنَ	من ذَهَنَ	من قَادَ	من سَقَام
من ثَمَنَ	من رَجُوع	من مَعَادٍ	من دَوَامٍ

ونعتقد أن في هذا التلوين تصنيعا يخرج بالشعر عن حد الطبع إلى مجال الكلفة والافتعال .

\* \* \*

## حولة الفرس في رقعة الشطرنج

الشطرنج كلمة فارسية معربة . ومعناها : الألوان السّتّة ، لأنَّ اللّعبة تتكون من ستة ألوان ، أو أنواع ، هي :

الشَّاه ، والفرز ، والفيل ، والفرس ، والرَّخ ، والبَيْدق ، ولكلَّ لون أو قطعة طريقتها في التّنقل وفي (الأكل) . ومن المعروف أنَّ الفرس يتحرّك في الرُّقعة الشطرنجيَّة على شكل حرف اللام الجارّة (ل) في كلِّ اتجاه ، وأنَّه لا يتّنقل من مربع أسود إلاً إلى مربع أبيض ، وبالعكس .

ومعروف أنَّ عدد مربعات رقعة الشطرنج ٦٤ مربعاً ، فإذا وضعت الفرس في إحدى مربعاتها فهل تستطيع أن تنقله ٦٣ مرة بالطريقة التي يسير بها على الرقعة ، أي على شكل (ل) وتجعله يمر بـكامل مربعات الرقعة مرّة واحدة في كل مربع ؟  
لقد استطاع أحد الحاذقين في لعبة الشطرنج أن يجد لك هذا الحل .  
فانظر إلى الرسم الأول وتتبع الأرقام .

ولكنَّ أحد المغزمين بالزخارف العربية والتزويق كتب (رباعيَّة) ، قسم كلماتها على جميع مربعات رقعة الشطرنج بالطريقة المذكورة في الرسم الأول ، وجعل الكلمات عوض الأرقام ، فتتبع كلمات هذه الأبيات الأربع . على الرقعة وانتقل فيها من الأسود إلى الأبيض ، وبالعكس بطريقة سير الفرس في كل اتجاه ، وسترى أنك قد انتقلت بالفرس في كامل مربعات رقعة الشطرنج ، أي نقلت الفرس ٦٣ مرة ، وإذا كانت لديك رقعة فطبق عليها بعد ذلك .

هي الأفراسُ تُسرنُ قافزاتِ  
تُعينُ الشَّاهَ حيثُ كَبِيرُ عَيْرِ  
وفي الإِبَهَام لِيس لها نظيرٌ  
رشيقاتٌ وقد أخذت بِلَبَّيِ فُؤُونَ

إنَّ هذا اللَّون من الرَّحَارَفِ الْعَرَبِيَّةِ، غَدَ لا يَفْهَمُهُ وَلَا يَرُوْقُ إِلَّا لِمَحْيَى هَذِهِ الْلَّعْبَةِ.

أ	اث	م	كُو	يَقَ	الشَّ	لَهَا	هِيَ	سَ	فُتْ	هَا	أَلْ
ب	جَ	وَقَدْ	لَيْ	نُ	تَهُ	لَهَا	لَهَا	هَا	فُتْ	هِيَ	أَلْ
د	اه	مَعَ	ثِعَ	أَجَ	سِيرُونُ	بَتِ	الْأَلْفُ	لَهَا	هِيَ	سَ	هِيَ
ه	أَحَ	سُونُ	كَاتِ	عَيْ	رَاسُ	نَظِ	جَتْ	لَهَا	هِيَ	لَهَا	أَلْ
و	خَا	أَحَدْ	سِيِّ	بِمَ	رَنُونُ	بَوْثِ	الْأَلْفُ	لَهَا	هِيَ	لَهَا	أَلْ
ز	ذَذْ	سِيِّرُ	وَ	جَمِ	رَنُونُ	وَبَهْ	رِمَّا	لَهَا	هِيَ	لَهَا	أَلْ
ح	كَبِ	أَلْ	هَتَّهَا	بُلْ	وَأَهْ	رَاتِ	هَا	لَهَا	هِيَ	لَهَا	أَلْ

## كلمة الختام

وبعد، فإنني أتوجه إلى العلي القدير بآيات الحمد والشكر على ما أעان  
ويسّر وفتح ، وأسئلته أن يبارك هذا العمل ، وينفع به ، ويجعله وسيلة إلى فهم كتابه  
المعجز ، وما تركه لنا السلف الطيب من روايـع أدبية وفنـية ، سطـرـوها بهذه اللـغـة  
المباركة .

اللـهم أـسـأـلـكـ أـنـ تـجـعـلـ هـذـاـ مـقـبـلـاـ بـيـنـ يـدـيـكـ ، وـتـؤـخـرـ لـيـ وـلـوـالـدـيـ أـجـرـهـ إـلـىـ  
يـوـمـ تـشـيـبـ مـنـ هـوـلـيـهـ الـوـلـدـانـ .

اللـهمـ صـلـ وـسـلـمـ عـلـىـ سـيـدـنـاـ مـحـمـدـ ، عـبـدـكـ وـرـسـوـلـكـ ، وـعـلـىـ آـلـهـ وـصـحـبـهـ  
أـجـمـعـينـ .

وـآـخـرـ دـعـوـاـنـ أـنـ الـحـمـدـ لـلـهـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ .

## المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - ابن حجة الحموي شاعراً ونادقاً، د. محمود الريداوي، دار قتبة، دمشق ١٩٨٢ م.
- ٣ - الأدب في بلاد الشام، د. عمر موسى باشا، دمشق ١٩٧٢ م.
- ٤ - الأدب في العصر المملوكي، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١ م.
- ٥ - الآداب العربية في القرن التاسع عشر، لويس شيخو، مجلة المشرق (أعداد مختلفة).
- ٦ - ابن سناء الملك، د. عبد العزيز الأهواني، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٢ م.
- ٧ - أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، المنار بمصر ودار المعرفة بيروت ١٩٨٢ م.
- ٨ - أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، محمد الشنقيطي، دار المدنى، جدة ١٩٧٩ م.
- ٩ - إعجاز القرآن، محمد الباقلاني، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤ م.
- ١٠ - الأعلام، خير الدين الزركلي، ط٢، مطبعة كوستاتسوماس، القاهرة ١٩٥٩ - ١٩٥٤ م.
- ١١ - الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الكتب، القاهرة .

- ١٢ - الأمالى، لأبى على القالى، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م.
- ١٣ - أنوار الربيع في أنواع البديع، علي بن معصوم، تحقيق شاكر هادى شكر، العراق ١٩٦٨ م.
- ١٤ - البديع، ابن المعتز، نشر كراتشوفسكي، دمشق.
- ١٥ - بديع التحرير شرح ترجمان الضمير، محمد بدر الدين الرافعي، المطبعة العلمية القاهرة ١٣١٣ هـ.
- ١٦ - بديع التلخيص وتلخيص البديع، طاهر الجزائري، دمشق ١٢٩٦ هـ.
- ١٧ - البديعيات في الأدب العربي، علي أبو زيد، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٣ م.
- ١٨ - بديع القرآن، تحقيق حفني محمد شرف، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٧ م.
- ١٩ - بردة البوصيري، طبع شركة الشمرلي، القاهرة ١٩٨٢ م.
- ٢٠ - البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر الزركشي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٤ م.
- ٢١ - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد الفتاح الصعيدي، المطبعة النموذجية، مصر.
- ٢٢ - البلاغة، تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥ م.
- ٢٣ - بلاغة القرآن، محمد الخضر حسين، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧١ م.
- ٢٤ - البلاغة الواضحة، على الجارم ومصطفى أمين، ط٥، القاهرة ١٩٣٨ م.
- ٢٥ - البيان العربي، د. بدوى طبانة، ط٥، دار العودة، بيروت ١٩٧٢ م.
- ٢٦ - البيان والتبين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٨ م.
- ٢٧ - البيان في غريب القرآن، ابن الأبارى، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٩ م.
- ٢٨ - تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ط٢. مطبعة

- الاستقامة، القاهرة ١٩٥٤ م.
- ٢٩ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧١ م.
- ٣٠ - تحرير التحبير، زكي الدين ابن أبي الاصبع، تحقيق د. حفني محمد شرف، القاهرة.
- ٣١ - التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٥ م.
- ٣٢ - تهذيب الإيضاح، عز الدين التنوخي، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٤٨ م.
- ٣٣ - تلخيص المفتاح للقرطبي، شرح البرقوقي، القاهرة ١٩٠٤ م.
- ٣٤ - التورية وخلو القرآن منها، د. محمد جابر فياض، دار المنارة، جدة ١٩٨٥.
- ٣٥ - جنان الجناس، صلاح الدين الصفدي، مطبعة الجواب، القدسية ١٢٩٩ هـ.
- ٣٦ - جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٦٣ م.
- ٣٧ - الحجة على من زاد على ابن حجة في علم البدع، عثمان الجليلي، الموصل ١٩٣٧ م.
- ٣٨ - حدائق السحر في دقائق الشعر، لرشيد الدين الوطواط، لجنة التأليف، القاهرة ١٩٤٥ م.
- ٣٩ - خريدة القصر، العماد الكاتب الأصفهاني، لجنة التأليف، القاهرة ١٩٥١ م.
- ٤٠ - خزانة الأدب ونهاية الأرب، ابن حجة الحموي، مطبعة بولاق، القاهرة ١٢٧٣ هـ.
- ٤١ - الخصائص، ابن جني، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩١٣ م.
- ٤٢ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، الهند ١٣٤٨ هـ.
- ٤٣ - ديوان أب، عمر بهاء الدين الأميري.

- ٤٤ - ديوان ابن حيوس ، تحقيق خليل مردم بك ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٥١ م.
- ٤٥ - ديوان ابن خفاجة ، تحقيق مصطفى غازى ، مطبعة الاسكندرية ١٩٦٠ م.
- ٤٦ - ديوان ابن الدمينة ، تحقيق أحمد راتب النفاح ، مطبعة دار العروبة ، القاهرة ١٩٦٠ م.
- ٤٧ - ديوان الخنساء ، دار صادر ، بيروت .
- ٤٨ - ديوان ابن دريد ، مطبعة لجنة التأليف ، القاهرة ١٩٤٦ م.
- ٤٩ - ديوان دعبدالخزاعي ، تحقيق د. عبد الكريم الاشتراط ، طبع مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٦٤ م.
- ٥٠ - ديوان ابن الرومي ، تحقيق د. حسين نصار ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
- ٥١ - ديوان ابن زيدون ، شرح وتحقيق علي عبد العظيم ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٧ م.
- ٥٢ - ديوان ابن الفارض ، تحقيق الدكتور فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت ، ١٩٦٩ م.
- ٥٣ - ديوان ابن معنوق ، طبعة سعيد الشرتوبي ، بيروت ١٨٨٥ م.
- ٥٤ - ديوان ابن هانىء الأندلسى ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٧٦ م.
- ٥٥ - ديوان أبي تمام ، تحقيق محمد عبله عزام ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥١ م.
- ٥٦ - ديوان أبي الفتح البستي ، بيروت ١٢٩٤ م.
- ٥٧ - ديوان أبي فراس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦١ م.
- ٥٨ - ديوان أبي نواس ، تحقيق الغزالى ، مطبعة مصر ١٩٥٣ م.
- ٥٩ - ديوان البحتري ، تحقيق حسين كامل الصيرفي طبع دار المعارف ، مصر ١٩٧٢ م.
- ٦٠ - ديوان بدوى الجبل ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٨ م.
- ٦١ - ديوان البوصيري ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، مطبعة البابي الحلبي ط ٢ ، ١٩٧٣ م.

- ٦٢ - ديوان الحلي ، مطبعة دار صادر ، بيروت ١٩٦٤ م .
- ٦٣ - ديوان رؤبة بن العجاج ، تصحیح وترتیب ولیم بن الورد البروسي ، نشر دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩ م .
- ٦٤ - ديوان الشافعی ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٨٣ م .
- ٦٥ - ديوان الطغرائي ، مطبعة الجوائب ، القصطفطینية ، ١٣٠٠ هـ .
- ٦٦ - ديوان عمر أبي ریشة ، دار العودة ، بيروت ١٩٧١ .
- ٦٧ - ديوان عمر بن أبي ربیعه ، تحقيق محمد محی الدین عبد الحمید ، طبع المکتبة التجاریة الكبیری ، القاهره .
- ٦٨ - ديوان الفرزدق ، تحقيق الصاوی ، طبع المکتبة التجاریة الكبیری ، القاهره .
- ٦٩ - ديوان كثیر عَزَّة ، تحقيق د . إحسان عباس ، طبع دار الثقافة ، بيروت ١٩٧١ .
- ٧٠ - ديوان المتنبی . دار صادر ، بيروت .
- ٧١ - ديوان مسلم بن الولید ، تحقيق د . سامي الدهان ، طبع دار المعارف بمصر ، القاهره .
- ٧٢ - ديوان النابغة الجعدي ، طبع المکتب الاسلامي ، دمشق ١٩٦٤ م .
- ٧٣ - ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، طبع دار المعارف بمصر ، القاهره ١٩٧٧ م .
- ٧٤ - ديوان ابن نباتة .
- ٧٥ - رسالة المسترشدین ، للحارث المحاسبي ، تحقيق وتحریج عبد الفتاح أبو غدة . ط ٢ ، مکتب المطبوعات الاسلامية . حلب - بيروت ١٩٧١ .
- ٧٦ - رياض الصالحين ، النَّوْوي ، دار الشعاع ، جدة .
- ٧٧ - زخارف عربية ، د . نور الدين صمود . نشر الشرکة التونسية للتوزيع .
- ٧٨ - سعود المطالع فيما تضمنه الإلغاز في اسم حضرة والي مصر من العلوم اللوامع ، دار الطباعة ، بولاق ١٢٨٣ هـ .
- ٧٩ - سلاقة العصر في محسن الشعراء بكل مصر ، ابن معصوم ، علي صدر الدين ، ط ٢ ، مطابع علي بن علي ، الدوحة ١٣٨٢ هـ .
- ٨٠ - سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ، محمد الخليل المرادي ، دار

- الطباعة ، بولاق ١٢٩١ - ١٣٠١ هـ .
- ٨١ - سنن ابن ماجه ، أبو عبد الله محمد بن يزيد ، تعلق وتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٧ م .
- ٨٢ - شاعر حلبي مجهول (ابن الأفونجية) ، لويس شيخو ، مجلة المشرق ١٨٩٩ المجلد ٢ العدد ١٠ .
- ٨٣ - شجر الدر ، لأبي الطيب ، دار المعارف ، مصر ١٩٥٧ م .
- ٨٤ - شدرات الذهب ، ابن العماد الحنبلـي ، مكتبة القديسي ، القاهرة ١٣٥٠ هـ .
- ٨٥ - شرح بدريعة صفي الدين الحلـي ، له ، الطبعة العلمية ، حلب ١٣١٦ هـ .
- ٨٦ - شرح ديوان بهاء الدين زهير ، دار الكاتب العربي ، بيروت ١٩٦٨ م .
- ٨٧ - شرح شعر زهير بن أبي سلمى ، صنعة أبي العباس ثعلب تحقيق د . فخر الدين قباوة ، منشورات . دار الأفق الجديدة ، بيروت ١٩٨٢ م .
- ٨٨ - شرح شواهد المغني ، للسيوطـي ، تصحيح الشيخ محمد الشنقطـي ، طبع لجنة التراث العربي ، دمشق ١٩٦٦ م .
- ٨٩ - شرح القصائد العشر للخطيب التبريزـي ، تحقيق د . فخر الدين قباوة ط ٢ . حلب ١٩٧٣ م .
- ٩٠ - شعر الأخطل . صنعة السكري . تحقيق د . فخر الدين قباوة ، نشر دار الأفق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩ م .
- ٩١ - الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٩ م .
- ٩٢ - الصاحبـي ، ابن فارس ، تحقيق مصطفى الشويمـي ، بيروت ١٩٦٣ م .
- ٩٣ - الصبغ البـديعـي ، د . أحمد إبراهـيم موسـى ، دار الكاتـب العـربـي ، القاهرة ١٩٦٩ م .
- ٩٤ - صحيح البخارـي ، مطبعة بولاق ، القاهرة ١٢٩٦ هـ .
- ٩٥ - صحيح الترمذـي ، مطبعة البابـي الحلـي ، القاهرة ١٩٣٧ م .
- ٩٦ - صحيح مسلم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- ٩٧ - صفي الدين الحلـي ، حياته وشعره ، د . ياسـين الأـيوـبـي ، بيـرـوـت .

- ٩٨ - الصورة بين البلاغة والنقد، د. أحمد بنعام الساعي ، دار المنارة ، جدة ١٩٨٤ م.
- ٩٩ - طالع السعد الرفيع في شرح نور البديع ، عبد الحميد قدس ، المطبعة الميمونة ، مصر ١٣٢١ هـ
- ١٠٠ - الطراز ، يحيى بن حمزة العلوى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٠ م.
- ١٠١ - العاطل الحالى ، صفي الدين الحلبي ، فيسبادن ١٩٥٦ م.
- ١٠٢ - عصر الانحدار ، محمد أسعد طلس ، مكتبة الأندلس ، بيروت ١٩٥٧ م.
- ١٠٣ - العقد البديع في فن البديع ، بولس عواد ، المطبعة العمومية الكاثوليكية ، بيروت ١٨٨١ م.
- ١٠٤ - عقود الجمان في المعاني والبيان ، للسيوطى ، القاهرة ١٩٥٥ م.
- ١٠٥ - العمدة في محسن الشعر وأدابه ونقاوه ، ابن رشيق ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ط ٢ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٥٥ م.
- ١٠٦ - عيار الشعر ، ابن طباطبا محمد بن أحمد العلوى ، تحقيق الحاجري وزغلول سلام ، القاهرة ١٩٥٦ م.
- ١٠٧ - الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان ، الأمير حيدر أحمد الشهابي ، تحقيق أسد رستم وفؤاد أفرام البستانى ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٣ م.
- ١٠٨ - الفاصلة في القرآن ، محمد الحسناوى ، دار الأصيل ، حلب.
- ١٠٩ - فض الختم عن التورية والاستخدام ، الصفدي ، مخطوط بدار الكتب المصرية (ن خ ١٢٦).
- ١١٠ - فوات الوفيات ، ابن شاكر الكتبى ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .
- ١١١ - في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ١٩٧٠ .
- ١١٢ - القصيدة اليتيمة ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد (رسائل ونصوص) (٧) بيروت ١٩٧٤ م.

- ١١٣ - القطار السريع لعلم البديع ، حفني ناصف ، مطبعة الواعظ ، مصر .
- ١١٤ - كتاب ألفباء ، الحاج يوسف محمد البلوي ، عالم الكتب ، بيروت . ١٩٨٥ م.
- ١١٥ - الكتاب لسيبويه ، تحقيق محمد عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة ١٩٧٧ م.
- ١١٦ - كتاب الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق د. مفید قمیحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨١ .
- ١١٧ - كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام ، لابن حجة الحموي ، بيروت ١٣١٢ هـ .
- ١١٨ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، كاتب جلبي ، مصطفى بن عبد الله ، مطبعة وكالة المعارف ، استانبول ١٩٤١ - ١٩٤٣ م.
- ١١٩ - الآلية الترسيع في علم البديع ؟ يوحنا الحداد ، المطبعة الأدبية ، بيروت ١٩٠٥ م.
- ١٢٠ - لسان العرب ، ابن منظور ، محمد بن مكرم .
- ١٢١ - مجمع البحرين ، ناصيف اليازجي ، دار صادر ، بيروت .
- ١٢٢ - المدائح النبوية ، د. زكي مبارك ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ م.
- ١٢٣ - مسند أبي داود ، مطبعة أنصار السنة ، القاهرة ١٩٤٨ م.
- ١٢٤ - مسند أحمد بن حنبل ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٩ م.
- ١٢٥ - مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، د. بكري شيخ أمين ، دار العلم للملائين ، ط٤ ، ١٩٨٤ .
- ١٢٦ - معاهد التنصيص ، عبد الرحيم العباسى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، طـ المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٤٧ م.
- ١٢٧ - المعجم الأدبي ، د. جبور عبد النور ، دار العلم للملائين ، بيروت ١٩٧٩ م.
- ١٢٨ - معجم الشعراء ، المرزبانى ، تحقيق عبد الستار فراج ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٠ .

- ١٢٩ - مفتاح العلوم ، للسكاكى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣ م .
- ١٣٠ - مقامات الحريري ، طبع المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة .
- ١٣١ - مقصورة ابن دريد ، طبع حلب ١٩٧٨ م .
- ١٣٢ - المثل السائر ، ضياء الدين ابن الأثير ، تحقيق د . الحوفي ود . طبانة ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- ١٣٣ - من بلاغة القرآن ، أحمد بدوى ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٠ م .
- ١٣٤ - المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره ، للتينيسي ، تحقيق د . محمد رضوان الداية ، دار قتبة ، دمشق ١٩٨٢ م .
- ١٣٥ - منهج البلاغة وسراج الأدباء ، لأبي الحسن حازم القرطاجي ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة تونس ١٩٦٦ م .
- ١٣٦ - الموازنة بين الطائين ، الأمدي ، تحقيق السيد صقر ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- ١٣٧ - الموجز في تاريخ البلاغة ، د . مازن المبارك ، دار الفكر ، دمشق .
- ١٣٨ - الموسح ، للمرزباني ، تحقيق الجاجي ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- ١٣٩ - النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ م .
- ١٤٠ - النظم الفني في القرآن ، عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٥٠ م .
- ١٤١ - نفحات الأزهار على نسمات الأسفار في مدح النبي المختار ، عبد الغني النابلسي . مطبعة بولاق ١٢٩٩ هـ .
- ١٤٢ - نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق المستشرق س . أ . بونياكر ، ليدن ١٩٥٦ م .
- ١٤٣ - النكت في أعيجاز القرآن للرماني ضمن : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق خلف الله وسلم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٥ م .
- ١٤٤ - نكت الهميان في نكت العميان ، صلاح الدين الصفدي ، تحقيق أحمد زكي ، مصر ١٩١١ م .
- ١٤٥ - نهاية الإعجاز في دراسة الاعجاز ، للرازي ، تحقيق ودراسة د . بكري

- شيخ أمين، دار العلم للملائين، بيروت ١٩٨٥ م.
- ١٤٦ - نهج البلاغة، طبع مكتبة الأندلس، بيروت.
- ١٤٧ - هدية العارفين وأسماء المؤلفين وأثار المصنفين، مطبعة وكالة المعارف. استانبول ١٩٥١ م.
- ١٤٨ - وفيات الأعيان، ابن خلkan، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٢٩٩ هـ.
- ١٤٩ - يتيمة الدهر، للشعالي، المطبعة الحنفية، دمشق ١٣٠٣ هـ.

## فهرس الموضوعات

### الصفحة

٩	القسم الأول : جماليات في النظم والمعنى
١١ .....	البديعيات .....
١١ .....	- ما هي البديعيات ؟ .....
١٢ .....	- ولادة البديعيات وتطورها .....
١٨ .....	- شعراء البديعيات .....
٢٢ .....	- أثر البديعيات في الأدب .....
٢٤ .....	- أثر البديعيات في البلاغة .....
٢٦ .....	المبالغة .....
٢٧ .....	- المبالغة بين القبول والرفض .....
٣٠ .....	- أصحح قولهم : أَعْذَبُ الشِّعْرَ أَكْذَبَهُ ؟ .....
٣٢ .....	- المبالغة وقضية الصدق والكذب .....
٣٣ .....	- بين المبالغة والخيال .....
٣٣ .....	- بين المبالغة وفروع البيان .....
٣٤ .....	- متى تُعَابُ المبالغة ؟ .....
٣٧ .....	- متى تُحَسَّنُ المبالغة .....
٣٨ .....	- طرفة في موضوع المبالغة .....

٣٩ .....	- المبالغة في المديح البوبي .....
٤٠ .....	- المبالغة وأسماء الله الحسنى .....
٤٠ .....	- أسماء المبالغة في علم الصرف .....
٤٠ .....	- هل المبالغة تحسين معنوي؟ .....
٤٢ .....	<b>الطباق والمقابلة .....</b>
٤٢ .....	- الطباق في اللغة .....
٤٣ .....	- الطباق في البلاغة .....
٤٣ .....	- الطباق الحقيقي والمجازي .....
٤٥ .....	الطباق بين السلب والإيجاب .....
٤٦ .....	- الطباق الخفي .....
٤٦ .....	- الطباق الوهمي .....
٤٧ .....	- الطباق الفاسد .....
٤٨ .....	- التدبيج .....
٥٠ .....	- المقابلة وتعريفها .....
٥٠ .....	- مقابلة اثنين باثنين .....
٥١ .....	- مقابلة ثلاثة بثلاثة .....
٥١ .....	- مقابلة أربعة بأربعة .....
٥٢ .....	- مقابلة خمسة بخمسة .....
٥٣ .....	- هل الطباق تحسين معنوي؟ .....
٥٤ .....	- الطباق والصورة الفنية .....
٦٥ .....	<b>مراجعة النظير .....</b>
٦٥ .....	- المعنى البلاغي لمراجعة النظير .....
٦٥ .....	- التقاد ومراجعة النظير .....
٦٩ .....	- ائتلاف اللفظ والمعنى .....
٧٢ .....	- ائتلاف اللفظ واللُّفط .....
٧٥ .....	- ائتلاف المعنى والمعنى .....
٧٦ .....	- هل مراجعة النظير تحسين معنوي؟ .....
٨١ .....	<b>الإِرْصاد .....</b>
٨١ .....	- المعنى اللغوي والبلاغي .....
٨٢ .....	- أسس الإِرْصاد .....

- الإرصاد ومراعاة النظير .....	٨٣
- الإرصاد والفاصلة القرآنية .....	٨٣
- من شروط الإرصاد .....	٨٥
<b>التَّورِيَّةُ .....</b>	<b>٨٦</b>
- المعنى اللغوي والبلاغي .....	٨٦
- مسميات التَّورِيَّةُ في كتب البلاغة .....	٨٦
- شواهد من قصص التَّورِيَّةُ .....	٨٧
- تاريخ التَّورِيَّةُ وأعلامها .....	٨٨
- أقسام التَّورِيَّةُ .....	٩٠
<b>تَأكِيدُ المَدْحَ بِمَا يُشَبِّهُ الذَّمَّ وَتَأكِيدُ الذَّمَّ بِمَا يُشَبِّهُ المَدْحَ .....</b>	<b>٩٦</b>
- العلاقة النفسية في أسلوب المدح أو الذم .....	٩٧
<b>أَسْلَوبُ الْحَكِيمِ أَوْ: الْقُولُ بِالْمَوْجِبِ .....</b>	<b>١٠٤</b>
الاقتباس .....	١٠٨
- أقسام الاقتباس .....	١٠٨
<b>التَّضْمِينُ .....</b>	<b>١١٣</b>
- جوازات التَّضْمِين .....	١١٥
- عصر التَّضْمِين .....	١١٥
- تسميات أنواعه .....	١١٥
<b>الْفَسْمُ الثَّانِيُّ: جَمَالِيَّاتُ فِي الشَّكْلِ وَالْأَسْلَوبِ .....</b>	<b>١١٧</b>
<b>السَّجْعُ .....</b>	<b>١١٩</b>
- السَّجْعُ بَيْنَ التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ .....	١٢٠
- شروط السَّجْع .....	١٢٧
- أقسام السَّجْع .....	١٢٧
<b>الْتَّرْصِيعُ .....</b>	<b>١٢٩</b>
الجناس .....	١٣١
- الجناس في اللغة .....	١٣١
- الجناس في البلاغة .....	١٣١
- الجناس بين القبول والرفض .....	١٣١

١٣٤ .....	- أقسام الجناس .....
١٣٤ .....	أ - الجناس التام .....
١٣٩ .....	ب - الجناس غير التام .....
١٤٨ .....	ما لا يستحيل بالانعكاس .....
١٤٩ .....	- الطرد مدح والعكس هجاء .....
١٥١ .....	- طرفة لطيفة فيها لحن وقلب .....
١٥٣ .....	الإهمال والإعجماء .....
١٥٤ .....	- قصيدة مهمّلة .....
١٥٤ .....	- قصيدة مُعجمة .....
١٥٤ .....	- قصيدة مُلمَعة .....
١٥٥ .....	- قصيدة خيّفاء .....
١٥٥ .....	- قصيدة رقطاء .....
١٥٥ .....	- قصيدة عاطل العاطل .....
١٥٦ .....	الشعر الهندسي .....
١٥٦ .....	- معنى التسمية .....
١٥٦ .....	- بوادر الشعر الهندسي .....
١٥٧ .....	- الشعر الهندسي والمحبوب .....
١٥٧ .....	- الأشكال الهندسية .....
١٥٧ .....	- شكل المثلث .....
١٥٩ .....	- شكل المربع .....
١٦٠ .....	- الدائرة البسيطة .....
١٦١ .....	- الدائرة المركبة .....
١٦١ .....	أ - الدائرة التّجميّة .....
١٦٢ .....	ب - الدوائر المركبة .....
١٦٧ .....	المشجر والمطرز .....
١٧١ .....	- التّطريز .....
١٧٣ .....	التّشريع أو (ذوات القوافي) .....
١٧٣ .....	- الإسقاط في التّشريع .....

- قصائد من قصيد	.....	177
<b>التَّارِيخُ الشَّعْرِيُّ (حِسابُ الْجُمَلِ)</b>	.....	182
- نشأته .....	.....	182
- شروط حسن استخدامه .....	.....	184
- أمثلة ، ولوحتان عالميتان .....	.....	186
- حساب أينش <sup>®</sup> (في المغرب العربي) .....	.....	191
<b>المشاكلة</b> .....	.....	193
<b>التَّخْيِير</b> .....	.....	197
<b>جولة الفرس في رقعة الشَّطرنج</b> .....	.....	198
<b>المصادر والمراجع</b> .....	.....	203
<b>فهرس الموضوعات</b> .....	.....	213

## من أعمال المؤلف

- ١ - التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٧٩ م.
- ٢ - أدب الحديث النبوي، دار الشروق، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨١ م.
- ٣ - الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، دار العلم للملائين، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٦ م.
- ٤ - مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، دار العلم للملائين، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٦ م.
- ٥ - المعلقات السبع، دار الإنسان الجديد، بيروت ١٩٧٩ م.
- ٦ - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، للإمام فخر الدين الرازي (تحقيق ودراسة)، دار العلم للملائين، بيروت ١٩٨٥ م.
- ٧ - البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني). دار العلم للملائين، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٥ م.
- ٨ - البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البيان). دار العلم للملائين، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٥ م.
- ٩ - البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البديع)، دار العلم للملائين، بيروت ١٩٨٧ م.